

ليلى الغنم ليلة

Mico Mark

نجيب محفوظ

شهریار

عقب صلاة الفجر ، وسحب الظلام صامدة أمام دفقة الضياء المتوثبة ، دعى الوزير دندان الى مقابلة السلطان شهریار ٠٠ تلاشت رزانة دندان ، خفق قلب الأبوة بين جوانحه ، غمغم وهو يرتدى ملابسه : « الآن تقرر المصير ٠٠ مصيرك يا شهرزاد ! » ٠٠

مضى فى الطريق الصاعد الى الجبل على برذون يتبعه نفر من الحراس ويتقدمه حامل مشعل فى جو مشعشع بالندى وبرودة مستأنسة ٠٠ ثلاثة أعوام مضت بين الخوف والرجاء ، بين الموت والاهل ٠٠ مضت فى رواية الحكايات ، وبفضل الحكايات امتد الأجل بشهرزاد ثلاثة أعوام ٠٠ غير أن للحكايات نهاية ككل شيء ، وقد انتهت أمس فأى قدر يرصدك يا ابنتى الحبيبة ٠٠!؟

دخل القصر الرابض فوق الجبل ٠٠ اقتاده الحاجب الى شرفة خلفية تطل على الحديقة المترامية ٠٠ بدا شهریار فى مجلسه على ضوء قنديل واحد ، سافر الرأس ، غزير الشعر أسوده ، تلمع عيناؤه فى وجهه الطويل ، وتفتش أعلى صدره لحية عريضة ٠٠ قبل دندان الأرض بين يديه ٠٠ داخلته رهبة - رغم طول المعاشرة - لرجل حفل تاريخه بالصرامة والقسوة ودماء الأبرياء ٠٠ وأشار السلطان باطفاء القنديل الوحيد فساد الظلام ، ولأجت بوضوح نسبي أشباح الأشجار الفواحة ٠٠ تمتم شهریار :
- ليكن الظلام كى أرصد انبثاق الضياء ٠٠

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

تفاعل دندان شيئا ما وقال .
 - متعك الله يا مولاي بأطيب ما فى الليل والنهار ..
 صمت .. لم يستطيع دندان أن يستشف ما وراء وجهه من رضى
 أو سخط حتى قال بهدوء :
 - اقتضت مشيئتنا أن تبقى شهرزاد زوجة لنا ..
 وثب دندان واقفا ثم انحنى على يد السلطان فلقمها بإمتهان
 ودمع الشكر يتحرك فى أعماقه .
 - فليؤيد الله سلطانك الى ابد الأبد ..
 قال السلطان وكأنما تذكر ضحاياه :
 - العدل له وسائل متباينة ، منها السيف ومنها العفو ، والله
 حكمته ..
 - سدد الله خطاك الى حكمته يا مولاي ..
 فقال بارتياح :
 - حكاياتها السحر الحلال ، تنفتحت عن عوالم تدعو للتأمل ..
 ثمل الوزير بفرحته صامتا فقال السلطان :
 - وأنجبت لى وليدا فسكنت عواصف النفس الهائجة ..
 - لتهنأ يا مولاي بالسعادة فى الدارين ..
 تتمم السلطان باقتضاب :
 - السعادة ! ..
 قلق دندان لسبب غامض .. ارتفع صياح الديكة .. قال
 السلطان وكأنما يخاطب نفسه :
 - الوجود أغمض ما فى الوجود !
 غير أن نبرته تخففت من الحيرة وهو يقول :
 - انظر ! ..
 نظر دندان نحو الأفق فرآه يتورد بالسرور المقدس ..

★ ★ ★

شهرزاد

استأذن دندان فى مقابلة ابنته شهرزاد .. قادته قهرمانة الى
 حجرة الورد ذات السجادة والستائر الموردة .. ذات الدواوين
 والوسائد المشربة بالحمرة .. هناك استقبلته شهرزاد وأختها
 دنيا زاد .. قال الرجل :
 - ينوء ظهري بالسعادة فالحمد لله رب العالمين ..
 أجلسته شهرزاد الى جانبها على حين انسحبت دنيا زاد الى
 مقصورتها .. قالت شهرزاد :
 - نجوت من المصير الدامى برحمة من ربنا ..
 فغمغم الرجل شاكرا فقالت بمرارة :
 - ليرحم الله العذارى البريئات ..
 - ما أحكمك وما أشجعك ! ..
 فقالت هامة :
 - ولكنك تعلم يا أبى انى تعيسة !
 - حذار يا ابنتى فان الخواطر تتجسد فى القصور وتنطق ! ..
 فقالت بأسى :
 - ضحيت بنفسي لأوقف شلال الدم ..
 فتمتم :
 - لله حكمته ..
 فقالت بحنى :
 - وللشيطان أولياؤه ..

الشيخ

يقيم الشيخ عبد الله البلخي في دار بسيطة بالحى القديم ..
تنطبع نظرتة الحاملة في قلوب الكثيرين من تلاميذه القدامى والمحدثين
وتنطبع بعمق أيدي في قلوب المريدين .. العبادة الكاملة عنده مقدمة
ليس الا ، فهو شيخ الطريق ، وقد بلغ منه مقام الحب والرضى ..
عندما غادر خلوته الى حجرة الاستقبال اقبلت عليه زبيدة ابنته
المراهقة والوحيدة وقالت بسرور :

- المدينة فرحانة يا ابي ..

فتساءل دون مبالاة :

- ألم يصل بعد الطبيب عبد القادر المهيني ؟

- لعله في الطريق يا ابي ، لكن المدينة فرحانة لان السلطان

رضى بشهرزاد زوجة له وعدل عن سفك الدماء ..

لا شيء يخرج من هـدوئه .. الرضى في قلبه لا ينقص

ولا يزيد .. وزبيدة ابنة وتلميذة ولكنها ما زالت في اول الطريق ..

وسمعت على الباب طرقا فمضت قائلة :

- جاء صديقك لزيارته المعتادة ..

دخل الطبيب عبد القادر المهيني فتعانقا ثم اقتعدا شلطة الى جانب

صديقه .. ودارت المناجاة كالاعتاد على ضوء مصباح في كوة ..

قال عبد القادر :

- عرفت لا شك الخبر السعيد ..

فقال باسم :

قال يتوسل :

- انه يحبك يا شهرزاد ..

- الكبر والحب لا يجتمعان في قلب ، انه يحب ذاقه اولاً

واخيراً ..

- للحب معجزاته ايضاً ..

- كلما اقترب منى تنشقت رائحة الدم ..

- السلطان ليس كبقية البشر ..

- لكن الجريمة هي الجريمة .. كم من عذراء قتل / كم من تقى

ورع اهلك ، لم يبق في المملكة الا المنافقون ..

فقال بعز :

- ثقنى بالله لم تتزعزع قط ..

- أما انا فاعرف ان مقامى فى الصبر كما علمنى الشيخ الاكبر ..

فقال دندان باسم :

- نعم الاستاذ ونعم التلميذة ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

- عرفت ما يهمنى معرفته ..

فقال الطبيب :

- الحناجر تدعو لشهرزاد بينما أنك أنت صاحب الفضل الاول ..

فقال بعتاب :

- الفضل للمحبوب وحده ..

- انى مؤمن ايضا ولكنى أتابع المقدمات والنتائج ، لولا انها تتلمذ على يديك صبية ما كانت شهرزاد .. لولا كلماتك ما وجدت من الحكايات ما تصرف به السلطان عن سفك الدماء ..

قال الشيخ :

- يا صديقى لا عيب فيك الا انك تغالى فى تسليمك للعقل ..

- انه زينة الانسان ..

- من العقل أن نعرف حدود العقل ..

فقال عبد القادر :

- من المؤمنين من يرون أنه بلا حدود ..

- لقد فشلت فى جذب كثيرين الى الطريق ، أنت على رأسهم ..

- الناس مساكين يا مولاي ، فى حاجة الى من يتعامل معهم

ويبصرهم بحياتهم ..

فقال الشيخ بثقة :

- رب روح طاهرة تنقذ أمة كاملة ..

فتسأل الطبيب بامتعاض :

- على السلولى حاكم حينا ، كيف تنقذ الحى من فسادة ؟!

فقال بأسى :

- لكن المجتهدين مراتب ..

فقال بأصرار :

- انى طبيب ، وما يصلح الدنيا هو ما يهمنى ..

فربت على يده برقة فابتسم الطبيب وقال :

- ولكنك الخير والبركة ..

فقال الشيخ :

- أحمد الله فلا السرور يستخفى ، ولا الحزن يلمسنى ..

- أما انا فحزين يا صديقى العزيز .. كلما تذكرت الاتقياء الذين استشهدوا لقول الحق ، واحتجاجا على سفك الدماء ونهب الأموال ازدادت حزنا !

قال الشيخ :

- شد ما تأسرنا الاشياء ..

فقال عبد القادر فى رثاء :

- استشهد الشرفاء الاتقياء ، أسفى عليك يا مدينتى التى لا يتسلط عليك اليوم الا المنافقون ، لم يا مولاي لا يبقى فى المزاود الا شر البقر ؟!

- ما أكثر عشاق الاشياء الخسيسة ! ..

وترامت اليهما من اطراف الحى أصوات زمر وطبل فأدركا أن الاهالى يحتفلون بالخبر السعيد .. عند ذاك قرر الطبيب أن يذهب الى مقهى الأمراء ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

مقهى الأمراء

يتوسط المقهى الجانب الأيمن من الشارع التجارى الكبير ٠٠ وهو مربع الأركان واسع الساحة ، يفتح مدخله على الطريق العام وتطل نوافذه على حوارى جانبية ٠٠ تقوم فى جوانبه الأرائك للسادة وتستقر فى دائرة من وسطه الشلت للعامة ٠٠ يقدم مشروبات شتى ساخنة وباردة تبعا للفصول ، وبه أيضا أجود صنفوف المنزل والحشيش ٠٠ تشهد ليلائه كثيرين من السادة أمثال صنعان الجمالى وابنه فاضل ، وحمدان طنيشة وكرم الأصيل وسحلول وابراهيم العطار وابنه حسن ، وجيليل البزاز ونور الدين وشملول الأحذب ٠٠ كما تشهد كثيرين من العامة أمثال رجب الحمال وزميله السندباد وعجر الحلاق وابنه علاء الدين وابراهيم السقاء ومعروف الاسكافى ٠٠ غلب المرح على الجميع فى تلك الليلة السعيدة ، وسرعان ما انضم الطبيب عبد القادر المهينى الى مجلس يضم ابراهيم العطار وكرم الأصيل صاحب الملايين وسحلول تاجر المزايدات والتحف ٠٠ أفاقوا ليلتهم من خوف متسلط واطمان كل أب لعذراء جميلة فوعده النوم بأحلام تخلو من الاشباح المخيفة ٠٠ وترددت أصوات .

— الفاتحة على أرواح الضحايا ٠٠

— من العذارى والرجال الاتقياء ٠٠

— وداعا للدموع ٠٠

— الحمد والشكر لله رب العالمين ٠٠

— وطول العمر لدرة النساء شهرزاد ٠٠

— شكرا للحكايات الجميلة ٠٠

— ما هى الارحمة الله حلت ٠٠

تواصل المرح والحديث حتى علا صوت رجب الحمال متسائلا :

— أمجنون أنت يا سندباد ؟

فسال عجر الشغوف بدس أنفه فى كل شيء :

— ماذا جننه فى هذه الليلة السعيدة ؟

— يبدو أنه كره عمله وضاق بالمدينة ، لا يريد أن يكون حمالا

بعد اليوم ٠٠

— أيطمع فى أن يتولى امارة الحى ؟

— ذهب الى ريان سفينة وما زال به حتى قبله خادما بها ! ٠٠

فقال ابراهيم السقاء :

— مجنون حقا من يعرض عن رزق مضمون على البر الهجرى

وراء رزق مجهول فوق الماء ٠٠

فقال معروف الاسكافى :

— الماء الذى يستمد غذاءه من الجثث منذ قديم الزمان ٠٠

فقال السندباد بتحد :

— ضجرت من الأزقة والحوارى ، ضجرت من حمل الاثاث

والنقل ، لا أمل فى مشهد جديد ، هناك حياة أخرى ، يتصل النهر

بالبحر ، يتوغل البحر فى المجهول ، يتمخض المجهول عن جزر

وجبال وأحياء وملائكة وشياطين ، ثمة نداء عجيب لا يقاوم ، قلت

لنفسى جرب حظك يا سندباد والى بذاتك فى أحضان الغيب ٠٠

فقال نور الدين بياع العطور :

— الحركة بركة ٠٠

فقال السندباد :

- تحية جميلة من زميل الصبا ..

فسال عجر الحلاق ساخرا :

- هل تتمسح فى السادة يا حمال ؟

فقال نور الدين :

- جلسنا جنباً لجنب فى الزاوية نتلقى الدرس على يد مولانا

عبد الله البلخى ..

فقال السندباد :

- وقنعت بمبادئ القراءة والدين شأن الكثيرين ..

فقال عجر مواصلاً سخريته :

- لن ينقص بذهابك البر ولن يزيد البحر ..

عند ذلك قال له الطبيب عبد القادر المهيئى :

- اذهب مصحوباً برعاية الله ولكن اشحذ حواسك ، لبيتك تسجل

ما يصادفك من بديع المشاهدات فقد أمرنا الله بذلك . متى تسافر ؟

فقال متمتماً :

- صباح الغد ، استودعكم الله الحى الباقي ..

فقال رجب الحمال زميله :

- ما أحزننى لفراقك يا سندباد ! ..

صنعاء الجمالى

الزمن يدق دقة خاصة فى باطنه فيوقظه .. مد بصره نحو نافذة

قريبة من الفراش فرأى من خلال خصائصها المدينة مسربة فى

الظلام .. النوم سلبها الحركة والصوت فاستكننت فى صمت مفعم

بهدهوء كونه .. انفصل من جسد أم السعد الدفء هابطاً الى الأرض

.. انفرزت قدماء فى زغب سجادة فارسية .. مد نراعه ملتصقاً

موقع الشمعدان فارتطمت بكثافة صلبة فجفل متسائلاً .

- ما هذا ؟

جاء صوت غريب ، لم يطرق أنذنية مثله من قبل .. لا صوت

انسان هو ولا صوت حيوان .. اجتاح حواسه وكأنما انتشر فى

المدينة كلها .. ونطق الصوت فى غضب :

- دست رأسى يا أعمى !

صرعه الخوف .. ما به من الفروسية ذرة .. ما يجيد الا البيع

والشراء والمساومة .. أكد الصوت قائلاً :

- دست رأسى يا جاهل ..

قال بنبرات مرتجفة :

- من أنت ؟

- أنا قمقام ..

— قمقام ؟!

— عفريت من اهل المدينة ..

اوشك أن يتلاشى من الرعب فانعقد لسانه ..

— آلتبني فحق عليك العقاب ..

عجز لسانه عن أى دفاع فواصل قمقام حديثه :

— سمعتك أمس يا منافق وأنت تقول ان الموت علينا حق فما بالك

تبول من الخوف ؟!

نطق اخيرا بضراعة :

— ارحمنى أنا رب عائلة ..

— لن يحيق عقابى الا بك أنت ..

— ما فكرت لحظة واحدة فى التعرض لك ..

— يا لكم من مخلوقات مزعجة ، لاتكفون عن الطمع فى
استعبادنا لتحقيق أغراضكم الدنيئة .. ألم يشبع نهمكم باستعباد

الضعفاء منكم ؟

— أقسم لك ..

فقاطعه :

— لا ثقة لى فى قسم تاجر ..

فقال :

— أسألك الرحمة والعفو ..

— أى سبب يدعونى لذلك ؟

فقال بلهفة :

— قلبك الكبير ..

— لا تحاول خداعى كما تخدع زبائنك ..

— اقلعها لوجه الله ..

— لا رحمة بلا ثمن ، ولا عفو بلا ثمن ..

فشرق بالأمل المياغت فقال بحرارة :

— انى أفعل ما تشاء ..

— حقا ؟

فقال بلهفة :

— بكل ما أملك من قوة ..

فقال بهدوء مخيف :

— اقتل على السلولى ..

غرقت الفرحة فى خيبة غير متوقعة كسلعة وردت بعد أهوال
من وراء البحار ثم تبين عند الفحص فسادها .. تساءل بذهول :

— على السلولى حاكم حيننا ؟

— دون غيره ..

— لكنه حاكم وقيم فى دار السعادة المحروسة وما أنا الا تاجر .
فهتف .

— اذن فلا رحمة ولا عفو ..

— سيدى .. لم لا تقتله بنفسك ؟

قال بحنق :

— استأنسنى بسحر أسود ، وهو يستعين بى فى قضاء مآرب

لا يرضى عنها ضميرى ..

— لكنك قوة تفوق السحر الأسود !

— نحن بعد نخضع لقوانين معينة ، دع المناقشة ، لك أن تقبل

أو أن ترفض ..

قال صناعان بحرارة :

— اليس لك رغبات أخرى ؟ لدى مال موفور و سلع من الهند

والصين ..

— لا تبدد الوقت سدى ايها الأحمق ..

اشتد به الاغراء من جديد فنطق به اليأس قائلاً :

- انى طوع أمرك ..

- حذار ان تحاول خداعى ..

- سلمت الأمر لقدرى ..

- ستكون فى قبضتى ولو أويت الى جبال قاف ..

عند ذاك شعر صنعان بألم حاد فى ساعده فصرخ صرخة جرفت

اعماقه ..

- ٢ -

فتح صنعان عينيه على صوت أم السعد وهى تقول « ماذا أخرك

فى النوم » .. أشعلت الشمعدان فجعل ينظر فيما حوله بذهول ..

ان يكن حلمًا فماله يمتلىء به أكثر من النقطة نفسها ! .. انه حى

لدرجة تجلب الذعر .. رغم ذلك ابتل ريقه برحيق النجاة فهيمن عليه

هدوء وامتنان .. رد العالم الى نظامه بعد خراب شامل ونعم بعذوبة

الحياة بعد عذاب الجحيم .. تنهد قائلاً :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

نظرت أم السعد نحوه وهى تدس خصلات مبعثرة من شعرها

داخل منديل رأسها وقد طمس النوم على رونق وجهها بطبقة زيتية

فقال ثملاً بالنجاة :

- الحمد لله الذى أنقذنى من كرب عظيم ..

- الله يحفظنا يا أبا فاضل ..

- حلم فطيع يا أم السعد ..

- خيرا ان شاء الله ..

وقادته الى الحمام فأشعلت مصباحا فى كوة وتبعها وهو يقول :

- قضيت شطرا من الليل مع عفريت ..

- كيف وأنت الرجل التقى ؟

- سأقصه على الشيخ عبد الله البلخى ، اذهبى الآن بسلام

لاتوضأ ..

راح يتوضأ .. عندما هم بغسل ساعده اليسرى توقف مرتعدا ..

- رياه ! ..

جعل ينظر بذهول الى جرح كالعضة .. ليس وهما ما يرى فمن

مغازز الانياب بيض الدم ..

دار رأسه وغمغم :

- هذا هو المستحيل ..

فزع قائما وهول نحو المطبخ ، تساءلت أم السعد وهى توقد

الكانون :

- توضأت ؟

مد اليها ساعده قائلاً :

- انظرى !

شهقت المرأة متسائلة :

- ماذا عضك ؟

- لا أدرى ..

فاستحوذ عليها القلق وقالت :

- نمت على خير حال ! ..

- لا أدرى ماذا حصل ..

- لو حدثت فى النهار ..

قاطعها :

- لم تحدث فى النهار ..
تبادلا نظرة قلقة مضطربة بالخواطر المكتومة .. قالت بفزع :
- حدثنى عن الحلم ..
فقال بضيق :
- قلت انه عفريت .. ولكنه حلم ..
تبادلا النظرة مرة أخرى .. وتبادلا معاناة القلق .. قالت
أم السعد بحذر :
- ليكن الأمر سرا ..
أدرك سر مخاوفها المتجاوبة مع مخاوفه .. اذا جرى ذكر
العفريت فلا يدري ماذا يحيق بسمعته كتاجر غدا ، ولا ماذا تتعرض
له سمعة كريمته حسنيه وابنه فاضل قد يلد الحلم خرابا شاملا ..
ثم انه ليس على يقين من شيء .. قالت أم السعد :
- الحلم حلم .. وسر الجرح يعلمه الله وحده ..
فقال بياس :
- هذا ما يجب التسليم به ..
- المهم الآن أن تبادر الى العلاج فاذهب الى صديقك ابراهيم
العطار ..
كيف يهتدى الى الحقيقة .. أرهقه القلق حتى أحنقه فجاش
بالغضب .. شعر بأنه يمضى من سييء الى أسوأ .. وجدانه جميعه
يشحن بالغضب والحنق وطبعه يسوء فكأنه يخلق من جديد على
حال تناقض دماثته القديمة الراسخة ، ولم يعد يطبق نظرات المرأة ،
فكره نظراتها ومقت خواطرها ووجد رغبة فى تحطيم كل قائم ..
وفى غفلة من ذاته الضائعة طعنها بنظرة غاضبة حائقة مستفزة
كانما هى المسئولة عن محنته ثم تحول عنها ذاهبا وهى تغمم :
- ليس هذا بصنعان الذى كان ! ..

وجد فى الصالة فاضل وحسنية على ضوء كاب نضحت به
ثقوب المشربية .. ارتسم فى وجهيهما انزعاج دل على ارتفاع صوته
الهائج فازداد غضبا وصاح بهما بلا سبب وعلى غير عادة :
- اغربا عن وجهى ..
رد باب حجرته وراءه وراح يتفحص ساعده .. لنحق به فاضل
بشجاعة .. قال بقلق :
- لعلك بخير يا أبى ..
فقال له بفظاظة :
- دعنى وحدى ..
- كلب عضك ؟
- من قال لك ذلك ؟
- أمى ..
أدرك حكمتها فى اعلان ذلك فرضى ولكن حاله لم تتحسن .. قال :
- أمر تافه ، انى بخير ، ولكن دعنى وحدى ..
- لا بد من الذهاب الى العطار ..
فقال بضيق :
- لا حاجة بى الى من يذكرنى بذلك ..
فى الخارج قال فاضل لحسنية :
- شد ما تغير أبى !

- ٣ -

- غادر صنعان الجمالى داره دون صلاة لأول مرة فى حياته
مذ صار صبيا .. ذهب من توه الى دكان ابراهيم العطار ..
صديق قديم وجار فى الشارع التجارى .. ولما رأى العطار ساعده
قال متعجبا :

وسرعان ما تكشف حاله لرواد مقهى الأمراء .. يقصدهم
متجهما ، يجلس صامتا ، أو يحاور محاورة الشارد .. كف عن
تعليقاته الضاحكة .. يضجر سريعا فيغادر المقهى .. بقول ابراهيم
العطار :

- عضه كلب متوحش ..

فيقول جليل البزاز :

- لقد فقدناه تماما ..

ويقول كرم الاصيل صاحب الملايين وذو وجه القرد :

- حاله التجارية مزدهرة جدا ..

فيقول الطبيب عبد القادر المهيني :

- قيمة المال تتبخر عند المرض ..

فيقول عجر الحلاق ، الوحيد بين الجالسين على الأرض الذي
يدس نفسه أحيانا في أحاديث السادة ، يقول متفلسفا :

- ما الانسان ؟ .. عضه كلب أو قرصة ذبابة ..

ولكن قاضل صنعان صاح به :

- أبى بخير ، ما هى الا عكة تزول قبل شروق الصبح !

* * *

لكنه توغل فى حال يتعذر الهيمنة عليها .. وفى ليلة التهم من
المنزول قدرا مجنونا وغادر المقهى متوثبا لاقتحام المجهول .. كره
الذهاب الى داره فراح يتخبط فى الظلام مشعث العقل والارادة تسوقه
أخيلة معربرة .. تمنى فعلا يمتص توتره إلثائر ويريح من

- أى كلب هذا ! ، ولكن ما اكثر الكلاب الضالة ..
وعكف على انتخاب جملة من الأعشاب وهو يقول :

- عندى وصفة لا تخيب ..

غلى الأعشاب حتى ترسبت مادة لزجة .. غسل الجرح بماء
الورد .. غطاه بالمادة وبسطها عليه بملعقة خشبية ثم عصب الساعد
بشاش دمشقى وهو يتمم :

- بالشفاء ان شاء الله ..

واذا بصنعان يقول رغما عنه :

- أو فليفعل الشيطان ما يريد ..

تفرس ابراهيم العطار فى وجه صاحبه المحتقن فعجب من تغيره

وقال :

- لا تدع جرحا تافها ينال من طبعك الحلو ..

فمضى مكفهر الوجه وهو يقول :

- لا تأمن لهذه الدنيا يا ابراهيم ..

ما أشد جزعه .. كأنما اغتسل بماء شطة حامية .. الشمس
حارة غليظة .. وجوه العباد كثيبة .. وكان فاضل قد سبقه الى
الدكان فاستقبله بابتسامة مشرقة ضاعت من غيظه .. لعن الجو رغم
ارتياحه المعروف لجميع الأجواء .. لا يكاد يرد تحية .. ولا يرحب
بأحد .. لا يستبشر بكلمة أو وجه .. لا يضحك لدعابة .. لا يتعظ
بعبور جنازة .. لا يسره وجه مليح .. ماذا جرى ؟ ضاعف فاضل
من نشاطه ليحول ما أمكن بين أبيه والزبائن .. وأكثر من زبون سأل
فاضل همسا :

- ما بال أبوك اليوم ؟

فيقول الفتى بامتعاض :

- به وعكة ، لا رالك الله من سوء ..

* * *

العذاب .. وتذكر نساء من أهله شعبن موتا فتمثلن له عاريات
فى أنضاع جنسية تطفح بالاغراء فأسف على أنه لم ينل من احداهن
وطرا .. ومربعطفة الشيخ عبد الله البلخى ففكر لحظة فى زيارته
والاعتراف بين يديه بما وقع له ولكنه أسرع مبتعدا .. وعلى ضوء
مصباح مدلى من هامة أحد أبواب الدور رأى بنتا فى العاشرة ماضية
فى طريقها تحمل بين يديها سلطانية .. اندفع نحوها معترضاً
سبيلها متسائلاً :

— أين تذهبين يا عروس ؟

فقالت ببراءة :

— راجعة لأمى ..

فغاص فى الظلام حتى فقد البصر وقال :

— تعالى أريك شيئاً طريفاً ..

حملها بين ذراعيه حتى اندلق ماء المخلل على جبته الحريرية
ومضى بها الى ما تحت سلم الكتاب .. حارت البنت فى أمر حنانه
الغامض ، لم ترتج اليه ، وقالت متشكية :

— أمى تنتظر ..

لكنه أثار حب استطلاعها بقدر ما أثار مخاوفها .. أغراها عمره
— الذى ذكرها بأبيها — بنوع من الاطمئنان .. خالط ذلك قلق
مجهول وتوقع لحلم عجيب .. وندت عنها صرخة باكية تمزق لها
وجدانه وبعثت فى مخيلته المظلمة أطيافاً مرعبة فسرعان ما كتم
فأها برأحه المرتعشة .. لطمته افاقة مباغته فعاد الى سطح الأرض
وهمس متوسلاً .

— لا تبكى .. لا تخافى ..

ورحف اليأس حتى قوض أركان العالم .. ومن الخراب الشامل
تناهى اليه وقع أقدام تقترب .. وبسرعة قبض على عنقها الرقيق

بيدين غريبتين عنه وتردى فى الهاوية كوحش كاسر زلت قدمه ..
أدرك أنه انتهى .. انتبه الى صوت ينادى :

— بسيمة .. بنت يا بسيمه ..

قال لنفسه فى يأس كامل :

— لا مفر ..

وضح الآن أن الأقدام تقترب من مكمنه .. وضوء فانوس
يتخايل .. دفعته رغبة للخروج حاملاً الجثة .. وإذا بوجود ثقيل
يقتحم وجوده المتهاافت فاقتحمته ذكرى اللحم .. وسمع الصوت
الذى سمعه منذ يومين يتساءل :

— أهذا ما تعاهدنا عليه ؟

قال مستسلماً :

— أنت حقيقة اذن ولست حلماً !

— أنت مجنون ولا ريب ..

— أوافق على ذلك ولكنك أنت السبب !

فقال الصوت بغیظ :

— ما طالتك بشر قط ..

فقال بحرارة :

— لا وقت للمناقشة ، أنقذنى لأفى لك بما تعاهدنا عليه ..

— هذا ما جئت من أجله ولكنك لا تفهم ..

شعر بأنه يتحرك فى فراغ فى عالم شديد الصمت حتى سمع
الصوت مرة أخرى :

— لن يعثر لك أحد على أثر ، فتح عينيك ترائك واقف أمام باب

دارك .. ادخل آمناً ، انى منتظر ..

★ ★ ★

خواطر الحى كله هائجة .. الجريمة حديث الحى التجارى كله ..
قال له ابراهيم العطار وهو يجدد له الدواء :

- الجرح لم يندمل ولكن زال خطره ..
ثم وهو يلف ساعده بالشاش :

- سمعت بالجريمة ؟
فقال بامتعاى :
- أعوذ بالله ..

- المجرم ليس آدميا ، أبناؤنا يتزوجون فى حال بلوغهم !
- انه مجنون ولا شك ..

- أو أنه أحد الصعاليك العاجزين عن الزواج ، انهم يزحمون
الطرق كالكلاب الضالة ..
فتساءل العطار متهمكا :
- كثيرون يرددون ذلك ..

- ماذا يفعل على السلولى فى دار الإمارة ؟
ارتجف لدى ذكرى الاسم وتذكر العهد المعلق كالسيف فوق رأسه
ولكنه جاره قائلا :

- مشغول بمصالحه الخاصة واحصاء الهدايا والرشاوى ..
فقال العطار :

- فضله علينا نحن التجار غير منكور ولكن عليه أن يتذكر
واجبه الأصلى لىبقى لنا ..
فذهب وهو يقول :
- لا تأمن لهذه الدنيا يا ابراهيم ..

سيطير صنعان على ذاته بقوة خارقة ، لم تشعر أم السعد بأن
حاله قد ساءت أكثر .. اختفى وراء جفنيه فى الظلام وراح يتذكر
ما فعل .. انه شخص آخر .. القاتل المغتصب شخص آخر .. نفسه
تتمخض عن كائنات وحشية لا عهد له بها .. الآن يتجرد من ماضيه
ويطوى آماله ويقدم نفسه للمجهول .. لم ينم ولم تند عنه حركة تتم
عن أرقه .. فى الصباح الباكر ترمى اليه صوت نعى .. غابت
أم السعد ساعة ثم رجعت وهى تقول :

- لك الله يا أم بسيمة ..
غض بصره متسائلا :

- ماذا جرى ؟
- ماذا حدث للناس يا أبا فاضل ؟ ، البنت اغتصبت وقتلت
تحت سلم الكتاب ، طفلة يا ربى ، ولكن تحت جلد بعض الأدميين
وحوشا مفترسة ..

حنى رأسه حتى تشعثت لحيته فوق صدره وتمتم :
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

- هؤلاء الوحوش لا يعرفون ربا ولا رسولا ..
وأجهشت المرأة بالبكاء ..

جعل يسائل نفسه أهو العفريت ؟ .. أهو المنزل ؟ .. أهو
صنعان الجمالى ؟ !

علم حاكم الحى على السلولى بما يقال عن الامن من كاتم سره بطيشة مرجان ٠٠ خشى ان تتراعى الاقوال الى الوزير دندان فيرفعها الى السلطان فاستدعى كبير الشرطة جمصة البلطى وقال له :

— هل اترك ما يقال على الامن فى عهدى ؟

لم يتغير هدوء كبير الشرطة الباطنى لأطلاعه على اسرار رئيسه وانحرافاتة وقال :

— عفوا يا سيدى الحاكم ، ما أهملت ولا قصرت فى بث العيون ولكن الجانى لم يترك أثرا ، لم نعثر على شاهد واحد ، وقد جققت بنفسي مع عشرات وعشرات من الصعاليك والمتسولين ، ولكنها جريمة غامضة لم أعرف لها مثيلا من قبل ٠٠

فصاح به :

— يا لك من جاهل ، اقبض على جميع الصعاليك والمتسولين ، واثك خبير بوسائل التحقيق الفعالة ٠٠

فقال جمصة بحذر :

— ليس لدينا من السجون ما يتسع لهم ٠٠

فقال الحاكم محنقا :

— أى سجون يا هذا ؟! اتريد ان تلزم بيت المال باطعامهم ؟ ، سقمهم الى الخلاء ، استعن بالجند ، واقتنى بالمجرم قبيل جثلم الليل ٠٠

انقض رجال الشرطة على الخرابات يقبضون على المتسولين والصعاليك ثم يسوقونهم جماعات الى الخلاء ٠٠ لم تجد شكوى ولا قسم ولم يستثن الشيوخ ٠٠ واستعمل معهم العنف حتى جأروا بالاستغاثة بالله ورسوله وآل البيت ٠٠ وراح صنعان الجمالى يتابع الانباء بذهول وقلق ٠٠ انه الجانى ما فى ذلك من شك ولكنه يمضى مطلق السراح مجللا بالوقار ٠٠ مئات من الأبرياء يتعذبون بفعلته النكراء فكيف صار محور هذا الشقاء كله ؟! وثمة مجهول يتربص به يهون بالقياس اليه جميع ما سلف ٠٠ وهو ضائع تماما ومستسلم بلا شروط ٠٠ أما صنعان القديم فقد مات واندثر ٠٠ لم يبق منه الا ذاكرة حائرة تجتر ذكريات كالأوهام ٠٠ وانتبه على ضجة تجتاح الشارع التجارى ٠٠ ها هو على السلولى حاكم الحى يخترق الطريق على رأس كوكبة من الفرسان ٠٠ انه يذكر الناس بقوة الحاكم ويقظته ويقتدى البلبله ٠٠ مضى يرد تحيات التجار عن يمين وشمال ٠٠ هذا هو الرجل الذى تعهد بقتله ٠٠ فاض قلبه بالخوف والمقت ٠٠ انه سر عذابه ٠٠ ووقع الاختيار عليه هو ليحضر العفريت من سحره الأسود ! ٠٠ هو العفريت دون سواء ٠٠ نجاته رهن بالقضاء عليه ٠٠ تسمرت عيناه فى وجهه الغامق الريان ولحيته المدببة وجسمه المائل الى القصر ٠٠ وعندما مر أمام دكان ابراهيم العطار هرع اليه المعلم ابراهيم فتصافحا بحرارة ٠٠ وعندما مر أمام دكانه حانت منه التفاتة نحوه فابتسم فلم يجد صنعان بدا من العبور اليه والمصافحة ! وإذا بالسلولى يقول له :

فقال بوضوح :

- لا تكذب ، أنت وحدك مسئول عن جريمتك !

- الحق أنى لا أفهمك ..

- الحق أنى أحسنت بك الظن أكثر مما ينبغى ..

- لبيتك تركتني وشأني !

- انى عفریت مؤمن ، قلت هذا الرجل خيرہ أكثر من شره ، أجل له علاقات مريبة مع كبير الشرطة ولم يتورع عن الاستغلال أيام الغلاء ، ولكنه أشرف التجار ، وذو صدقات وعبادة وذو رحمة بالفقراء ؛ لذلك آثرتك بالخلاص ، خلاص الحى من رأس الفساد وخلاص نفسك الآثمة ، وبدلا من أن تدرك الهدف الواضح أنهار بنيانك واركتبت جريمتك البشعة ..

- تأوه صنعان واقعا فى الصمت فواصل الصوت :

- الفرصة متاحة ما زالت ..

- فتساءل فى حيرة :

- والجريمة ؟

- الحياة تتسع للتكفير والتوبة ..

- فتساءل بنبرة فيها ماء الأمل :

- ولكن الرجل فى حصن منيع :

- سوف يستدعيك الى مقابلته ..

- انى أعجب لذلك !

- سوف يستدعيك ، اطمئن واستعد ..

- فتفكر صنعان مليا ثم تساءل :

- هل تعدنى بالنجاة ؟

- ما اخترتك الا من أجل النجاة ..

- ومن شدة الارهاق استغرق صنعان فى نوم عميق ..

- سنراك قريبا بمشيئة الله !

رجع صنعان الجمالى الى دكانه وهو يتساءل عما يعنيه .. هل يدعوه الى مقابلة ..؟ لماذا ..؟ هل يجد السبيل ميسرا من حيث لم ينتظر ..؟ ربطت قشعريرة بين أعلاه وأسفله .. ردد قوله بذهول :

- سنراك قريبا بمشيئة الله !

- ٩ -

ولما أخذ الى النوم ليلا هيمن عليه الوجود الآخر وسمع الصوت

يقول متهمكا :

- تأكل وتشرب وتنام وعلى أنا الصبر !

- فقال بتعاسه :

- انها مهمة شاقة لا يدرك مشقتها من له مثل قوتك ..

- ولكنها أسهل من قتل البنت الصغيرة !

- فتأوه قائلا :

- يا للخسارة ! طالما عددت من الصفواة الطيبة ..

- لا تخدعنى المظاهر ..

- لم تكن مجرد مظاهر ..

- نسيت أشياء يندى لها الجبين ..

- فقال بارتباك :

- الكمال لله وحده !

- لا أنكر أيضا مزاياك ولذلك رشحتك للخلاص !

- فقال بجزع :

- لولا اقتحامك حياتى ما تورطت فى الجريمة ..

كان يتأهب للذهاب الى المقهى عندما قالت أم السعد :
- رسول من قبل الحاكم ينتظرك فى المنطرة ..

وجد كاتم السر بطيشة مرجان فى الانتظار بعينيه البراقتين
ولحيته القصيرة .. قال له :

- الحاكم يرغب فى لقاءك ..

خفق قلبه .. أدرك أنه ذاهب لارتكاب أخطر جريمة فى تاريخ
الحى .. لعله ضايقه أن يكون بطيشة مرجان مطلعاً على ملاعبات
الزيارة ولكنه اطمأن الى وعد مقام .. قال للرجل :

- انتظرنى حتى أرتدى ملابسى ..

فقام الرجل قائلاً :

- بل أسبقك تلافياً من لفت الأنظار ..

اذن فالرجل يحرص على سرية المقابلة ميسراً بذلك مهمته ..
وراح يتدهن بالمسك وأم السعد تراقبه ، منطوية على قلق لم يفارقها
منذ ليلة الحلم .. هيمن عليها شغور بأنها تعاشر رجلاً آخر وأن
صنعان القديم تلاشى فى الظلام .. وفى غفلة منها دس فى جيبيه
خنجرًا ذا مقبض من الفضة الخالصة تلقاه هدية من الهند ..

★ ★ ★

استقبله على السلولى فى جوسقه الصيفى بحديقة الامارة ..
طالعه فى جلباب فضفاض أبيض ورأس عار فخفف عنه رهبة
السلطة .. وقامت بين يديه مائدة حقلت بالقوارير والكؤوس والنقل
فبسط له الموائسة والقرب .. أجلسه على وسادة الى جانبه مستبقياً
مرجان بطيشة ، وقال :

- أهلاً بك يا معلم صنعان ، تاجر أصيل وإنسان كريم ..

فتمتم صنعان مدارياً ارتبأكه بإتسامة :

- الشكر لك يا نائب السلطان ..

ملاً مرجان ثلاث كؤوس ، سأل صنعان نفسه هل يبقى مرجان
الى آخر الجلسة ؟ .. لعلها فرصة لا تتكرر فما العمل ؟ وقال
السلولى :

- ليلة صيف لطيفة ، أتحب الصيف ؟

- أحب الفصول جميعاً ..

- انك ممن رضى الله عنهم ، ومن تمام رضاه أن نبداً حياة جديدة

مثمرة ..

فقال صنعان مدفوعاً بحب الاستطلاع :

- أسأل الله أن يتم نعمته علينا ..

شربوا فتلقوا من الراح نشوة وانتعاشاً .. وجعل السلولى

يقول :

طهرنا لكم الحى من الأوباش ..

فقال بحزن دفين :

- نعم الحزم والعزم ..

فقال بطيشة مرجان :

— لا تكاد نسمع الآن عن سرقة أو جريمة ..

فسأل صنعان بحذر :

— هل اهتديتم الى الجانى ؟

فضحك السلولى قائلاً :

— المعترفون بالجريمة فاقوا الخمسين عدا !

ضحك مرجان أيضاً ولكنه قال :

— الجانى الحقيقى ضمنهم ولا شك ..

فقال السلولى :

— انها مشكلة جمصة البلطى !

فقال بطيشة :

— علينا أيضاً أن نضاعف المواعظ فى المساجد والموائد ..

أوشك صنعان أن ييأس ولكن السلولى أشار الى مرجان

اشارة خاصة فغادر المكان .. ومع ذلك كان الحرس منتشراً فى

الحديقة ، ولا يوجد مهرب ، ولكنه لم يغفل لحظة عن وعد قمام ..

قال السلولى مغيراً لهجته :

— فلنطو حديث الجريمة والمجرمين ..

فقال صنعان باسم :

— طابت ليلتك يا مولاي ..

— الحق انى دعوتك لأكثر من داع ..

— انى رهن الاشارة ..

فقال بثقة :

— انى أرغب فى الزواج من كريمتك ..

دهش صنعان .. أسف لفرصة قدر لها الاحباط قبل أن تولد ،

ولكنه قال :

— هذا شرف كبير وسعادة عظمى ..

— وعندى أيضاً بنت هدية لابنك فاضل !

فقال صنعان طارداً ذهوله :

— انه شاب سعيد الحظ ..

وصمت قليلاً ثم واصل :

— أما المطلوب الأخير فهو يتعلق بالمصلحة العامة !

فتجلت فى عيني صنعان نظرة مستطلعة فقال الحاكم :

— المقاول حمدان طنيشة قريبك .. ليس كذلك ؟

— أجل يا مولاي ..

— المسألة اننى اعتزمت شق طريق بحذاء الصحراء بطول الحى

كله ..

— مشروع رائع حقاً ..

فسأله بنبرة ذات مغزى :

— متى تجيئنى به الى هذا المكان ؟

اجتاحته موجة من السخرية وهو يقول :

— موعداً مساء الغد يا مولاي !

فحدقه بنظرة ثاقبة وتساءل باسم :

— ترى على أى حال سيجيئنى ؟

فقال صنعان بلباقة ودهاء :

— على الحال التى تتوقعها تماماً ..

فضحك السلولى وقال بمرح :

— أنت لبيب يا صنعان ، ولا تنس اننا اهل !

خاف صنعان أن يياغته باستدعاء بطيشة مرجان .. قال لنفسه

« الآن .. أو تلاشت الفرصة الى الأبد » .. ويسر الرجل له الأمر

وهو لا يدري قمد ساقيه وانطوى على ظهره طليلاً للراحة ثم أغمض

عينيه .. كان صنعان يغوص فى خيال الجريمة ويقذف بنفسه فيما

تبقى له من مصير .. استل خنجره .. سدده نحو القلب .. ملعن
 بقوة مستمدة من التصميم واليأس والرغبة الأخيرة فى النجاة ..
 انتفض الحاكم انتفاضة عنيفة كأنما يصارع قوة مجهولة .. تقلص
 وجهه وحملق بجنون .. هم بضم ساعديه كأنما ليقبض على
 الخنجر ولكنه لم يستطع .. نطقت عيناه المذعورتين بكلام ألم
 يسمع ، ثم همد الى الأبد ..

- ١٢ -

حملق فى الخنجر غائب النصل والدم المتدفق وهو يرتجف ..
 انتزع عينيه بمشقة ونظر نحو الباب المغلق بخوف شديد .. تمزق
 الصمت بنبض صدغيه .. ولأول مرة يلمح القناديل المعلقة فى
 الأركان .. ولح أيضا قائما خشيا مزخرفا بالأصداف عليه مصحف
 كبير .. توسل بكل عذاباته الى مقام عفريته وقدره .. وغشيه
 الوجود الخفى وسمع الصوت يقول بارتياح :
 - أحسنت ..

ثم بمرح :
 - الآن تحرر قمقام من السحر الأسود ..
 قال صنعان :
 - أنقذنى فقد كرهت المكان والمنظر ..
 فقال بهدوء وعطف :

- ايمانى يمنعنى من التدخل بعد أن ملكت حرية ارادتى ..
 فقال بجزع :
 - لا أفقه معنى لما تقول !

- عيبك يا صنعان أنك لا تفكر كأنسان ..
 - رباه ، لا وقت للجدل ، أتزمع تركى لشأنى ؟
 - هذا تماما ما يقتضيه وأجبنى ..
 فصاح :
 - يا للفظاعة ، لقد خدعتنى ..
 - بل منحتك فرصة للخلاص قلما تتاح لحي ..
 - ألم تتدخل فى حياتى وتحملنى على قتل هذا الرجل ؟
 - كنت راغبا بحرارة فى التحرر من شر السحر الأسود
 فاخترتك لايمانك رغم تأرجحك بين الخير والشر ، قدرت أنك أولى
 من غيرك بانقاذ حيك ونفسك ..
 فقال بيأس :
 - لكنك لم توضح لى أفكارك ..
 - وضحتها بالقدر الكافى لمن يفكر ..
 - مكر غير محمود .. من قال انى مسئول عن الحى ؟!
 - انها امانة عامة لا يجوز أن يتبرأ منها انسان أمين ولكنها
 منوطة أولا بأمثالك ممن لا يخلون من نوايا طيبة !
 - ألم تنقذنى من ورطتى تحت سلم الكتاب ؟ ..
 - بلى ، عز على أن تنتهى بسبب من تدخلى أسوأ نهاية لا أمل
 فيها لتكفير أو توبة فارتأيت أن أمنحك فرصة جديدة ..
 - وما قد قمت بما عاهدتك عليه فوجب عليك انقاذى ..
 - اذن تكون مؤامرة ، دورك فيها دور الآلة ، وتقف الجدران
 والتكفير والتوبة والخلاص ..
 - فركع على ركبتيه قائلا بتوسل :
 - ارحمنى ، وأنقذنى ..
 - لا تبدد تضحيتك فى الهواء ..

جمصة البلطى

— ١ —

سبجت روح صنعان الجمالى فى سماء مقهى الأمراء فغشى
روادها الكدر ، شهدوا محاكمته ، سمعوا اعترافه الكامل ، رأوا
سيف شبيب رامة السياف وهو يطيح برأسه ٠٠ كانت له منزلة
طبية بين التجار والأعيان ، وكان من القلة النادرة التى يحبها
الفقراء ، وأمام أولئك وهؤلاء ضربت عنقه وشردت أسرته ٠٠ ذاعت
قصته على كل لسان ، هزت أفئدة الحى والمدينة ، استعابها السلطان
شهريار مرات ومرات ٠٠ رفى جو المقهى اللطف بطلائع الخريف
قال حمدان طنيشة المكاول :

— الله خالق الملك وصاحبه ، المتصرف فى شئونه بما يشاء ،
يقول للشيء كن فيكون ، من منكم كان يتصور هذا المصير لصنعان
الجمالى ؟ ، صنعان يفتصب بنتا فى العاشرة ويختقها ؟ ، صنعان
يقتل حاكم الحى فى أول لقاء معه ؟ !

فقال ابراهيم العطار :

— باستبعاد العفريت تصبج الحكاية لغزا من الألغاز !

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

— لعلها عضه الكلب ، هى الأصل ثم تفرع عنها خيالات مرض

خبيث لم يعالج كما يجب ٠٠ !

فقال ابراهيم العطار محتدا :

— لا يوجد من هو أخبر منى بمداواة عضه الكلب ، آخرهم كان

معروف الاسكافى ٠٠ أليس كذلك يا معروف ؟

— انه مصير اسود !

— فاعل الخير لا تكربه العواقب ٠٠

هتف بذعر :

— لا أريد أن اكون بطلا !

فقال قمقام بأسى :

— كن بطلا يا صنعان ، هذا قدرك !

ومضى الصوت يتلاشى وهو يقول :

— استودعك الله وأستغفره لى ولك ٠٠

ندت عن صنعان صرخة ترامت الى بطيشة مرجان ورجال

الحرس فى الخارج ٠٠

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

فأجاب معروف من مجلسه فى الوسط بين العامة :

- الحمد لله الذى أتم على نعمة الشفاء ..

فتساءل عجر الحلاق :

- ولم لا نصدق حكاية العفريت ؟

فقال ابراهيم السقاء :

- انهم يفوقون الآدميين عدا ..

فقال سحلول تاجر المزايدات والتحف :

- الموت فى غنى عن الاسباب ..

فقال معروف الاسكافى :

- لى مع العفاريث حكايات وحكايات ..

عند ذلك قال شملول الأحذب ، مهرج السلطان :

- علمنا أن العفاريث تتجنب دارك خوفا من زوجتك ..

فابتسم معروف مسلما بقضائه .. ولم تلق الدعابة نجاحا فى

الجو الكثيب .. وقل جليل اليزاز :

- ضاع صنعان وضاعت أسرته ..

فقال كرم الأصيل صاحب الملايين والوجه الشبيه بالقرد :

- ومد يد المعونة لأسرته يعتبر تحديا للامارة ، فلا حول ولا قوة

الا بالله ..

فقال ابراهيم العطار :

- أخوف ما أخاف أن ينفر الناس من أسرته اتقاء لشر العفاريث ..

فقال حسن العطار الابن :

- هيهات أن يغير شيء ما بينى وبين فاضل صنعان ..

وعاد حمدان طنيشة المقاول يقول :

- يقول للشئ كن فيكون ..

- ٢ -

الى

عبد

انطلق جملعة البلبل كبير الشرطة نحو النهر ليمارس هوايته
المفضلة فى الصيد - كف نفسه أربعين يوما عن هوايته حدادا على
رئيسه على السلولى .. وقد حزن على القاتل أيضا فى باطنه بحكم
الجيرة والصداقة القديمة التى جعلت من الأسرتين أسرة واحدة ..
رباه ، هو الذى قبض عليه ، هو الذى رماه فى السجن ، هو الذى
قدمه للمحاكمة ، ثم ساقه أخيرا للسياف شبيب رامة .. هو أيضا
من علق رأسه بأعلى داره وصادر أمواله وطرد أسرته من الدار الى
النار .. وعلى ما عرف به من شدة وصلابة فقد تكدر صفوه وحزن
قلبه - له قلب رغم أن كثيرين لا يتصورون ذلك .. بل أحب هذا
القلب حسنية كريمة صنعان وأوشك أن يطلب يدها لولا أن دهمته
الحوادث .. اليوم طاب الجو وهامت فى السماء سحائب خريف
سافية ولكن حبه دهمس تحت عجلة الأحداث .. ترك بغلته مع عبد ثم
دفع القارب الى وسط النهر ورمى بالشبكة .. قطرات من الراحة
فى خضم العمل الشاق الوحشى .. ابتسم .. سرعان ما تم التفاهم
بينه وبين الحاكم الجديد خليل الهمداني .. من أين يجيء شهريار
بهؤلاء الحكام ؟ أسفر الرجل عن وجهه عند أول تجربة .. التجربة
كانت أموال صنعان المصادرة .. استولى على نصيب منها
لا يستهان به ، والقلم بطيشة مرجان كما القمه نصيبة .. وأضاف
القيقى الى بيت المال .. استولى على نصيبه بالرغم من حزنه لمصير
صديقه معتذرا أمام نفسه بأن الرفض يعنى تحديا للحاكم الجديد ..
فى قلبه موضع للعواطف وموضع للقسوة والجشع .. قال لنفسه
« من تعفف جاع فى هذه المدينة » .. وتساءل ساخرا « ماذا يجرى

علينا لو تولى أمورنا حاكم عادل ؟! » ليس السلطان نفسه هو من قتل المئات من العذارى والعشرات من أهل الورع والتقوى ؟! ما أخف موازينه اذا قيس بغيره من أكابر السلطنة .. تنفس بعمق .. حقا انه يوم جميل .. السيماء منقوشة بالسحب .. الهواء معتدل مضمخ برائحة العشب والماء ، الشبكة تمتلئ بالسماك ، ولكن أين حسنية ؟ ، أسيرة صنعان تقيم اليوم بحجرة برقع .. بعد الجاه والجواهر والاصطبل .. أم السعد تصنع الحلوى ، التي كانت تسحر بها الباب الضيوف - وفاضل يسرح بها كبائع جوال ، أما حسنية فتنتظر عريسا لن يأتى .. هل حقا سخرت عفريت يا صنعان أو اتلفتك عضه كلب ؟! لن أنسى نظرتك الزائغة واستغاثتك بى « أسرتهى يا جمصة » .. هيهات أن يجرؤ انسان على مديده الى أسرتهى .. ابنك فاضل أيضا ولد ذو كبرياء .. ضعت يا صنعان وما كان كان .. ان يكن عفريتك مؤمنا حقا فليفعل شيئا .. عجيبه هذه السلطنة بناسها وعفاريته .. ترفع شعار الله وتغوص فى الدنس .. وبغته تحول وعيه الى يده .. ثقلت الشبكة مبشرة بالخير .. جذبها بسرور حتى استوت فوق سطح القارب .. لم يربها سمكة واحدة ! ..

- ٣ -

ذهل جمصة البلطى .. ثمة كرة معدنية ولا شيء سواها .. تناولها حانقا ، قلبها بين يديه ، ثم رمى بها فى باطن القارب .. أحدثت صوتا عميقا مؤثرا .. حدث بها شيء غير ملحوظ فتمخض عن انفجار .. انطلق منها ما يشبه الغبار مدوما فى الجو حتى عانق سحب الخريف .. وتلاشى الغبار تاركا وجودا خفيفا جثم عليه فملأ شعوره بحضوره الطاغى .. ارتعب جمصة على ايلافه مواقف

فقال الرجل ورأسه يتمايل من النشوة :
الخطر .. أدرك بسابق علمه أنه حيال عفريت منطلق من قمقم ..
ما ملك أن هتف :

- الأمان بحق مولانا سليمان !
فقال صوت لم يسمع له مثيلا من قبل :
- ما أعذب الحرية بعد جحيم السجن !
فقال البلطى متودداً يخلق جاف :
- خلاصك تم على يدي ..
- أخبرنى أولا عما فعل الله بسليمان ؟
- مات سيدنا سليمان منذ أكثر من ألف عام ..
- مباركة مشيئة الله ، هى التى سلطت علينا ارادة آدمى لا يرقى قرابه الى نارنا ، وذلك الآدمى هو الذى عاقبنى على هفوة من هفوات القلب يغفر الله أكبر منها برحمته ..
فقال جمصة بأمل متصاعد :
- هنيئاً لك الحرية فانطلق واستمتع بها ..
قال بسخرية :
- أراك تطمع فى النجاة !
- بما كنت الوسيلة الى خلاصك !
- ما حررتنى الا القدر ..
فقال جمصة بلهفة :
- وكنت أداة القدر ..
فقال بحق :
- فى سجنى الطويل امتلأت بالحنق والرغبة فى الانتقام ..
فقال بضراعة :
- العفو عند المقدرة من شيم للكرام ..

- بارعون أنتم فى الحفظ والاستشهاد والنفاق ، وعلى قلوبكم علمكم يجب أن يكون حسابكم ، فالويل لكم ..

فقال جمصة البلطى باستعطاف :

- نحن نخوض صراعا متواصلا مع أنفسنا والناس والحياة ، وللصراع ضحايا لا يحيط بهم حصر ، والأمل لا ينعدم أبدا فى رحمة الرحمن ..

فقال العفريت فى صرامة :

- الرحمة لمن يستحق الرحمة ، ورحاب الله مفروشة بأزهار الفرج المتاح لمن استمسك بالحكمة ، لذلك لا تحق الرحمة الا للمجتهدين والا افسدت الروائح الكريهة نقاء الجو المضى بالنور الالهى ، فلا تعتذر عن الفساد بالفساد ..

- نحن نؤمن بالرحمة حتى ونحن نضرب الاعناق ونجتز

الرءوس ..

- يا لك من منافق .. ما عمالك ؟

- كبير الشرطة ..

- يا لها من القاب ، هل تؤدى واجبك بما يرضى الله ؟

فقال جمصة بقلق :

- واجبى أن أنفذ الأوامر ..

- شعار يصلح لتغطية الخبايا ..

- لا حيلة لى فى ذلك ..

- اذا دعيتم لخير ادعيتم العجز ، واذا دعيتم لشر بادرتم اليه

باسم الواجب !

وقع جمصة فى حصار محكم وهفت عليه نذر الوعيد فتراجع الى حافة القارب وهو يرتعد .. فى ذات الوقت شعر بنفاذ وجود

جديد هيمن على المكان فأمن بمقدم عفريت آخر وأيقن بالضيق ..

قال القادم الجديد مخاطبا الأول :

- هنيئا لك الحرية يا سنجام ..

- الشكر لله يا قمقام ..

- لم أرك منذ أكثر من ألف عام ..

- ما أقصرها بالقياس الى العمر وما أطولها اذا انقضت فى

قمقم !

- وقعت أنا أيضا فى شباك السحر وهو يضاهى السجن فى

عذابه ..

- ما تصيبنا آفة الا من بنى آدم ..

- فى فترة غيابك وقعت أحداث واحداث فلعلك يهمك أن تلم

بما فاتك ..

- بلى ، ولكنى أريد أن اتخذ قرارا نحو هذا الأذى ..

- دعنا منه الآن ، هيهات أن يفلت من يديك اذا أردته ، ولكن

لا تتخذ قرارا وانت حائق ، فما هلك منا عفريت الا فريسة لفضبه ،

هلم بنا الى جبل قاف نحتفل بتحريرك ..

قال سنجام مخاطبا البلطى :

- الى اللقاء يا كبير الشرطة ..

مضى الوجود المهيمن يخف حتى تلاشى تماما .. استرد جمصة

حرية أعضائه ولكنه تهاوى فوق سطح القارب خائر القوى وثملا

بالأمان فى آن ..

وثب جمصة البلطى الى الشاطئ فاستقبله العبد منحنيا ثم مضى يطوى الشبكة وهو يقول :
 - ما فى الشبكة سمكة واحدة ..
 فقال جمصة بريق جاف :
 - اكننت تنظر نحوى وأنا فى القارب ؟
 - طيلة الوقت يا مولاي ..
 - ماذا رايت ؟
 - رأيتك وانت ترمى الشبكة ، وانت تنتظر ، ثم وانت تجذبها ،
 لذلك أدهشنى أن أجدها فارغة ..
 - ألم تردخانا ينتشر ؟
 - كلا يا مولاي ..
 - ألم تسمع صوتا غريبا ؟
 - كلا ..
 - لعلك غفوت !
 - أبدا يا مولاي ..
 - ما كان بوسعك أن يشك فيما وقع له .. انه حقيقى أكثر من الحقيقة نفسها .. وقد حفر فى ذاكرته اسم قمقام يمثل القوة التى حفر بها اسم سنجام .. فذكر اعترافات صنعان فى صورة جديدة فخليل اليه أن صديقه القديم راح ضحية تعيسة .. وتساءل بقلق عما يخبئه له الغيب !



طوى سره فى صدره .. حتى رسمية زوجته لم تعلم به .. وهو سر يثقل على الصدر والقلب ولكن ما الحيلة ؟ .. اذا فشأ يوما أضر بمركزه وأفقده وظيفته .. وأرق الليل متفكرا فى العواقب مصمما على الحذر .. سنجام مؤمن فيما بدا وسيحفظ له جميل تحريره ولو صدفة .. نام عقب صلاة الفجر ساعة ثم استيقظ على حال أفضل .. كان بطبيعته قويا يتحدى الصعاب والوساوس .. لقد استأنس السلولى والهمدانى وليس سنجام بأشد مراسا منهما .. وقالت له رسمية وهما يشربان لبن الصباح :
 - أمس زارتنى جارتنا القديمة أم السعد ..
 ثورت أعصابه فجأة .. قدر خطورة الزيارة تقدير شرطى عالم ببواطن الأمور وقال بجفاء :
 - أرملة مسكينة ولكن ..
 وتردد لحظة ثم واصل حديثه :
 - ولكن زيارتها لنا تضر بمركزى ..
 - حالها تقطع القلب ..
 - هكذا حال الدنيا يا رسمية ولكن لندع ما لله !
 - جاءت بأمل أن تعينها على تقديم التماس للحاكم برد أملاك الأسرة ..
 فهتف :
 - يا لها من جاهلة !
 - قالت ان الله لا يأخذ الأبناء بذنوب الآباء ..

- شهر يار نفسه هو الذى أصدر الحكم !

ثم قال بوضوح :

- صنعان كان صديقى ولكن ما قدر كان ، ولعل قتل البنث بعد اغتصابها لا يعد شيئا بالقياس الى قتل حاكم الحى ، فالسلطان يعتبر الضربة الموجهة الى نائبه موجهة الى شخصه ، وما زال السلطان سفاكا رغم تغييره الطارئ ، فلا تشجيعها على التردد عليك والا حلت بنا لعنة لا قبل لنا بها ..

فوجمت المرأة منكسرة الفؤاد فقال :

- انى فى الحزن مثلك ولكن لا حيلة لنا ..

- ٦ -

انه صادق فيما قال .. حزنه على آل صنعان لم ينقشع ، ومرجع ذلك ليس العشق وحده .. أحب الرجل من قبل أن يحب كريمة .. وهو لا يخلو دائما من عواطف طيبة ، ومن ذكريات دينية ، ولكنه لا يجد بأسا من ممارسة الانحراف فى عالم منحرف .. الحق انه لا يوجد قلب فى الحى كقلبه فى جمعه بين الأسود والابيض .. لذلك دعا فاضل صنعان الى داره فى زيارة أحاطها بالكتمان .. جاء الفتى فى زيه الجديد المكون من الجلباب والصندل ، زى البياع الجوال .. أجلسه الى جانبه فى المنظرة وقال :

- يسرنى يا فاضل أنك تواجه مصيرك بشجاعة فائقة ..

فقال فاضل :

- أحمد الله الذى أبقى على دينى بعد ضياع الجاه والمال ..

أعجب به حقا وقال :

- استدعيتك احتراما لعهدنا القديم ..

- بارك الله فيك يا سيدى ..

فنظر اليه مليا ثم قال :

- لولا ذلك لأبحث لنفسى القبض عليك ..

فدهش فاضل متسائلا :

- تقبض على ..؟ لماذا يا سيدى ؟

- لا تتظاهر بالجهل .. ألم يكفكم ما حاق بكم من شر ؟! ، اسبع

لرزقك بعيدا عن مصاحبة المخربين من أعداء السلطان !

فقال فاضل بوجه شاحب :

- ما أنا الا بائع جوال ..

- دع المناورة يا فاضل ، لا شيء يغيب عن جمصة البلطى ،

ومهمتى الاولى كما تعلم هى مطاردة الشيعة والخوارج ..

فقال فاضل بصوت منخفض :

- لست منهم ، وقد كنت تلميذا فى مطلع حياتى للشيخ عبد الله

البلخى ..

- وكنت أنا أيضا تلميذه ، من مدرسة البلخى يخرج كثيرون ،

أهل الطريق ، أهل السنة ، كما يخرج شياطين منحرفون عن الخط

الأول ..

- ثق يا سيدى من أننى أبعد ما يكون عن الشياطين ..

- لك رفقاء ورفقاء منهم !

- لا شأن لى بعقائدهم ! ..

فقال محذرا :

- فى البداية رفقة بريئة ثم تجيء النكسة ، وهم مجانين ،

يكفرون الحكام ، ويفررون بالفقراء والعبيد ، لا يعجبهم العجب

ولا الصيام في رجب ، كأن الله اصطفاهم دون عباده ، احذر مصير
أبيك فللشيطان طرق شتى ، أما أنا فلا أعرف الا واجبي ، وقد بايعت
السلطان كما بايعت حاكم الحى ، على ابادة المارقين ..

فقال فاضل بنبرة فاترة :

— توكد يا سيدى من أننى أبعد ما يكون عن المارقين ..

فقال جمصة :

— منحكتك نصيحة أبوية فقدرها ..

— شكرا لمروءتك يا سيدى ..

وجعل يتفرس في وجهه بحثا عن مواقع الشبه بينه وبين حسنية
أخته ، انتشى لحظات بالوجد ، ثم قال :

— وثمة مسألة أخرى ، أرجو أن تبلغ والدتك أن تقديم التماس
برد أملاك الأسرة يعتبر تحديا للسلطان ، فلا حول ولا قوة الا بالله !

فقال فاضل بتسليم :

— هذا هو رأى أيضا يا سيدى ..

وانتهت المقابلة في سرية كما بدأت ، وتساءل جمصة ترى هل
يتاح له يوما أن يستدعيه ليطلب منه يد حسنية ؟!

— V —

لعل جريمة صنعان الجمالى هي الحدث الخطير الوحيد الذى
وقع في خدمة جمصة البلطى .. ولم يحمله أحد مسئوليته خاصة
بعد ما عرف من تدخل العفريت فيه .. وليس كذلك ما يقع اليوم في
الحى .. فقد تتابعت حوادث قطع طريق داخل سور الحى وخارجه
بكثرة مزعجة ، فنهبت أموال وسلع واعتدى على رجال .. وغضب
جمصة البلطى غضب شرى قدير حائز للثقة .. بث المخبيرين في
الاماكن النائية ، ونشر الدوريات نهارا وليلًا ، وتفقد الاماكن المشبوهة

بنفسه ولكن الحوادث مضت في جريانها هازئة بنشاطه ولم يقبض
على مجرم واحد ..

وقال كرم الأصيل صاحب الملايين في مقهى الأمراء :

— كان حال الأمن أفضل على عهد المرحوم السلولى ..

فقال الطبيب عبد القادر المهينى ضاحكا :

— لم يوجد قاطع طريق - عهده سواه !

فقال عجر الحلاق :

— جمصة البلطى في أسوأ أحواله ..

وهو يطلع على أحوال السادة وهو يقدم لهم خدماته - كحلاق -

في دورهم ، فقال ابراهيم العطار :

— الأمن حياة التجارة ، والتجارة حياة الأمة ، اقترح أن يذهب

منا وفد الى حاكم حينا الهمداني ..

— A —

ودعا خليل الهمداني جمصة البلطى الى دار الامارة وقال له

يعنف :

— المدينة تخرب وأنت تغط في النوم ..

فقال كبير الشرطة بصوت منهزم :

— ما نمت وما قصرت ..

— العبرة بالخواتيم ..

— ان يدى مغلولتان ..

— ماذا تريد ؟

— الصعاليك الذين سبق القبض عليهم ينطلقون الآن للانتقام ..

الصحائف السرية تطفح بتجريم السلطان والولاة وتطالب بالاحتكام
الى القرآن والسنة .. وجن جنونه فاعتقل الكثيرين حتى خيم الخوف
على الحى جميعا ومادت به الأرض .. واستتفزع الهمدانى عنف
الاجراءات ولكنه أغمض عينيه طمعا فى الفرج .. على ذاك كله
ازدادت الحوادث عدا وعنفا .

- ١٠ -

انهزم جمصة البلطى ولكنه أبى الاعتراف بالهزيمة .. وجعل
يبيت ليالى عديدة فى دار الشرطة حتى تسلط الارهاق على قوته
الخارقة .. وغلبه النوم مرة فى حجرة عمله فاستسلم له كأسد
جريح .. لم يفز بالراحة المنشودة ولكنه طرح تحت ثقل وجود غليظ
احتل جوارحه .. همس فى حيرة :

- سنجام !

فجاء الصوت مقتحما وجدانه :

- أجل يا كبير الشرطة !

فسأله مستنكرا :

- ماذا دعاك الى الحضور ؟

- غباء من يدعون الذكاء !

تنور عقله فجأة لم تجرله فى خاطر فقال :

- الآن عرفنا سر قطاع الطريق الذين لا يعشرون لهم على أثر !

- الآن فقط ؟

- من أين لى أن أضمن أنك صاحبهم !

- اعترف رغم غرورك بأنك غبى ..

- ثبت من اعتراف صنعان أنهم كانوا أبرياء ..
- لذلك فهم ينتقمون ولا مفر من اعتقالهم مرة أخرى ..
فقال الحاكم بحدة :

- لقد سخط الوزير دسدان على اعتقالهم فى المرة الاولى فلن
أسمح به مرة أخرى ..

فقال جمصة البلطى بأسى :

- على أى حال انى أخوض معركة بقوة لا تعرف الهوادة ..
فقال الحاكم :

- لا بد من ضبط الامن والا عزلتك ! ..
هكذا غادر جمصة البلطى دار الامارة يجبر أنذال الاهانة لأول
مرة فى حياته ..

- ٩ -

غضب حيال الاهانة فهيمنت عليه طبيعته القوية المتحدية ..
غاضت نوازع الخير فتوارت فى أعماق بعيدة .. تصدى للهزيمة
بوحشية رجل يستبجح أى شئ فى سبيل الدفاع عن سلطته .. لقد
استوعبته السلطة وخلقته خلقا جديدا فتناسى الكلمات الطيبة التى
تلقاها على يد الشيخ فى الزاوية على عهد البراءة .. سرعان
ما جمع أعوانه فصب عليهم السيل الذى انصب عليه فى بهو الامارة
وفتح نوافذ الجحيم على مصراعها .. وكلما وقع حادث جديد قبض
على عشرات بلا دليل أو قرينة وعذبهم بلا رحمة .. وخفت تبعا
لذلك متابعتة للشيعية والخوارج فضاعفوا من نشاطهم ، وحرروا

فسأله بتحد :

- كيف هان عليك نهب الأموال وذكر الله يتردد على لسانك ؟!

- لم يصب غضبي الا الطغمة المستغلة للعباد ..

فتأوه قائلاً وكأنما يحدث نفسه :

- سأفقد عملي من أجل ذلك ..

- أنك أيضاً من الطغمة الفاسدة ..

فقال بفخار :

- انى مثل أعلى فى أداء الواجب ..

- والمال الحرام ؟

- ما هو الافات تتساقط من موائد الكبراء ..

- عذر قبيح ..

- انى أعيش فى دنيا البشر ..

- ماذا تعرف عن الكبراء ؟

- كل كبيرة وصغيرة ، ما هم الا لصوص أوغاد !

فقال الصوت متهمكماً :

- لكنك تحميمهم بسيفك البتار وتطاردهم الشرفاء من اهل

الرأى والاجتهاد ..

- انى منفذ الأوامر وطريقي واضحة ..

- بل تطاردك لعنة حماية المجرمين واضطهاد الشرفاء ..

- ما فكر رجل وهو يؤدى واجبى هذا الا هلك ..

- اذن أنت أداة بلا عقل ..

- عقلى فى خدمة واجبى فحسب ..

- عذر من شأنه أن يهدر انسانية الانسان ..

ولمح فى وجدانه خاطر فتفتحت له أبواب ونوافذ ، فقال بدهاء :

- الحق انى لست راضياً عن نفسى ..

- محض كذب ..

فقال بحرارة :

- لم أفلح أبداً فى اقتلاع الهواتف الشريفة ، انها دائماً

تجاوزنى فى سكون الليل ..

- لا أجد لها اثر فى حياتك ..

فقال بلباقة :

- تعوزنى قوة تسندنى عند الحاجة !

- بل أنك تطارد الهواتف الشريفة كما تطارد الشرفاء ..

فقال بتحد :

- انى أضع نفسى تحت الاختبار ..

- أفصح عما تريد ..

- اجعل قوتك فى مساندتى لا فى معاندتى ..

- ماذا تريد ؟

- أهلك المجرمين وأحكم الأمة حكماً عادلاً نقياً !

جلجلت ضحكة ملأت الكون وقال :

- تود أن تمكربى لتحقيق أحلامك الدفينية فى القوة والسلطان !

- كوسيلة لا كغاية !

- ما زال قلبك غارقاً فى العبودية !

- جرينى اذا شئت ..

- انى عفريت مؤمن ولا أتجاوز حدودى أبداً ..

فقال جمصة يائساً :

- اذن قابعد عن طريقي بسلام ..

- الحق انى فكرت بهدىء فوق جبل قاف فاقتنعت بأنك أدبت لى

خدمة غير منكورة وان تكن غير مقصودة فقررت أن أرد الصنيع

بمثله ودون تجاوز للحدود ..

فقال بحيرة :

- ولكنك تفعل نقيض ما تقصد ؟

- يا لك من غبى !

فقال بتوسل :

- أوضح لى هدفك ..

- لك عقل و ارادة و روح !

- ألق على بصيصا من نور ..

- لك عقل و ارادة و روح ..

هم بالتوسل اليه ولكن الآخر اطلق ضحكة ساخرة ، ثم سحب وجوده بسرعة وتلاشى ..

استيقظ جمصة البلطى على نقر الباب .. دخل وكيله ليخبره بأنه مدعو الى لقاء الحاكم الهمدانى ..

- (٩١) -

تمنى لو ترك لنفسه ليتأمل ولكنه لم يجد من الذهاب بدا .. ما توقع حيرا من المقابلة .. لم يعد ينتظر خيرا على الإطلاق .. اختفت بروق الآمال فى سماء الخريف وصمت طبول النصر .. سيتأرجح طويلا بين الحاكم وعبث سنجام .. غاص فى دوامة لا قرار لها فوق متن بقلته فى الطريق الى دار الامارة .. الطريق مغمم بالحركة والصوت ، تحاصره مطالب الحياة ، الأعين تتابعه بازدراء .. لا سرور ولا غرور .. انقضت أيام الاختيال .. حقير يقتات على الحقارة ، هذا ما اقنعه به سنجام .. عزأؤه الوحيد كان أنه سيف الدولة .. فل السيف وتقوض الأمن فأى وزن له ؟! .. لص قاتل حامى المجرمين ومعذب الشرفاء .. نسى الله حتى ذكره به عفريت من الجن ..

- (٩٢) -

وجد خليل الهمدانى واقفا وسط البهو كرمح مستعد للقتال . قال جمصة بهدوء :

- سلام الله عليك ايها الأمير ..

فصاح الحاكم بصوت متهدج من شدة الغضب :

- انعدم السلام بوجودك ..

فقال بحزن :

- انى اعمل حتى الموت ..

- لذلك سرقت جواهر حريمى من اعماق دارى !

فاق ذلك توقعه .. تساءل عما يريد سنجام .. وجم صامتا

صاح خليل الهمدانى :

- ما أنت الا حشاش او شريك اللصوص ..

قال بصوت غليظ :

- انى كبير الشرطة ..

فصرخ :

- موعدنا المساء والا عزلتك وضربت عنقك ..

أى جدوى ترجى من البحث ؟ ، ماذا يفعل رجاله حيال قوة
سجنهم ؟. سوف يعزل ويفقد شرفه وتضرب عنقه .. انه مصير
طالما ساق الناس اليه فكيف يتهمه !.. لكن جمصة لن يقبل مصيره
دون دفاع ، ودون دفاع شرس .. امامه نهار واحد ولا وقت
للتردد .. ها هي حياته صفحة مبسوطة امام عينيه .. شهادة
مجسدة ومرعبة .. بدأت بعهد الله وانتهت بعهد الشيطان ..
عليه ان يزلزلها قبل الموت .. وخطر الشيخ على قلبه كما تخطر
نسمة شاردة في جحيم القيط .. هفت محمولة بين طيات مقطرة
من حنين .. قال لنفسه « هذا وقته » .. جذبه على أى حال من
أعمق أعماقه ، عندما هتكت الأحزان القشرة الصلبة اللطخة
بالدماء ..

وجده في حجرة الاستقبال البسيطة كأنه ينتظر .. انحنى فوق
يده صامتا وتربع على شلثة بين يديه .. تنشق الذكريات كعطر
وردة مخنطة ، وتجسدت له في الفراغ آيات وأحاديث ، ومخلفات
من النوايا الطيبة كالدماء .. ارتوى من السكينة حتى غلبه الحياء
فقال بحزن :

- انى اقرأ شغورك نحوى يا مولاي ..

فقال عبد الله البلخى بهدوئه الخالد :

- علم ذلك عند الله وحده فلا تدع ما ليس لك به علم ..

فقال بحزن :

- انا فى رأى الناس شرطى سفاح ..

- ترى لم يزورنى السفاحون ؟

فقال متشجعا :

- ما اعذبك يا مولاي ، الحقيقة ان لدى حكاية اود ان

تسمعها ..

فقال بزهري :

- لا رغبة لى فى ذلك ..

- يجب ان اتخذ قرارا وهيهات ان يدرك مغزاه دون سرد

الحكاية ..

- القرار كاف لادراك مغزى الحكاية ..

فقال بقلق :

- الأمر يحتاج الى مشاورة ..

- كلا انه قرارك وحدك ..

فقال بتوسل :

- اسمع حكايتى العجيبة ..

فقال بهدوئه :

- كلا ، يهمنى أمر واحد ..

فسأله بلهفة :

- ما هو يا مولاي ؟

- ان تتخذ قرارك من أجل الله وحده ..

فقال بحيرة :

- لذلك أحتاج الى رأى ..

فقال الشيخ بهدوء حازم :

- الحكاية حكايتك وحدك والقرار قرارك وحدك ..



غادر دار الشيخ موزعا بين الشك واليقين .. كان الشيخ يعرف حكايته وقراره ، وكأنه يبارك قراره تحت شرط أن يكون من أجل الله وحده؟! .. ألم يلعب اليأس دورا؟ ، ألم يلعب الدفاع عن النفس دورا آخر؟ ، ألم تلعب الرغبة في الانتقام دورا ثالثا؟ ترى هل يهون من شأن التوبة أن تسبق بمعصية؟! .. العبرة بالنية الأخيرة وبالأصرار عليها حتى النهاية .. انه على أى حال يدفن جمصة القديم ويبيع آخر جديد .. ولما قر قراره تنهد بارتياح عميق .. وتضاعف نشاطه طيلة الوقت فزار داره وجالس رسمية زوجته واکرمان ابنته ، فجاش صدره بعواطف حارة خفية أشعرته بوحدته أكثر وأكثر .. حتى سنبجام تركه لوحده .. غير أن تصميمه كان هائلا ولم يعرف التردد .. وواجه أخطر موقف في حياته بشجاعة نادرة وأقدام لا يلوى على شيء .. ورجع الى مركز عمله فأخرج بقوته الذاتية عن الشيعة والخوارج في ذهول كامل شمل الجنود والضحايا .. وعند مطلع المساء مضى من توه الى دار الامارة .. اعرض عن النظر الى الوجوه والأماكن في طريقه كأنها لم تعد تعنيه .. ورأى أخيرا خليل الهمداني ينتظر في هدوء وتصميم فلم يشك في أنه اتخذ قراره أيضا .. ضمهما اليهو في وحدة الا من عذابات البشر المتجمعة وراء الوسائد والطنافس .. وشهود من جميع الأجيال الغابرة .. لم يتبادلا تحية وسأله الحاكم ببرود :

- ماذا وراءك ؟

فأجاب جمصة البلطى بثقة :

- كل خير !

فتساءل الرجل بتفاؤل طارىء :

- اقبضت على اللص ؟

- من أجل ذلك جئت ..

فقطب الحاكم متسائلا :

- اتظنه في داري ؟

فأشار جمصة اليه قائلا :

- ها هو يتكلم بلا حياء ..

ذهل خليل الهمداني وهتف :

- جننت ورب الكعبة !

- انه الصديق يقال لأول مرة ..

تحفز الحاكم للعمل فامتشق جمصة سيفه وهو يقول :

- ستنال جزاءك الحق ..

- جننت ، انك لا تدري ما تفعل ..

فقال بهدوء :

- انى اقوم بواجبى !

فقال باضطراب وذعر شامل :

- عد الى رشدك ، انك تلقى بنفسك الى النطع ..

فوجه الى عنقه ضربة قاضية فاختلطت صرخته المذعورة

بخواره واندفع مثل نافورة ..

لقى القبض على جمصة البلطى وانتزع السيف من يده .. لم يحاول الهرب .. ولم يقاوم ، آمن بأن مهمته قد انتهت .. لذلك حل به هدوء وصفاء ذهن وعلت في وجدانه موجة الشجاعة الخارقة ، فشعر بأنه يخطو فوق جلاديه ، وبأنه لا يبالي الموت بأى قدر جاء .. وقال لنفسه ان الانسان أعظم مما تصور ، وأن الدنيا التى اقترفها لم تكن جديرة به على الاطلاق ، وأن الاذعان لسطوتها كان هوأنا دفعه اليه السقوط والتنكر لطبيعته الانسانية .. وقال ايضا انه يمارس الآن عبادة صافية يغسل بطهرها قدر اعوام لانفاس الطويلة ..

وانتشر الخبر مع هواء الخريف فصار حديث العامة والخاصة ، وفجر الذهول وتساؤلات لا حصر لها ولا عد .. وتضاربت النبوءات واحتدم هذيان المجاذيب فانطلق الاضطراب يحتاج الحى والمدينة ويصعد بهرجه الى القصر السلطانى .. وما لبث ان انتقل الوزير دندان الى دار الامارة بالحى على رأس كوكبة من الفرسان ..

استدعى جمصة البلطى مكبلا بالحديد للمثول أمام العرش فى بهو الأحكام .. وتبدى شهريار فى عباءته الحمراء التى يرتديها اذا جلس للقضاء ، على رأسه عمامة عالية تتراسل فى جنباتها قصوص الجواهر النادرة .. الى يمينه وقف دندان ، والى يساره رجال السلطنة ، على حين اصطف الحرس على الجانبين أما وراء العرش فقد مثل شبيب رامة السيف ..

تجلت فى عينى السلطان نظرة ثقيلة محملة بالفكر ، ومضى يتفرس فى وجه كبير الشرطة مليا ، ثم سأل :

— الا تقر بفضلى عليك يا جمصة ؟

فاجاب الرجل بصوت قوى مثير للأعصاب :

— بلى ، أيها السلطان ..

فانس السلطان منه تحديا لموقفه المكبل بالحديد فقطب وسأل :

— اعترف بأنك قتلت خليل الهمداني نائبي فى حيكم ؟

— اجل أيها السلطان ..

— ماذا دفعك الى ارتكاب جريمتك الشنعاء ؟

فقال بوضوح ودون مبالاة بالعواقب :

— أن احقق ارادة الله العادلة !

— ومن أدراك بما يريد الله سبحانه ؟

— هذا ما ألهمته خلال حكاية عجيبة غيرت مجرى حياتى !

انجذب وجدان السلطان نحو لفظة « حكاية » فتساءل :

— وما الحكاية ؟

روى جمصة البلطى حكايته .. مولده من أبوين من عامة

الشعب ، تلمذته فى الزاوية على الشيخ عبد الله البلخى ، انفصله

عن الشيخ بعد تعلم مبادئ الدين والقراءة والكتابة ، قوة بدنه التى

أهله للخدمة فى الشرطة ، اختياره كبيرا للشرطة لكفاءته النادرة ،

انحرافه خطوة فخطوة حتى انقلب مع الزمن حاميا للمنحرفين

وجلادا لأصحاب الراى والاجتهاد ، ظهوره سنجام فى حياته ، أزماته

المتتالية ، وأخيرا توبته الدامية ..

تابعه شهريار باهتمام .. وضح أنه انفعلى بأقواله أنفعالات

متضاربة .. قال بيزود :

— سنجام جمصة ، عقب قمقام صنعان الجمالى ، أصبحنا فى

زمن العفاريث الذين لا هم لهم الا قتل الحكام !

فقال جمصة :

— ما زدت على الحقيقة حرفا والله شهيد ..

— لعلك تحلم بأن ينقذك ذلك من العقاب ؟

فقال باستهانة :

— اقدمى يقطع بأننى لا أبالى ..

فقال شهریار بحيرة :

— سنجعل منك مثلاً للمتمردين ، فليضربن عنقك ، ولتعلقن

رأسك فوق باب دارك ، ولتصادر أموالك ..

— ١٧ —

فى سجن تحت الأرض ، وفى ظلام .. كافح آلامه واستمسك

بشجاعته .. أثار حنق السلطان فانتصر عليه .. تركه فوق عرشه

يتعثر فى هزيمته .. وتذكر بأسى رسمية وأكرمان .. وطافت بخياله

حسنية .. ستلقى أسرته من الهولان ما لقيته أسرة صنعان ولكن

رحمة الله أقوى من الكون .. وطن أن السهاد لن يفارقه ولكنه نام

نوما عميقا لم يستيقظ منه الا على جلبه وضوء مشاعل .. لعله

الصباح ، وها هم الجنود قد حضروا ليسوقوه الى النطع ..

سيكتظ الميدان بأهل الفضول وسيموج بالعواطف المتضاربة .. ليكن

.. ولكن ماذا يرى ؟ يرى الجنود تنهال بالركلات على جمصة

البطى ، وهذا يستيقظ فزعاً متأوها .. ما معنى هذا ؟ .. أيحلم ؟ :

لأذا كان هذا هو جمصة البطى فمن يكون هو ؟ : كيف لا ينتبه اليه

أحد وكأنما هو غير موجود ؟ ! ذهل وخاف أن يفقد عقله .. بل

لعله فقد عقله .. أنه يرى جمصة البطى أمامه .. الجنود تسوقه

الى الخارج .. وأنه — بخلافه — شديد الفزع والانهيال .. وجد

نفسه أيضا محمرا

من القيد ، فعزم على مفادرة السجن ، وتبع الآخرين لا يلتفت اليه

أحد .. رباه .. المدينة منحشرة فى ميدان العقاب .. نساء ورجال

وأطفال .. فى الصدر السلطان ورجال الدولة .. النطع فى الوسط

وشبيب رامة ونفر من المساعدين .. لم تحضر رسمية ولا أكرمان

فهذا حسن .. ما أكثر الوجوه التى عرفها وتعامل مع أصحابها ..

انه ينتقل من مكان الى مكان فلا ينتبه اليه أحد .. أما جمصة البطى

فيقترب من النطع بين حراسه .. وجه واحد تراءى له كثيرا حتى

عجب لسانه هو وجه سحلول تاجر المزايدات والجواهر .. وعندما

هيمنت لحظة الصمت المؤثر ، وخطف النطع الأبصار من جميع

الجهات ، خفق قلبه ، وخيل اليه انه سيلفظ روحه عقب سقوط رأس

الآخر .. وفى اللحظة المفعمة بالصمت ارتفع سيف شبيب رامة ،

ثم هوى كالصاعقة ، فسقط الرأس ، وختمت حكاية جمصة البطى .

توقع جمصة البطى الموت ولكنه مر به وذهب .. وتضاعف

ذهوله وسط تيار المنصرفين حتى خلا الميدان تماما .. تساءل « أأنا

جمصة البطى ؟ » وإذا بصوت سنجام يقول :

— كيف تشك فى ذلك ؟

فهتف الرجل فى غاية من التأثر :

— سنجام ! .. أنت صاحب المعجزة !

— أنك حى ، وما قتلوا الا صورة من صنع يدي !

— انى مدين لك بحياتي فلا تتخل عني ..

فقال بوضوح :

— لا ، الآن لا على ولا لى ، أستودعك الله ..

فهتف مدعورا :

— كيف لى بالظهور أمام الناس ؟

فقال الصوت :

— هيهات ان يعرفك أحد ، انظر فى أول مرآة تصادفك ..

فقال الحلاق محذرا :

— لا تخض فيما لا تعلم ..

فصدق معروف الاسكافي على قوله .. ورأى سحلول تاجر
المزادات والتحف وهو ينظر نحو الرأس بلا مبالاة فتذكر نشاطه
العجيب يوم الإعدام .. ولما كان التاجر وحده فقد اقترب منه
وسأله :

— هلا نورت غريبا بحكاية صاحب الرأس ؟

فحدّثه سحلول بنظرة ارتجف لوقعها جسمه .. خيل إليه أنها
نفذت الى أعماقه فازداد الرجل في نظره غموضا على غموض ..
وقال له سحلول وهو يمضى عنه :

— لا اعرف عنه أكثر من الآخرين ..

اتبعه ناظره حتى اختفى ثم قال لنفسه « لعله ترفع عن محادثة
حبشى غريب ! » .. وتذكر تاريخه — كشرطى سابق عالم بأحوال
الناس — فشهد له بأنه التاجر الكبير الوحيد الذى لم ينشئ علاقة
عربية معه أو مع الحاكم ! .. ثم سرعان ما نسيه في زحمة التأملات ..
ورأى رجب الحمال ينضم الى موقف عجر وابراهيم ومعروف
بقصده مدفوعا بخطة رسمها من قبل .. حياه وقال :

— انى حبشى مهاجر وأريد أن أعمل حمالا !

فتذكر رجب صديقه الأول السندباد ولكنه قال :

— هلم معى والله رزاق كريم ..

— ١١ —

الحمال

من أعلى باب الدار تدلى رأس جمصة البلطى .. الرائجون
والفادون ينظرون اليه ، يتوقفون قليلا ثم يذهبون ، وجمصة البلطى
ينظر مع الناظرين .. ينظرون بفضول أو رشاء أو شماتة .. أما هو
فينظر بذهول ولم يكن آفاق من كربه حينما شهد طرد زوجته وابنته
من الدار .. وقد مرا به دون اكتراث وهو متصور في صورة حبشى
مفلعل الشعر خفيف اللحية ممشوق القامة .. عجبه من منظر رأسه
لا يتقضى ، أما حزنه على أسرته فلا نهاية له .. ويحوم حول الدار
فتترامى الى اذنيه التعليقات المتضاربة تحت الرأس المعلق .. السادة

— مثل كرم الأصيل والقطار والبزاز — يلعنونه بلا رحمة ، والعامّة
يرثون له .. وقد اشرف على مصادرة داره الحاكم الجديد يوسف
الطاهر وكاتم سره بطيشة مرجان وكبير الشرطة الجديد عدنان شومة
.. فتساءل عما ذهب الى بيت المال وعما دس في الجيوب .. وظل
قريبا من الرأس المعلق ينظر ويتأمل ويسمع .. ورأى عجر الحلاق
وهو يقول لابراهيم السقا مشيرا الى الرأس :

— قتلوه جزاء الفعل الخير الوحيد في حياته ..

فتساءل السقاء :

— لم لم ينقذه عفريته المؤمن ؟

حام بروحه وجسده حول أسرته .. ما قيمة الحياة اذا ما انفصل عن أسرته ورأسه؟! وظل يتبع رسمية واكرمان حتى استقرتا في حجرة بالربع الذى يقيم فيه آل صنعان .. ولم يتردد فاكترى لنفسه حجرة في نفس الربع وعرف بعبد الله الحمال .. وسره في غيوم القلق ان ام السعد هي التي قادت أسرته الى مأواها الجديد .. سره ان ام السعد لم تنس الجيرة القديمة .. وام تنس سعى رسمية الى مساعدتها في محنتها .. وسوف تشارك رسمية زوجته في صنع الحلوى فسيشرح بها فاضل صنعان لحساب الأسرتين .. سر بذلك ايما سرور وسر ايضا بجيرته لهم فيها برويتهم ويطمئن على احوالهم ويمارس ما يتاح له من زوجية وابوة وعشق من بعيد ، من موقع لا يدري به احد .. وتوقع ان يتزوج فاضل من ابنته اكرمان كما اتفق مع صنعان ، وكما حلم هو يوما من الزواج من حسنية اخت فاضل ..

واصل تلك الحياة الغريبة .. يشعر احيانا انه حى ، وحيانا انه ميت ..

اجل انه عبد الله الحى وجمصة الميت معا .. تجربة غريبة لم يمارسها انسان من قبل .. يسعى الى رزقه في رحاب زمالة رجب فيتذكر انه حى .. يعبر الطريق تحت رأسه المعلق أو يرى رسمية واكرمان فيتذكر انه ميت .. ولم يغفل ابدا عن معجزة انقاذه من الموت فعزم على السير حتى النهاية في طريق التقوى .. يجد سروره في العبادة وينعم في وحدته بذكر الله ويناجى رأسه المعلق فيقول « لتبقى رمزا على موت الشرير الذى عبث بروحى طويلا .. على ان صدره فاضل بحنين دائم نحو شخصيته الزائلة .. تلك الشخصية التي توجت حياتها بتوبة صادقة .. مثيرا جدا ان يموت الانسان وهو حى أو يحيا وهو ميت .. فمنا لا يمكن ان يصدق انه جمصة البلطى بجوهره الدفين؟! وهل يحتمل ان ينفرد بهذا السر وحده الى الابد؟! حتى رسمية واكرمان تنظران اليه كغريب وافد من بلاد غريبة .. لذلك يشعر حيال نظرتها غير المبالية بغربة قاسية وظلم معذب .. لم يفتنوا ولو مرة واحدة الى الحب الراسخ وراء نظرتهم المسترقة .. لم يعكسا لاشواقه صدى .. تطل من عينيها نظرة تجدد تنفيذ الاعدام فيه كل صباح وكل مساء .. حتى حزنهما للذكراه لم يكن يمس به بانامل العزاء .. ويحزن فى نفسه ابتعادهما الوئيد عن ذكراه فيما يفوصان فيه من هموم الحياة اليومية .. لن يصدقا الحياة الموهوبة له بمعجزة ولن يتقبلاها .. لقد تجرعتا غصص موته ، وعانتا كرباتها ، وعرفتا الحياة بدونه ، والخروج من الوضع الجديد مزعج مثل الدخول فيه .. وهو لن يقدم على تفويض

البناء الجديد ولا يستطيعه .. من مات يجب ان يستمر في الموت
رحمة بمن يحب .. وعليه ان يآلف موته في حياته الجديدة .. ليكن
عبد الله الحمال لا جمصة البلطى .. ولتكن مسرته في العمل
والعبادة .. غير ان عمله يسوقه كثيرا الى بيوت معارفه السابقين،
والى دور السادة والحكام .. عالم التقوى الظاهرة والفساد
الكامن .. وارجمه ذلك الى التفكير في ذاته وفي احوال الناس ..
كدر صفو سلامه الروحى . طارده الاعوجاج كأنما لاقتحم أعضاءه
وأخل بوظائفها .. وقال انه كلما تنطلق الكواكب في نظام بديع
فهكذا يجب ان تجرى احوال العباد .. وتساعل في قلق :
— هل بقيت في الحياة بمعجزة لأعمل حملا ؟!

— [٤] —

جعل شهريار ينظر الى اشباح الأشجار المتهامسة في الليل ..
ربض السلطان في مجلسه بالشرفة الخلفية رغم ان الخريف كان
ينسحب امام طلائع الشتاء .. انه أقدر على تحمل البرد منه على
محاورة طوفان افكاره .. والتفت نحو وزيره دندان متسائلا :
— اتكوه الظلام ؟

فقال الوزير بولاء :
— انى أحب ما يحب مولاي ..

انه يتساعل دلائما ترى هل تغير السلطان حقا او انها وقفة
عابرة ؟! .. ولكن مهلا .. كان في ماضيه حاسما واضحا قاسيا بليد

الاحساس ، الآن سرعان ما تومض في عينية نظرة حائرة .. قال
دندان :

— الامة سعيدة وتلهج بالشكر ..

فتبتم السلطان بخشونة :

— قتل على السلولى وسرعان ما لحق به خليل الهمداني !

فقال دندان باشفاق :

— الشر والخير كالليل والنهار ..

— والعفاريث ؟!

— امام النطع يخلق المجرم ما يستطيع ..

فقال بهدوء :

— ولكنى أتذكر حكايات شهرزاد !

فخفق قاب دندان وقال :

— لا بد ان يلقي القاتل جزاءه ..

— الحق انى أوشكت ان اكتفى بسجن جمصة البلطى !

ثم بعنق !

— ولكنى أعدمته جزاء وقاحته في مخاطبتى ..

قال دندان لنفسه ان مولاه لم يتغير منه الا سطحه ولكنه قال :

— على اى حال نال الشقى جزاءه ..

فقال بحدة :

— ونلت نصيبى من الكآبة ..

— مولاي ، لعلها وعكة طارئة ..

— بل حال من الأحوال ، وهل حدثتني حكايات شهرزاد الا

حديث الموت ؟!

فقال الوزير بجزع :

— الموت !

— أمم تلتهمها أمم ، يطرق بابها في النهاية طارق مصمم واحد
هو هازم اللغات !

— انها مشيئة الله اطلال بقاءك ..

فقال بصوت محايد :

— القلوب أسرار ، والكأبة مأكرة ، وقد تداوى الملوك السابقون
في الليل بالتجوال وتفقد الأحوال ..

فقال دندان مستمسكا بطوق النجاة :

— التجوال وتفقد الأحوال ، يا له من الهام ! ..

وقال لنفسه « كائن لا حدود لقوته ، قد يتكشف عن زهرة أو
يتمخض عن زلزال .. » ..

— ٥ —

عبد الله الحمال ماض في دورانه بلا توقف .. في الأزقة المسدودة
والحواري الحلزونية وأحياء التجارة والحرف وطرق المراكب
وميادين الرماية والصيد والاعدام والبوابات الضخمة تقوم مقام
الحدود والروائح تنتشر كالعناوين ، رائحة العطاراة النافذة والعطور
المخدرة والاقمشة المدغدغة والأطعمة الفواحة والجلود العطنة ..
يمر برسمية وأكرمان ، وأم السعد وحسنية ، يلقي التحية بلسان
يتردد في هذا العالم ، وبقلب سكن في العالم الآخر .. وفي تجواله
عرف فاضل صنعان ووثق علاقته به .. من الناس ما حفظ عهده
مثل حسن العطار ونور الدين ومنهم من تجنبه تجنباً للشيطان ..
واشفق عبد الله من أن تنفشي حكاية العقرية فتقضي على مستقبل
أكرمان وحسنية اللتين يؤهلهما اعدادهما لخيرة الزيجات .. وأحب

فاضل صنعان لجده وتقواه وشجاعته فجعل من سلم السبيل محط
راحته في نهار العمل يلتقيان فيه ويتبادلان الحديث .. وذات مرة
فقال له :

— انك شاب تقى لا تفوتك فريضة فلم لا تصون عفتك بالزواج ؟

فقال فاضل بأسى :

— لا قبل لى بنفقات الزواج ..

— القليل يكفي !

— لى حياء وكرامة ..

فقال عبد الله باغراء :

— بين يديك أكرمان ..

التفت عيناها في ابتسامة كاشفة عن أسرار كثيرة وقال
فاضل :

— وانت يا عم عبد الله تاهزت الأربعين أو فتها دون زواج .. ؟

فقال الحمال بوضوح :

— انى أرمّل ، وأود أيضا أن أصون عفتى !

— يخيل الى أنك في غير حاجة الى خاطبة !

فقال بهدوء :

— ست رسمية أم أكرمان !

فضحك فاضل وقال :

— فلننتظر قليلا ثم نتقدم معا ..

— ولم الانتظار ؟

— حتى تمحى ذكرى جمصة البلطى !

فانقبض صدره .. انه أراد رسمية بدافع من وقائه وتقواه ..

لو أطاع هواه ما اختار الا حسنية .. ويوم تقبله رسمية سيسعد

من قلبه نصف ويبيكه نصفه الآخر ..

- ٦ -

كلما خلا الى نفسه تساءل « هل بقيت في الحياة بمعجزة لأعمل حمالا ؟ » .. وتساءل أيضا « لم لم يهجرني سنجام في اللحظة الحرجة كما هجر قمقام صنعان الجمالي ؟ » .. وامتلأ بالحيرة كوعاء مكشوف تحت المطر فقادته قدماه الى دار الشيخ عبد الله البلخي . قبل يده وتربع أمامه وهو يقول :

- انى غريب ..

فقاطعه الشيخ :

- كلنا غرباء ..

- اسمك كالزهرة يجذب اليه شوارد النحل ..

فقال الشيخ :

- الفعل الجميل خير من القول الجميل ..

- ولكن ما الفعل الجميل ؟ .. هذه هي مشكلتي !

- الم يصادفك عند مجيئك رجل حائر ؟ ..

- أين يا مولاي ؟

فأجاب بهدوء :

- بين مقامي العبادة والدم ؟

فارتعد خوفا وقال لنفسه انه يرى ما وراء الحجاب .. وقال

متنهدا :

- في الليلة الظلماء يفقد البدر ..

فقال الشيخ :

- عرفت من التلاميذ ثلاثة أنواع ..

- هم السعداء في جميع الأحوال ..

- قوم يتلقون المبادئ ويسعون في الأرض ، وقوم يتوغلون في العلم ويتولون الشئون ، وقوم يواصلون السير حتى بمقام الحب ولكن ما اقلهم !

فتفكر عبد الله مليا ثم قال :

- ولكن العباد في حاجة الى الرعاية ..

فقال دون أن يتخطى عنه هدوءه :

- كل على قدر همته ..

فتحدى تردده قائلا :

- انما قصدتك يا مولاي ..

وعثر في الصمت كأنما ليجمع أفكاره فقال الشيخ :

- لا تحدثني عن مقصدك ..

- لماذا ؟

- كل على قدر همته !

أسبل جفنيه غائبا عن اللقاء ..

انتظر عبد الله أن يرفعهما مرة أخرى ولكنه لم يفعل فانحنى لاثما يده وانصرف ..

قال لنفسه ان الشيخ اطلع على هواجسه فاحاله الى ذاته .. عليه ان يسلم بذلك ما دام الانسان قد قبل الامانة .. سيلقى الاشرار غدا الويل بفضل عزيمة تائب ومكر شرطى خبير .. ومضى يمارس عمله وهو يتلقى صفاء وتركيزا .. ومن رحمة تنداح في قلبه استمد عقله افكارا لا تعرف الرحمة .. حادة كتصل السيف .. سرعان ما دهمته الحياة بتناقضاتها الساخرة ومصائرها الدامية وهنائها الموعود .. وابى التراجع لانه ابى ان يستأثر بهدية الحياة دون ثمن .. عند ذاك قراءت له حسنية كامل يسرق فى سماء عالم آخر .. وعند الاصيل آوى الى سلم السبيل فوافاه فاضل صنعان اليه .. تبين له ان الشاب وثب فوق الزمن بأسرع مما قدر .. قال فاضل :

- سأطلب يد اكرمان !

فقال بدهشة :

- كنت تفضل الانتظار وقتا ؟

- كلا ، عدلت عن ذلك ، وسأطلب يد ست رسمية نيابة عنك ! ضمت عبد الله متفكرا .. لا شك انها بحاجة الى رجل فى محنتها ، وهيئات أن تطمع فيمن هو افضل منه ! .. وقال فاضل بمرح :

- ما أجمل أن تتزوج الأم وابنتها فى ليلة واحدة !

ولما كان قد آنس اليه فقد انشأ يقص عليه حكايتى صنعان الجمالى وجمصة البلطى ..

ولما انتهى من حديثه المثير قال عبد الله معلقا :

- يعر من يشاء ويذل من يشاء ..

فتمتم فاضل صنعان :

- كل على قدر همته !

فاقتحمته الجملة مثل رائحة الفلفل وتسائل ترى هل تلقاها من المصدر نفسه ؟ ! . وقال ممهدا لمجرى جديد من الحديث :

- ومن كمال الهمة الحذر ..

ناجى كل منهما افكاره الخاصة مليا ثم قال عبد الله :

- نحن نوشك أن نصير أسرة واحدة ، لذلك أقول لك ان الحمل يدخل الدور التى لا يتاح دخولها الا للصفوة ..

حدس فاضل ان صاحبه مقبل على الادلاء باعتراف ما فحده ينظرة متسائلة فقال عبد الله :

- فى دارى يوسف الطاهر الحاكم وعدنان شومة كبير الشرطة يدور الهمس احيانا عن أعداء الدولة ..

فقال فاضل متظاهرا باللامبالاة :

- انه اقل ما ينتظر ..

- لا يتصور احد انى افقه معنى لما يدور او اننى أمد اليه أذننا ..

- ولكنك رجل غير عادى بما عم عبد الله وهذا ما أعجب له !

- لا تعجب لفطنة رجل طالما تقلب بين البلدان والأحوال !

فقال فاضل بأريحية :

— الحق أنى سعيد بك ..

فمضى عبد الله فى اعترافه قائلا :

— وهم قوم موسوسون ، كلما تهادوا فى الاجرام تخاللت

لاعينهم اشباح الشيعة والخوارج ..

— اعرف ذلك تماما ..

— لذلك قلت انه من كمال الهمة الحذر ..

فرمقه فاضل بارتياح وسأله :

— ماذا تعنى ؟!

— انك لبيب !

— كأنك تحذرنى !

— لا بأس من ذلك ..

— ما انا الا بائع حلوى ، هل رابك منى شىء ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— انى احب الحذر كما احب الشيعة والخوارج !

فسأله فاضل بلهفة :

— من ايهما انت ؟

— لا من هؤلاء ولا من أولئك ولكنى عدو الاشرار !

وجد عبد الله بين يديه دعوة مفتوحة ولكنه كشرطى سابق أثر
العمل بطريقته الخاصة !

— ٩ —

انطلق عبد الله الحمال كالسهم فى سماء الجهاد كمتصوره ،
تادى قوته القديمة وأخضعها هذه المرة لارادته الصلبة النقية ..
وفى الحال سقط بطيشة مرجان كاتم السر قتيلا .. وهو يمضى من
دار الامارة الى داره عقب منتصف الليل ، وبين حرسه ، انقض
من الظلام سهم فاستقر فى قلبه ، فهوى فوق بقلته بين الرماح
والمشاعل .. اجتاح الحرس المكان يوما يتشعب منه وألقوا بالقبض
على من صادفهم من المارة والمتسكعين والمكومين فى الأركان ..
احترقت داره حزنا ، وزلزلت دار الامارة ففادها يوسف الطاهر
كالمجنون على رأس قواته ، وصعد الخبر الى الوزير دندان فأرفقه
الفرز حتى الصباح .. ومنذ الصباح انتشر النبأ فى الحى ثم فى
المدينة فماجت الأنفاس وفاضت بالظنون .. حلقة جديدة فى سلسلة
مصرعى السلولى والهمدانى .. التحام جديد بدنيا العفاريت
الغامضة .. بل انهم الخوارج او الشيعة .. او لعلها حادثة فردية
تكمن وزاها غير المرأة أو حسد رجل .. وامطرت السماء مطرا
غزيرا لم ينقطع طيلة النهار فتراكم الوحل وجرى الماء مغطى بالزبد
فى الخواري والازقة فافسد نظام الجنازة والدفن منذرا بشتاء
قاس .. واندس عبد الله الحمال بين العامة فى مقهى الأمراء مرهف
الحواس باهتمام خفى .. استقطب الحادث الحديث كله ،
وتناقضت الآراء بين أفكار السادة المعلنة وهمسات العامة المتبادلة
فى الأذان .. ولمح عبد الله المعلم سحلول تاجر المزايدات والتحف وهو

ينهمك في حديث طويل مع كرم الاصيل صاحب الملايين فانقبض صدره .. انه لم ينس نظرتة النافذة تحت رأسه المعلق .. وتذكر انه رآه يحوم حول موكب كاتم السر وهو - عبد الله - يتأهب لاطلاق السهم ، فكيف لم يقبض عليه فيمن قبض عليهم ؟ .. كيف غاب عن اعين الحرس ؟ .. انقبض صدره وتوجس خيفة .. وعجب كيف انه الرجل الوحيد في الحي الذي لم يطلع له على سر طيلة عهده برئاسة الشرطة .. انه مطلع على احوال جميع السادة ما ظهر منها وما بطن الا هذا الرجل ، فهو لفز مغلق !

- ١١ -

احتفل بالزفاف في حجرة أم السعد .. شهدته الاسرتان ، ودعى اليه عبد الله الجمال فسوغ حضوره بهدية من العنبر والبخور قدمها للعروسين ، وبما بذله في النهار من كس الفناء .. جاد بالهمة التي جاد بها ساعة تصدى لقتل بطيشة مرجان .. ثمل بعبق الأسرة الحار الذي نفث في جوارحه سكرة باقية .. جاش صدره بالأبوة والزوجية والحب خاشعا في الوقت نفسه تحت هيمنة التقوى وحب الله الرحيم .. استرد ثراء وجدان قديم ونعم بالقرب ، دافنا سره في بئر مترع بالأسى ..

وتطوعت حسنية لحياء زفافه شقيقها معتمدة على اجادتها في الشعر والغناء والصوت الحسن ، وعلى ايقاع الاكف انشدت بصوت غذب :

يترجم طرفي عن لساني لتعلموا
ويبدى لكم ما كان صدري يكتم
ولما التقينا والدموع سواجم

خوسنت وطرفي بالهموم تكلم
فطربوا جميعا ، وطرب عبد الله حتى فاض قلبه بالدمع ..

- ١٠ -

لم تخف حمى المسئولين ولا اجراءاتهم القاسية أما بقية الناس فمضوا يالفون الحادث ويملون الخوض فيه ثم يتناسونه .. وسرعان ما غلبت مطالب الحياة على أحداث التاريخ ، فقالت أم السعد أرملة صنعان لست رسمية أرملة جمصة البلطى :

- ببركة الله وحكمته يرغب فاضل ابني في الزواج من اكرمان .
وتمت الموافقة في فرحة شاملة .. انهن جميعا يعشن في واقع ولا يسمحن لحلم غابر بأن يفسده .. وقالت أيضا أم السعد :
- أنت أيضا يا ست رسمية !

واعلنت لها عن رغبة عبد الله الجمال في الزواج منها .. ضحكت رسمية ضحكة فاترة لوقع المفاجأة .. ولم تسر بها ولم ترحب .. وقالت بحياء :

وقام ليلقى في المدفأة حطباً فسمع على باب الحجرة طرقاتاً .. مضى
ليفتح فضالعه في الظلام البارد ثلاثة أشباح .. قال أحدهم :

— نحن تجار أغراب ، سمعنا غناء جميلاً فقلنا إن الكرام
لا يصدون الغريب ..

أشار فاضل إلى النساء فتوارين وراء ستارة تشطر الحجرة
ومضى نحو الأغراب قائلاً :

— ادخلوا بسلام .. ما هو إلا زفاف قاصر على أهله البسطاء .
فقال الرجل الغريب :

— ما نريد إلا الأُنس بالناس الطيبين ..
وقال أحد الآخرين :

— عندكم دفء جميل ..
وجاءهم فاضل بطبق البسيمة والمشبك وهو يقول :

— ما لدينا سوى هذا وهو ما نتعيش منه ..
— نحمد الله الذي حلّى ريقنا وأحلى ليلتنا ..

ومال كبيرهم على أذن أحد الآخرين فسادر المكان مسرعاً ..
وخطف عبد الله من الكبير نظرات فخيل إليه أنه لا يراه لأول مرة ،
وحاول أن يتذكر أين ومتى ولكن خائنه الذاكرة .. ثم رجع الرجل
محملاً بالسّمك المقلّى والمشوى فذب في الأنفُس نشاطاً ، وسعدت
بلذّذ المأكّل ، وقال فاضل ممتناً :

— ما يليق مسكننا بمقامكم ..
فقال الرجل مجاملاً :

— العبرة بأهل المسكن ..
ثم برّجاء :

— اسمعونا طرباً فالطرب ما أسعدنا بمعرفتكم ..

فذهب فاضل إلى ما وراء الستار .. وقبل أن يستقر في
مجلسه مرة أخرى تهادى صوت حسنية منشداً :

لو علمنا مجيئكم لفرشنا
مهجة القلب أو سواد العيون

وفرشنا خدودنا والتقينا
ليكون المسير فوق الجفون

فطرب الجميع وهتف أحد الغرباء :

— تبارك الخلاق العظيم ..

وسأل الكبير فاضل :

— كيف ملكت هذه الجارية وأنت على ما تزعم من فقر ؟

فقال فاضل :

— ما هي إلا شقيقتي ..

— لها صوت مهذب ينم عن أصل كريم ..

فوجم فاضل فما كان من عبأ الله الحمال إلا أن قال :

— وإنه لمن أصل كريم اعترضته غدرة من غدرات الزمن ..

فتساءل التاجر :

— ما حكاية تلك الغدرة ؟

فأجاب عبد الله الحمال :

— ما من أحد في مدينتنا إلا ويعرف حكاية التاجر صانعان

الجمالي .. !

فصمت التاجر لحظة ثم قال :

— سمعنا بها فيما سمعنا من أنباء مدينتكم العجيبة ..

وتساءل زميله :

— ولكن هل تصدقون ما روى عن العفريت ؟

فتساءل فاضل بدوره :

— كيف لا وقد جرّ علينا ما جرّ من كوارث !

— ولكن الوالى لا يستطيع أن يستدعى العفريت للشهادة

أو التحقيق فكيف يقيم العدل ؟

فقال عبد الله الحمال :
— على الوالى أن يقيم العدل من البداية فلا تقتحم العقاريت
علينا حياتنا !

فسأله كبير الغرباء :

— ترى هل تكابدون فى حياتكم ظلما ؟!

فأسعفه الحذر المكتسب من خبرته القديمة فى الشرطة وقال :

— لنا سلطان عادل والحمد لله ولكن الحياة لا تخلو من

غصص ..

وتواصل الحديث ساعة حتى نهض الغرباء للانصراف ..

- ١٢ -

خاض ثلاثتهم الظلام صامتين .. التفت التاجر الثانى نحو

الأول وقال :

— لعل مولاي قد وجد التسلية المنشودة ؟

فتمتم الآخر :

— فرجة فى غموم القلب ..

ثم بعد قليل :

— لم تعد جلسة الشعراء تطربنى ولا تهريج شملول الأحذب

يضحكى ..

— تولاك الله بالرعاية يا مولاي ..

فقال مخاطبا نفسه :

— حلم قصير مذهل ، لا تتخايل فيه حقيقة حتى تتلاشى ..

انتظر الآخر أن يلقي السلطان ضوئا على قوله ولكنه لزم

الصمت حتى النهاية ..

- ١٣ -

استقل فاضل واكرمان بحجرة فجمعت الحجرة الاخرى رسمية

وام السعد وحسنية .. على بساطة الحياة نعم الزوجان بسعادة

صافية ، ونمى فاضل لحسنية خاتمة سعيدة كخاتمته .. وكان

احسن توفيقا فى تناسى الماضى من النساء فهو يجد ما يشغله وهن

لا تمحى من ذاكرتهن الايام الخوالي بعزها وأضوائها .. وتوحد

مع عبد الله الحمال حتى تبادلا قراءة الافكار وخواطر القلوب ..

الرجل من معدنه ، وروحه اكبر منه ، واهتمامه منجذب الى هموم

البشر كأنه فقيه لا حمال .. لو استمع أحد المارة الى ما يدور

بينهما من حديث فوق سلم السبيل لذهل ولظنهما رجلين خطيرين

يتنكران فى ثوبى بيع وحمال .. وقال له يوما :

— فتحت لك قلبى ولكنك توصل قلبك حيالى ..

فنفى ذلك بهزة من رأسه فقال :

— فى حياتك سر ولست حملا بسيطا ..

فقال يطمئنه :

— كان لى مرشد فى وطنى ، لا سر وراء ذلك ..

— فى ذلك ما يكفى ..

— على أى حال نحن نرتوى من منبع واحد ..

فقال فاضل بجرأة :

— لذلك سأسألك خدمة ..

المتفجر .. تبادلنا نظرات قلقة ، وعيشنا حاولا كتمان أوتياحهما ..

تمتم عبد الله

— يا لها من أحداث مرعبة .. !

فحدث الآخر ظنونه فقال ببراءة :

— ليس الاغتيال ضمن خططنا !

فقال عبد الله متظاهرا بالحيرة :

— لعلها حادثة انتقام شخصي ..

— لا اظن ..

— لكنه لم يكن افسد من غيره ..

— يعرف الخاصة انه يدس السم في ادوية اعداء الحاكم !

قال عبد الله لنفسه ان صاحبه يعرف من اسرار الناس ما يعرفه

وربما اكثر .. تساءل :

— اذا لم يكن الاغتيال ضمن خطتكم فمن فاعله ؟

فقال فاضل بضيق :

— الله يعلم ، انه يقتل ونحن ندفع الثمن ..

— ١٥ —

عندما اطفأ الشمعة وآوى الى فراشه شعر بالوجود الغريب

يدهمه فارتجف قلبه وتمتم :

— سنجام !

فساله الصوت ببرود :

— ماذا فعلت ؟

فحدجه بنظرة متسائلة فقال بنبرة ذات مغزى :

— انك بحكم عملك تتردد على الدور جميعا !

فابتسم عبد الله بذكاء وصمت منتظرا فقال :

— اتقبل ان تحمل الرسائل أحيانا ؟

فقال باسماء وهو يتذكر اكرمان بحنان :

— ثمة اقوام يجدون معنى حياتهم في السعى الى المتاعب ..

فتجاهل قوله متسائلا :

— هل تقبل ؟

فقال بهدوء :

— ما تشاء واكثر ..

— ١٤ —

ادى هذه المهمة الجانبية في سر وامان تامين فلم يعتدما
اضافة ذات شأن الى مهمته الأصلية ، وهمومه الشخصية - رسمية
، حسنية ، تردده بين الحياة والموت - لم تمنح من صفحته ، ولكنها
لم تعد تزعجه ، وتلاشت همومه العامة كما تتلاشى أمواج النهر
في المحيط .. وكان الرجل الثاني في برنامجه يوسف الطاهر
أو عدنان شومة ايها ايسر ولكنه قدم عليهما ابراهيم العطار
لسبب عارض لم يخطر في باله من قبل .. ذلك انه حمل اليه لوازم
فاختلغا على الاجر فلعله التاجر الكبير واهانه .. واستقر السهم
القاتل في قلب ابراهيم العطار وهو راجع الى داره عقب سهرة
المقهى .. وانفجر الفزع في المدينة وانهمرت ذكريات مصارع
السلولي وبطيشة مرجان والهمدانى ..

وجمع سلم السبيل بين عبد الله وفاضل في عنفوان الاضطراب

فقال سنجام مشاركا :
 - ولكنه ملاك ، نائب عزرائيل في الحي ، واجبه يقتضى الاختلاط
 بهم ليل تهار ، ويحل له ما لا يحل لنا ..
 فقال قمقام :
 - لندع الله أن يلهمنا الصواب ..
 فردد سنجام :
 - آمين ..

- ٧١ -

اعترضت مسيرة عبد الله للحمال عشرة ضاق بها صدره ..
 كان يمضى بحمل كبير من النقل والفاكهة المجففة الى دار عدنان
 شومة كبير الشرطة .. ولم يكن كف عن تقييم مصرع ابراهيم
 العطار ، ما وراءه من جهاد صادق ، وما تسلل اليه من غضب
 ورغبة في الانتقام .. سبيل الله واضح ولا يجوز أن يخالطه غضب
 أو كبرياء ، والا انهيار البناء من أساسه .. وكانت دار عئنان
 شومة تقوم في شارع المواكب والاعبياد على مبعدة يسيرة من دار
 الامارة .. شارع وقور تقوم على جانبيه دور السادة والفنادق
 الكبرى ، وبه بستان وساحة بيع الجوارى .. قال لنفسه وهو
 يدخل الدار « سيجيء دورك يا عدنان قريبا » .. وعندما هم بالذهاب
 أوقفه عبد ، ودعاه الى مقابلة صاحب الدار .. ذهب الى بهو
 الاستقبال بقلب يخفق بالقلق .. نظر اليه الرجل بوجهه المستدير
 الصغير وعينه الضيقتين القاسيتين وهو يداعب لحيته ، ثم سأل :
 - من أى البلاد ؟

- افعل بطريقتي ما أعتقد أنه الخير ..
 - بل كان رد فعل لما الحقه بك من اهانة ..
 فقال بحرارة :
 - ما فعلت الا أن قدمته وكان دوره سيأتي عاجلا أو آجلا ..
 فقال سنجام :
 - حسابك عند المطلع على ما في الصدور ، فحذار يا رجل ..
 وتلاشى سنجام فلم يغمض له جفن ..

- ١٦ -

فوق قبة جامع الامام العاشر ، في جلسة مفعمة بالهدوء ،
 مترعة ببرد الشتاء ، متلفعة برداء الليل ، جلس قمقام وسنجام
 .. تحتها تدفقت قوات الشرطة مكشرة عن انيابها ، يتطاير الشرر
 من اعينها الثملة بالحمرة القانية .. همس قمقام في أسي :
 - يا لعذاب البشر !
 فقال سنجام كالمعتذر :
 - ما فعلت الا أن انتقدت روح جمصة البلطى من الجحيم ..
 - ما تدخلنا مرة في حياتهم وانتهى الامر بما نود ..
 - والاغضاء عنهم فوق ما نحتمل ..
 ومرت تحتهم في تلك اللحظة المعلم سحلول تاجر المزايدات والتحف
 فأشار اليه قمقام قائلا :
 - انى أغبطه على معاشرته لهم كأنه آدمى مثلم !

فأجاب عبد الله بخشوع :
 - الحبشة ..
 - قيل لى ان سمعتك طيبة وانه لا تفوتك فريضة !
 فتلقى اول نسمة راحة وقال :
 - بفضل الله ورحمته ..
 فقال بهدوء :
 - لذلك وقع اختيارى عليك ..
 تفشى المعنى المقصود فى رأسه كما تتفشى رائحة قوية فى مكان مغلق .. فكم من مرة - وهو كبير الشرطة - وجه مثل هذا القول لى رجلا ايدانا بنظمه فى سلك عيونة السرية .. هو يعلم ان التملص من التكليف خليف بالقضاء عليه وانه لا مفر من الطاعة ..
 وقال الرجل :
 - بذلك تحوز الشرف فى خدمة السلطان والدين ..
 تظاهر بالارتياح والسعادة والزهو .. اعطاه الامارات التى يطمئن بها .. على ذاك قال له محذرا :
 - احذر ما يردى الخائن فى الهلاك ..
 فتمتم بغموض :
 - تسرنى الخدمة فى رحاب الله ..
 فقال عدنان شومة :
 - الدور مفتوحة لك بحكم عمالك ولا ينقصك الا بعض الارشادات ..
 هى الارشادات المدونة فى دفاتر سرية منذ عهد جمصة البلطى ..

لكن عبد الله غرق فى همه فسأله :
 - ألا تعتبر ذلك كسبا لنا ؟
 فقال عبد الله بوجوم :
 - انى مطالب بما يدل على اخلاصى فى العمل !
 فلاذ فاضل بالصمت متفكرا فمضى عبد الله :
 - اتساءل احيانا هل دعانى الرجل لشكه فى امرى ؟
 فبادره فاضل :
 - انهم اصحاب عنف فلا حاجة بهم الى الحيلة ..
 - اوافقك ، ولكن كيف اثبت اخلاصى ؟
 فرجع فاضل للتفكير فى الامر ثم قال :
 - تقضى المصلحة احيانا ارسال اناس منا الى بلاد بعيدة ،
 سئادك على احدهم لتبلغ عنه بحيث يفلت فى الوقت المناسب « مصادفة » !
 فقال عبد الله وعيناه تبرقان بالفكر :
 - حل موفق ولكن لا يجوز تكراره !
 فقال فاضل مخاطبا نفسه :
 - حقا انها ورطة !

- ها أنت تشاركني الراى أخيرا ..
وسال نفسه هل يستطيع الاستمرار فى تنفيذ مشروعه
السرى؟! وتشعث تفكيره فجأة عندما راى المعلم سخلول يعبر
الطريق امامهم مسرعا لا يلوى على شىء .. انقبض صدره كالعادة
ولكن فاضل بكوعه متساغلا :

- ماذا تعرف عن هذا الرجل ؟

فقال فاضل بنبرة طبيعية :

- سخلول تاجر المزايدات والتحف ، كان من اصدقاء أبى ،
ولعله التاجر الوحيد الذى يملك صحيفة بيضاء ..

- ماذا تعرف عنه ايضا ؟

- لا شىء ..

- الا يشير فضولك غموضه ؟

- غموضه؟! ، ما هى الا البساطة الصريحة ، رجل نشيط
خبير ، ولا شأن له بالآخرين ، ما الذى يدعو لك للتساؤل ؟

فتردد قليلا ثم قال :

- له نظرة نافذة لم أرتح اليها ..

- لا أساس لظنونك تقوم عليه ، انه استثناء طاهر لقاعدة

فاسدة ..

تمنى أن يصدق رايه وأن تكذب ظنونه ..

- ١٩ -

أيقن من خبرته السابقة بأنه سيوضع تحت المراقبة أسبوة
بالمخبرين الجدد .. هيهات أن يجد فرصة ليقوم بمغامرة جديدة
الا اذا ازاح عدنان شومة نفسه من طريقه بضربة موفقة .. وتسلل
الى داره فى لقاء سرى وقال له :

- عما قليل ستسقط ثمار كثيرة ، الحى ملء بالكفرة ولكنى

أرى أن اتجنب التردد عليكم ..

فقال عدنان شومة بسرور :

- ساعين لك وسيطا ..

- هذا يكفى فى الشئون العادية اما الشئون الخطيرة فافضل

أن يقتصر الاتصال عليك ..

- نتفق على ذلك فيما بعد ..

فقال عبد الله بحماس :

- خير البر عاجله ..

فقال عدنان شومة بعد تفكير :

- أنى أتواجد أحيانا ليلا خارج سور الحى ، اظنه مكانا

مناسبا ..

وفاق تدبيره ما كان يأمل ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

- ٢٠ -

وبمعاونة فاضل صنعان قدم تقريراً عن شاب اعزب يقيم منفرداً بحجرة في ريع بعطفة الدباغين .. ولما انتقضت القوة على مسكنه تبين لها أنه غادره لسفر منذ دقائق ! .. وغضب عدنان شومة وقال لعبد الله :

- أثرت رهيته بدون أن تدري !
فوكد له أنه ادهى مما يتصور ولكن الآخر صرفه غير راض عنه ..

- ٢١ -

وزلزلت دار الامارة ، والحى والمدينة ، للعشور على جثة عدنان شومة خارج سور الحى .. ماج شهريار نفسه بالقصب ، وتخائلت لاعين الكبراء مخاوف مجهولة تزحف من مكانها في الظلام .. ونما الى عبد الله من وسطه السرى الرسمى أن البحث يتركز في كشف الاسباب التى دعت كبير الشرطة للخروج سرا من سور الحى .. وكان هو اول من اتيح له الاطلاع على سر ضحيته الذى كان يقصد دارا خاصة يلتقى فيها بجلنار وزهريار شقيقتى يوسف الطاهر حاكم الحى .. الحق انه عرف سيرة المراتين منذ عهد خدمته ، ومن قبل أن يتولى يوسف الطاهر الامارة .. لذلك دعاه كبير الشرطة الى مقابلته في جوسق بحديقة الدار ثم صرفه ولكنه لم يرجع الى

الحى بل لبى له في الظلام حتى غادر الدار قبيل الفجر فنلقاه بالسهم القاتل .. الآن يتلاشى شعوره بالامان ولا يستبعد أن يكون بعض خاصة عدنان شومة من النساء أو الرجال قد عرف سر المقاتلة بينه وبين الرجل .. قرر الهرب ولو الى حين .. غادر الحى كله الى ما وراء اللحاء عند النهر على كنب من اللسان الأخضر حيث اعتاد ممارسة هواية الصيد ، نفس البقعة التى التحم فيها بسنجم .. وجد نخلة فارعة فارتمى تحتها وأغرق في التفكير .. وأقبل الليل وتجلت النجوم متواضعة واشتد البرد .. ترى هل احسن التدبير والتفكير أو أن لهفته على تنفيذ مشروعه قد أفسدت عليه هدفه ؟ ! .. ومتى وكيف يتاح له العمل مرة أخرى ؟ .. كيف يتجنب أعداءه وكيف يتصل بصاحبه فاضل صنعان ؟ .. وفى سكون الليل ترمى اليه صوت يقول :

- يا عبد الله !

فظر صوب مصدر الصوت ، صوب النهر ، وتساءل :

- من ينادى ؟

فقال الصوت بنبرة تبت الامان والطمأنينة والسلام :

- اقترب ..

دنا من النهر يستبد فى حذر حتى رأى صفحته معتمة تحت ضوء النجوم ، ورأى شبحاً نصفه فى الماء ونصفه مستند بساعديه فوق الشاطئ .. سألته :

- أنت فى حاجة الى مساعدة ؟

- أنت المحتاج الى المساعدة يا عبد الله ..

فسأله بقلق :

- من أنت وماذا تعرف عني ؟

- أنا عبد الله البحرى كما أنك عبد الله البرى ، وقبضة الشر
توتر للقبض على عنقك ..
- سيدى ماذا يقيقك فى الماء ؟ .. من أى الأحياء أنت ؟
- ما أنا الا عابد فى مملكة الماء اللاتهائية ..
- تعنى أنها مملكة تحيا تحت الماء ؟
- نعم ، تحقق بهما الكمال وتلاشت المتناقضات ، ولا ينقص
صفوها الا تعاسة أهل البر ..
فقال عبد الله منبهاً :

- عجب ما أسمع ولكن قدرة الله لا حد لها ..
- كذلك رحمته فاخلع ثيابك واغطس فى الماء ..
- لماذا يا سيدى ؟ .. لماذا تطالبنى بذلك فى الليل البارد ؟
- افعل كما أقول قبل أن تطوق عنقك القبضة القاتلة ..
وسرعان ما غاص عبد الله البحرى فى الماء تاركة لاختياره ..
وبدأ فع من الهام ثمل خلع ملابسه وغاص فى ماء النهر حتى اختفى
تماماً .. واذا بالصوت يقول له :
- عد الى البر آمناً ..

وما كاد يشعر بالأرض تحت قدميه حتى استقر قلبه بين ضلوعه
وشعر بأنه جارحة من جوارح السماء والأرض والليل ، وشعر ايضا
بالدفء .. عند ذاك غلبه النوم فنام نوما عميقا هادئا وكأنما
النجوم لا تومض الا لترعاه .. وصحا قبل انبلاج الصبح .. ونظر
فى مرآته على ضوء أول شعاع يهبط فرأى وجها جديدا لم يعرفه من
قبل فهتف :

- مباركة العجائب ان تكن من صنع الله ..

لا هو وجه جمصة البلطى ولا وجه عبد الله .. وجه قمحى صافى

البشرة .. ولحية مسترسلة سوداء ، وشعر غزير مفروق ينسدل
حتى المنكبين ، ونظرة عينين تومض بلفة النجوم .. أدرك الموت
عبد الله كما أدرك جمصة البلطى من قبل .. وغاب فاضل واكرمان ،
ورسمية وحسنية ، وأم السعد .. ولكن ثمة أصواتا جديدة
تنجسد ، ومغامرات جديدة تقبل مع الشروق ، ودنيا جديدة تنكشف
عن عجائب مباركة ..

- ٢٢ -

طابت له الحياة فى الخلاء على مقربة من اللسان الأخضر الممتد
فى النهر .. النخلة جليسه ، وصيد النهر غذاؤه ، والهواء النقى
أليفه ، ورواد اللسان الأخضر من أهل الصبوات والطرب مثار
نغمته ومرتاد عفوه ، أما راحة قلبه ففى مناجاة عبد الله البحرى ..
ويجىء عابرو النهر بأنباء المدينة .. علم فيما علم أن الحاكم
يوسف الطاهر اختار حسام الفقى كاتما لسره ويومى الأرملة كبيرا
لمشرطته .. علم أيضا أن قوات الأمن تجتاح الحي كاعصار وأنهم
يبحثون عن عبد الله الحمال وأنهم القوا القبض على معارفه فسيق
الى السجن رجب الحمال وفاضل صنعان وزوجته اكرمان .. هكذا
سرعان ما فنى آمنه وجزع قلبه فتوثب من جديد للنضال ..

- ٥ -

لم يذهب ليقتل ولكن ليقدم نفسه فدية عمن يحب .. لم يستشعر رهبة ولا خوفا ، وسما به الالهام فوق الوسوس .. قصد من توه بيومي الأرمل في دار الشرطة ، وقال بهدوء ورزاة :
- جئت لأعترف بين يديك بأني قاتل عدنان شومة !
فانتبه اليه كبير الشرطة متفحصا وسأله :
- من أنت ؟

- عبد الله البري صياد سمك ..
من منظره شك كبير الشرطة في جنونه فأمر بتكبيله بالحديد
اتقاء لخطره ثم سأله :

- ولم تقتل عدنان شومة ؟
فأجاب ببساطة :

- انني مكلف بقتل الأشرار ..
- من الذي كلفك بذلك ؟

- سنجام ، ذلك العفريت المؤمن ، وبوحيه قتلت خليل الهمداني
وبطيشة مرجان وابراهيم العطار ..
فجاراه الرجل قائلا :

- سبق أن اعترف بقتل الهمداني كبير الشرطة الأسبق جمصة
البطل ..

فهتف الرجل :

- في الأصل كنت جمصة البطل !

- رأسه معلق بباب داره !

- وقد رأيته بعيني رأسي !

- وتصر على أنك صاحب الرأس .. ؟

- لا ريب في ذلك وسوف تصدقني عندما تسمع حكايتي ..

- لكن كيف ومتى ركب هذا الرأس الجديد ؟

- دعني أطلب سنجام شاهدا ..

فصاح الرجل :

- أنك جدير بالاقامة الدائمة في دار المجانين ..

وأمر بإرساله من توه الى دار المجانين فمضوا به وهو يصرخ :

- الى يا سنجام .. الى يا عبد الله البحري ..

- ● -

وقد عذب فاضل في السجن طويلا ، ثم لم يجد الحاكم بدا من
الافراج عنه ومن معه ، أمرا في الوقت نفسه بمضاعفة الجهد للعثور
على عبد الله الحمال ..

- ● -

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

نور الدين ودنيا زاد

— ١ —

غمر نور الدين أشجار البلخ بميدان الرماية فالتفعت أزهارها
البنزهيرية الناعمة ٠٠ وغمر نور القمر أيضا قمقام وسنجام
المستقلين فوق غصن من أغصان الشجرة الكبرى فى ليلة مازجت
فيها أنفاس الشتاء المودع أنفاس الربيع المتحفز ٠٠ قال قمقام :

— ما أطيب الزمن إذا جرى تحت رضا العناية ! ٠٠

فقال سنجام :

— إذا استقرت السكينة سمعت همسات الأزهار وهى تسبح

بحمد الله ٠٠

— ماذا ينقص الانسان ليحظى بتعمة الزمان والمكان ؟

— هذا ما يحيرنى يا أخى ، ألم يوهب العقل والروح ؟

وأرهف قمقام أذنيه فى حذر ثم تساءل :

— ثمة نذير فى الجو ؟

عند ذلك خط فوق غصن قريب عفريت وعفريتة ثملين بالمجون

فهمس سنجام :

— سخربوط وزرمباجة !

فهمس قمقام :

— الكفر والشر ٠٠

وضحك سخربوط ساخرا وقال معلقا :

— نحن نستمتع بالكون بلا خوف ٠٠

فصاح به قمقام :

— لا سرور لمن خلا من الله قلبه ٠٠

فتساءلت زرمباجة ساخرة

— حقا ؟

وتبادلت مع رفيقها الغرام فتطاير من عناقهما الشر ٠٠
اختفى قمقام وسنجام فند عن حنجرتى سخربوط وزرمباجة هتاف
انتصار وقال لها :

— غبت عنى دهرًا ٠٠

فقال ضاحكة :

— لعبت لعبة فى معبد بالهند ، وأين كنت أنت ؟

— قمت برحلة فوق الجبال ٠٠

فقال زرمباجة باغراء :

— رأيت لدى عودتى فتاة جميلة بهرنى جمالها والحق يقال ٠٠

— أنا أيضا رأيت شابا جميلا فى حى العطور لا نظير لجماله

بين البشر ٠٠

— ان نظرة على فتاتى ستمحو من ذاكرتك صورة فتاك ٠٠

— هذه مغالاة لامسوخ لها ٠٠

— تعال وانظر بعينيك ٠٠

— أين توجد فتاتك ؟

— فى قصر السلطان نفسه ٠٠

وفى غمضة عين كانا فى جناح البهاء بقصر السلطان ٠٠
ترأعت فتاة آية فى الجمال وكانت تنزع عباؤها المطرزة بأسلاك من
ذهب لترتدى حلة نولها المصنوعة من الحرير الدمشقى ٠٠ قالت
زرمباجة :

— دنيا زاد أخت شهرزاد زوجة السلطان ..
— جمالها يفوق الحياة حقا ، لم يخطئ بهذا الجمال كائن سريع
إلعب ؟

— صدقت فهو ما يتألق الا أياما معدودات ثم يعبث به الزمن ..
— لذلك تلذ الشماتة بهم ..
— لهم عقل ولكنهم يحيون حياة الأغبياء ..
— لشد ما تبدو خالدة !

— لعلك الآن تسلم أنها أجمل من فتاك ؟
فقال سخر بوط بعد تردد :

— لا أدري .. تعالى لتنظري بنفسك ..

في أقل من لحظة كانا في دكان شاب آية في الحسن كان
يفلق الدكان ويطفئ السراج ويهم بالذهاب .. قال سخر بوط :

— هذا نور الدين بياع العطور ..

— جماله فائق أيضا ، من هو صاحبك ؟

— بياع كما ترين ، وما يهمننا أصله ..

— هو اليق الذكور بفتاتي وهى اليق الاناث به ..

— يعيشان فى مدينة واحدة ويقصّل بينهما ما يفصل بين
السماء والأرض ..

— هذا هو العبث فكيف نتهم نحن بأننا العابثون !

— كيف لا يتنافس الخطاب فى فتاك ؟

— مهلا ، يتمناها الكثيرون ، منهم يوسف الطاهر حاكم الحى ،
ومنهم كرم الاصيل صاحب الملايين ، ولكن من الكفاء لأخت
السلطانة ؟

— زرمباجة هذا الكون مثقل بالحمافة ..

وهتفت زرمباجة بسرور :

— جاءتنى فكرة ..

— ما هى ؟

— فكرة جديرة بابليس نفسه ..

— أشعلت أشواقى !

— نجعل بينهما فى دعابة مأكرة ..

— ٢ —

انبهرت عينا دنيا زاد السوداوان .. انه حفل زفاف سلطاني
سيكون أحد اعاجيب الترف والابهة .. القصر يموج بأضواء
الشموع والقناديل ، يتلأأ بجواهر المدعويين والمدعوات ، يهزج
بأغاني المطربين والمطربات .. حتى السلطان شهريار باركها ،
أهداها جوهرة الدخلة ، قال لها :

— مباركة ليلتك يا دنيا زاد ..

وانتظرت فى المخدع آخر الليل فى ثوب محلى بالذهب والمرجان
والزهر .. ودعتها أمها وأختها شهرزاد ، فانتظرت وحيدة فى
المخدع ، وشرذ ذهنها لا يشغلها الا ترقبها القلق وقلبها الخفاق ..
انفتح الباب .. دخل نور الدين فى أبهى حلة دمشقية وعمامة عراقية
ومركوب مغربى .. تقدم منها كالبدور فى تمامه وجلا القناع عن
وجهها .. ركع على ركبتيه .. ضم ساقها الى صدره .. تنهد قائلا :

— ليلة العمر يا حبيبتي ..

ومضى ينزع ملابسها قطعة قطعة فى صمت المخدع الملىء
بالألحان الباطنية ..

— • —

فتحت دنيا زاد عينها وقد نضحت الستارة بالضياء .. وجدت
نفسها مغموسة في ذكريات النبع المبارك .. شفتاها نديتان بالقبل ،
أنهاا ثملتان بأعذب الكلمات ، خيالها مقعم بحرارة القنهدات ..
العناق لم يبرح جسدها ولا الحنان .. هذه هي الصباحية ..
ولكن ؟ سرعان ما هبت عليها رياح الوعى الصارمة .. أين
العريس ؟ .. ما اسمه ؟ .. متى تمت مقدمات الزفاف ؟ .. رياه ..
لم تخطب ولم تزف ولم يجر فى القصر حفل .. انها تنتزع من الحلم
كمن يساق الى النطع .. أكان حلما حقا ؟ .. ولكن العهد بالأحلام
أن تتلاشى لا أن ترسخ وتتجسد حتى لقلنس وتشم .. ما زالت ترى
العريس رؤية العين وتستشعر مسه وحنانه .. ما زالت الججرة
معبقة بأنفاسه .. وثبت الى الأرض فاكتشفت عريها ، اكتشفت جنبها
المسفوح .. انقضت عليها رعدة نافذة مرعبة .. هتفت فى ياس :

- انه الجنون ..

ونظرت فيما حولها بذهول وهتفت مرة أخرى :
- انه الهلاك ..
ولاح لها الجنون كوحش يطاردها ..

أما صحوة نور الدين فكانت غاضبة ثائرة عندما رأى حجرة
نومه البسيطة بمسكنه القائم فوق دكانه بحى العطور .. أكان
حلما ؟ .. لكنه حالم عجيب له قوة الحقيقة وثقلها .. ها هي
العروس بجمالها حقيقة لا يمكن أن تنسى أو تمحى من القلب ..
ومتى وكيف تجرد من ملابسه ؟ .. ما زال يشم الشذا الطيب الذى
لا نظير له بين عطوره .. ما زال يرى المخدع الفاخر بسنتائره
ودواوينه وسريره العجيب ..

- ما معنى العبت مع مؤمن صادق مثلى ؟
ولم تعذبه الحقيقة وحدها ولكن أيضا عذبه الحب ..

قهقهت زرمباجة وسألت سخربوط :
- ما رأيك فى هذا العشق المستحيل ؟
- مداعبة فريدة حقا ..
- لا عهد للبشر بمثلها ..
فقال سخربوط مترددا :
- ليس دائما ، انهم مولعون بخلق الأوهام ..
- ولكن كيف ؟
- ما أكثر الذين يتوهمون فى أنفسهم الذكاء ، أو الشعر ..
أو الشجاعة ..

فقال مسترسلة فى الضحك :

يا لهم من حمقى !

فقال بحقد :

انى اعجب لماذا فضلوا علينا ؟

- ٦ -

سلمت دنيا زاد بأن سرها أثقل من أن تحمله وحدها .. هرعت الى جناح شهرزاد عقب ذهاب شهريار الى مجلس الحكم .. وما ان رأتها شهرزاد حتى قالت بقلق :

ماذا بك يا أختى ؟

فجلست على وسادة عند قدمى السلطانة ورفعت اليها عينين مستغيثتين وقالت وهى تنسج فى البكاء :

لتيه كان مرضا أو موتا ..

أعوذ بالله ، افترقنا أمس على خير حال ..

ثم وقع ما لا يقع فى دنيا العقلاء ..

حدثينى فقد بددت طمأنينة نفسى ..

فأسدلت عينيها ثم قصت عليها قصتها التى بدأت بزفاف وهمى وانتهت بدم حقيقى .. تابعها شهرزاد بقلق ورنية ثم قالت برجاء :

لا تخفى شيئا عن أختك ..

أحلف لك برب الكون أنى ما أضفت الى قصتى حرفا

ولا نقصت منها ..

فتساءلت شهرزاد :

أىكون وغدا من رجال القصر ؟

كلا .. كلا .. ما وقعت عليه عيناي من قبل ..

أى عقل يقبل قصتك ؟

هذا ما أحدث به نفسى ، انها قصة شبيهة بقصصك العجيبة ..

قصصى مستوحاة من عالم آخر يا دنيا زاد ..

فقال متنهدة :

لقد وقعت أسيرة صدق عالمك الخفى ولكنى لا أريد أن أكون

ضحيته ..

فقال شهرزاد بأسى :

سأعرف الحقيقة عاجلا أو آجلا ولكنى أخشى أن تدهمنا

الفضيحة قبل ذلك !

هو ما يقتلنى خوفا وغما ..

ان عرف السلطان حكايتك استيقظت من جديد شكوكه وارتد

الى سوء ظنه بجنسنا ، وربما أرسل بى الى الجلاذ ورجع الى

سيرته الاولى ..

فهتفت دنيا زاد :

معاذ الله أن يصيبك سوء من ورائى ..

وتفكرت شهرزاد مليا ثم قالت :

فلنحفظ قصتك سرا ، ولن يدري به السلطان ولا أبى ، سأدبر

ما ينبغي فعله مع أمى ، ولكن يجب أن تعودى الى دارنا بحجة

الحنين الى أهلك ..

فتمتعت دنيا زاد :

ما أتعس حظى ..

- ٥ -

- ربنا قادر على كل شيء ، ستبقى كل شيء قبل مرور ساعة .
فتنهد قائلاً :
- نعم ..

وكان يعلم أنه يكذب ، وأنه لن ينسى ، وأن قلبه يخفق بحب حقيقي ، وأن محبوبه كائن متجسد لا ينسى ولا يمحو أثره من الوجدان ..

- / -

فتح نور الدين دكانه وطالع الناس بوجه جديد .. عرف طيلة عمره اليافع بجماله الصافي وبحضور البديهة في المعاملة ولكنّه بدا ذلك الصباح الربيعي شارد اللب حائر الطرف .. يتساءل الذين يستبشرون بطلعته عما غيره واستأثر بخياله .. ويتساءل هو طيلة الوقت عن حلمه العجيب الذي فاق الحقيقة في الوجود والدسامة والآثر .. وقد بلغ العشرين دون أن يتزوج لرغبة قديمة في الزواج من حسنية أخت صديقه فاضل صنعان .. تردد قديماً بين رزقه المصدود وثراء أبيها الواسع ، وتردد بعد ذلك لمعارضة أمه في الزواج من ابنة رجل خالط العفريت حياتهم .. قالت العجوز :
- ابعد عن الشر فلا ندري عن هذه الأسرار شيئاً ..

وأبقى على مودته لفاضل ، تاركاً حسنية للزمن ، ولكن أين حسنية الآن ؟ بل أين الدنيا وما فيها ؟ لا وجود إلا لتلك الصورة الباهرة والمخدع الوثير والسرير الذي يفوق في حجمه غرفة نومها كلها .. لقد رأى رؤيا حقيقية ، ومارس حبا حقيقيا ، وها هو يحب حبا يتضاءل بالقياس إليه أي حب حقيقي .. ها هو يعاني فترور الحياة ووحشتها وكآبتها وحزنها الأبدى في البعد عنها .. أما شذاها

- ٧ -

دعا نور الدين أمه كليله الدمع فجاءت عجوز متحركة الشفتين بقلادة غير مسموعة ، يحمل وجهها النحيل آثار جمال قديم .. أجلسها الى جانبه على كنبه خراسانية وسألها :
- هل زارنا غريب وأنا نائم ؟
فقالت بدهشة :

- ما طرقتنا طارق ..
- ألم يصدر عن حجرتي صوت ؟
- أبدا ، انى أنام ولا تنام حواسي ، وأخفت الأصوات يوقظني ، لماذا تطرح أسئلة غريبة ؟
فقال بعد تردد وحياء :
- لعله حلم ، ولكنه ليس كالأحلام ..
- ماذا رأيت يا بني ؟
- رأيتني في حضرة فتاة جميلة !
فابتسمت كليله وقالت :
- انها دعوة من الغيب للزواج
فقال بحدة :

- كانت حقيقة ملموسة ومشموعة لا أدري كيف أشك فيها ..
ولكنى لا أستطيع تصديقها أيضا ..
فقال العجوز ببساطة :
- لا تشغل بالك وتزوج ..
- هل سمعت من قبل عن حقيقة تتلاشى في حلم ؟

فيعقب به أنفه وأما مناجاتها فتردد مع أنفاسه .. وتذكر صباح
الذي أنفق في كنف الشيخ اللخى يتعلم القراءة والكتابة ومبادئ
الدين .. عندما أخذ من ذلك كفايته وهم بتوديع الشيخ قال له
الرجل :

- ما أجدرك بالعشق !

فهم أنه يدعو إلى الاستمرار معه فقال له :

- والدي مريض وعلى أن أحل محله في الدكان ..

فقال الشيخ :

- ما أقبل في صحبتي عاطلا ..

فقال كالمعتذر :

- حسبى العبادة والتقوى ..

وما أخلف الظن في ذلك وما حاد عن الصراط ، وما هو يتذكر
بتلقائية قول الشيخ « ما أجدرك بالعشق » ترى هل يجدر به أن
يزور الشيخ مستنصحا ؟ .. ولكنه خاف ، وسلم بأن سره جدير بأن
يطوى في الصدر .. راح يتابع تيار النساء المحجبات .. هل
يمكن أن تكون حبيبته أحدهن ؟ .. انها موجودة على أى حال
ما يداخله شك في ذلك .. موجودة في مكان ما وفي هذا الزمان
دون غيره .. لعل أشواقنا تهيم في جنون مجدة وراء التلاقي ..
لعل الذي صنع معجزة الحلم يعد بمعجزة أخرى تأويله وتحقيقه ..
لا يمكن أن يتلاشى حلم كهذا كأن لم يكن .. لا يمكن أن تشتعل
أشواق بهذه القوة دون ما سبب أو غاية .. لا بد أن يصل العاشق
.. بالعقل أو الجنون لا بد أن يصل .. ولكن ما أضيع الباحث
بلا دليل ..

- ٩ -

سعد الوزير دندان برجوع دنيا زاد الى داره الرجبية ، أما الأم
فعمانت وحدها - بعد دنيا زاد - معاشره السر الاليم .. قالت
لابنتها بحزن وغضب :

- زلت قدمك يا دنيا زاد ..

فقال دنيا زاد باكية :

- انى مسلمة أمرى لرب العالمين ..

- لن تكون العاقبة خيرا ..

فكررت باستسلام :

- انى مسلمة أمرى لرب العالمين ..

وعندما لاحت الامارات كالنذير أقدمت المرأة على اجهاض

بنتها مستغفرة ربها .. وقالت بأبى :

- نحن نؤجل البلاء ولكن ما العمل اذا جاء عريس ؟

فهتفت دنيا زاد :

- لا رغبة لى في الزواج ..

- وماذا نقول لأبيك اذا وجده كفتا ؟

فرددت دنيا زاد :

- انى مسلمة أمرى لرب العالمين ..

واذا خلت الى نفسها تناست الأخطار المحقة بها فلم تذكر

الا حبيبها الغائب .. عند ذاك تستهين بالموت ، ولا تأبه للعار ،

وتتسائل بوجد وعذاب : أين أنت يا حبيبي ؟ ، كيف وصلت الى ؟ ،

ما شرك ؟ ماذا يبعدك عنى ؟ ، ألم يأسرك جمالى كما أسرنى

جمالك ؟ ، ألم تلفحك النار المشتعلة في روحى ؟ ، الا ترق لعذابي ؟

الا تفتقد حبي وأشواقى ؟

وعرض من الأحداث عارض ، اهتزت له القلوب .. ففقد مضى
المنادى على بغلثة ينادى رعية السلطان ، مذيغاً نبأ هجوم ملك الروم
على أحد الثغور ، ونهوض الجيش للجهاد ودفع الغزاة .. جاشت
الصدور بالقلق ، واكتظت المساجد بالمصلين ، وارتفع الدعاء
للسلطان شهريار بالتصبر .. وفي المساء هرع الناس الى مقهى
الأمراء فامتلاً برواده من السادة والعامة .. وجمعت أريكة واحدة
بين حسن العطار بن إبراهيم العطار وفاضل صنعان ونور الدين -
.. لم يكن للقوم من حديث الا الحرب .. وسمع الطبيب عبد القادر
المهيني وهو يقول :

- انكم لم تشهدوا غزوا للعدو ، ما هو الا عاصفة من الهلاك
تجتاح المدن وأهلها ..

فقال جليل البزاز :

- جيش الله لا يغلب ..

فقال معروف الاسكافي :

- الله حكمته أيضاً ..

فقال رجب الحمال :

- قد تقع سفينة السندباد في الأسر !

فقال له علاء الدين بن عجر الحلاق :

- لا تفكر الا في ذاتك وصاحبك !

عند ذاك قال عجر الحلاق :

- رايت حلماً عجيباً !

ولكن أحدا لم يسأله عن حلمه لسوء ظنهم بصدقه ولعلمهم
بلهفته على اقحام نفسه في شئون الآخرين ..

وارتعد نور الدين لذكر الحلم وقال لصاحبيه حسن وفاضل :

- ليس أعجب من الحلم في حياة البشر ..

فسمع صوتاً يقول معلقاً على قوله :

- صدق ما قلت يا بنى ..

فالتفت إلى الأريكة المجاورة فرأى سحلول تاجر المزايدات
والتحف يرمقه باسمها فقال له :

- إنك حكيم ومجرب يا سيدي ..

فقال سحلول :

- من ملك الحلم ملك الغد !

مال إلى مناقشته بكل قلبه ولكن فاضل - مستذكراً ما سبق أن
ردده صديقه الغائب عبد الله الحمال - لكزه بكوعه خفية وهمس
في أذنه :

- دعك منه ..

فتساءل نور الدين :

- ولكنه ذو تجربة ؟

فهمس فاضل صنعان :

- انه غامض أيضاً كالحلم ..

وسمع الطبيب عبد القادر المهيني وهو يقول :

- في تقديري أن جيش السلطان سينتصر ولكن البومة ستنعق
في بيت المال ..



المصائر ولكنه عاجز عن تغيير صورته أو حجمه .. لذلك كثيرا ما تبدو له الدنيا كتيبة مثل وجهه .. تدفعه المعاملة لغشيان الناس ولكنه يحب الوحدة والليل .. لا يحب الغناء ويضيق بالسممر ويعشق المال ويعبد القوة .. لم يهنأ بقبوله نديما للسلطان ، يؤدي الزكاة ولا يمارس الصدقة ، يعنى بلحيته ويعجب بها ، فهو أجمل ما فيه بثرائها وتماديها ، أنجب من البنات عشرين ولم ينعم عليه بذكر واحد ، هو صاحب الملايين ، وأغنى رجال الحى بل أغنى رجال المدينة ..

وهو أيضا عاشق .. ولعل ذلك ما جعل نور الدين يتابع شبحة بقلب مبهم وتأثر عميق ..

التي عليه العشق عندما سقط النقاب عن وجه دنيا زاد فوق الهودج فى حفل عاشوراء .. خفق قلبه الغارق فى هموم الأعمال كما يبرق برق فى سحب مكفهر .. ومال نحو بيومى الأرملة كبير الشرطة ، وهو من عبيد جوده :

— من الجارية ؟

فأجابه باسمها :

— دنيا زاد أخت السلطانة !

انقبض صدره وأيقن أنها لا تشتري بالمال ..

هكذا يمضى فى الليل فى رفقة من ذكريات غير سارة .. ولما لمح نور الدين تجاهله .. أنه يحسده لجماله ويحتج غاضبا على حسده لشخص من البشر .. ومر بدار سحلول تاجر المزايدات

وجعل نور الدين يتنهد فى أسى متسائلا أما لهذا الشوق من نهاية .. كلت عيناه من النظر وأرهق القلب .. وراح يتجول فى الطرقات ، حينا فى النهار ، وحينا فى الليل ، منجذبا بصنة خاصة إلى مواقع النساء فى أسواقهن الأثيرة .. وأكثر من مرة يمر أمام دار الوزير دندان فى الوقت الذى تقف فيه دنيا زاد وراء المشربية مستطلعة ولكنه لا يراها ولا تراه .. وتتجلى له التجربة الفريدة خارقة من الخوارق مستقرة فى عزلة بعيدا عن مجال الأمل أو تهامسه مرات كحقيقة مذهلة ستكشف له النقاب عن وجهها ، وقتما تشاء رحمة الله .. ومرة أخرى رأى فى آخر الليل شبحة مقبلا .. تكشف له عندما ألقى عليه ضوء فانوس معلق بأعلى باب دار عن وجه قزم .. أنه كرم الأصيل صاحب الملايين فماذا أخرجه من داره الرائعة فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ ، ماذا يؤرقه وعم يبحث ؟ .. ترى لو وقع أسير حلم مثله فهل كان يغنى عنه ماله فى العثور على أسرته ؟! .. وانقبض قلبه لرآه لغير سبب واضح ..

كرم الأصيل يحب المشى فى الليل فى الطرقات الخالية .. أنه صديق الأماكن فما يخلو مكان منها من عمارة أو بيت أو وكالة يملكها .. وله فى داره الرحيبة زوجة وعشرات من الجوارى ولكنه لا يملك القلوب كما يملك البشر والأشياء .. بقدرته أن يغير

والتحف .. قال لنفسه « سيمسى ذلك الرجل منافسا لى فى الثراء »
وكان يعتبره من القلة النادرة التى تلزم الآخرين باحترامها فكرهه
أكثر مما يكره الآخرين .. واتجه نحو داره وهو يقول :
— كرم الأصيل ، عبد الله البلخى ، منذاً يقرأ لنا الغيب ؟ ، كان
يجب أن تكون ثروتى من السرور أضعاف أضعاف ما أحرزه ! .

- ١٤ -

قال له البواب :
— مولاي ، حسام الفتى كاتم السر ينتظر عودتكم فى البهو ..
ماذا جاء به فى هذه الساعة المتأخرة ؟ .. مضى إليه من فوره
.. تعانقا .. قال كاتم السر :
— سيدى يوسف الطاهر حاكم الحى ينتظرك الآن فى داره ..
— أى أمر عاجل وراءك ؟
— لا أدرى إلا أنه أمر هام ..
ذهبا مسرعين .. وانفرد به يوسف الطاهر وهو يقول مداعبا :
— على قدر أهل العزم ..
فتفحصه كرم الأصيل باهتمام فواصل الرجل :
— انتصر جيشنا ، أنت أول رجل تزف إليه البشرى ..
فتمتم فى حيرة :
— منة من رب العالمين ..
فحدجه الحاكم بنظرة طويلة ثم قال :
— بيت المال تكلف فوق طاقته ..

انقبض صدره وأدرك كل شىء ، فقال يوسف الطاهر :
— السلطان فى حاجة إلى قرص يسدد عقب جمع الخراج ..
فتساءل فيما يشبه الدعابة :
— وما شأنى أنا وذاك ؟
فضحك يوسف الطاهر وقال :
— اختصك السلطان بذلك الشرف ..
فتساءل دون ابتهاج :
— كم ؟
— خمسة ملايين من الدنانير !
لا مفر ولا اختيار ، ولكن التمتع فكرة فى رأسه الخبير فى
المساومة .. قال :
— فرصة للقرب من السلطان والطموع إلى ثواب الرحمن ..
— أحسنت ..
فقال بهدوء :
— ولكن ثمة رجاء لم أكن أدري كيف أفصح عنه ..
فصمت يوسف الطاهر بأسها فقال كرم الأصيل :
— يد دنيا زاد ، أملى الأخير فى شرف القرب ..
دهش يوسف الطاهر ولكنه لم يبد دهشة .. تذكر كم تمثلى
دنيا زاد لنفسه .. حقق على محدثه فوق ما تصور .. لكنه قال
بهدوء :
— سيرفع الرجاء كما تشاء !



— وتغ الحذور !

هكذا رددت الأم وهي في غاية الاضطراب ، ودنيا زاد كانت تتوقعه على أى حال .. قالت الأم :

— جاء العريس ، حظى برضى السلطان وموافقة أبيك !

ترى من يكون ؟! هل إدخر القدر معجزة جديدة فيها الشفاء ؟ .
تساءلت عيناها دون أن تتفوه بكلمة فقالت الأم :

— انه كرم الاصيل صاحب الملايين !

قطبت دنيا زاد وخطف اليأس دم وجنتيها فقالت الأم :

— الفضيحة تدق الباب كالرعد ..

فبكت دنيا زاد قائلة :

— انى بريئة والله شهيد ..

— هيهات أن تجدى مصدقا لحكايتك !

— الله حسبى ..

— عنده العفو والمغفرة ..

— ليس لى حق القبول أو الرفض ؟

فقالت الأم مستنكرة :

— انها رغبة السلطان ..

فتأوهت قائلة :

— ليتنى أهرب من هذه الدنيا ..

— تكون فضيحة أكبر وقد لا تسلم أختك من العواقب ..

فأفحمت في البكاء حتى قالت أمها :

— ليت المشكلات تحل بالدموع ..

فهمت دنيا زاد :

— لكنى لا أملك الا دموعى !

قال سخربوط لزمباجة وهو يضحك بسرور :

— اللعبة تتماهى في التعقيد وسوف تتمخض عن عواقب

مثيرة ..

فقالت زرمباجة مشاركة في سروره :

— تسلية نادرة ..

— ترى هل تنتحر الجميلة أم تقتل ؟

— الأجل أن تقتل وينتحر أبوها ..

— هل ثمة مجال للمزيد من العبث ؟

— بل ندع الأمور تجرى في مجراها ما دامت في غير حاجة

لتدخلنا ..

— الحق انى أخاف ..

فقاطعته متسائلة :

— مم تخاف يا حبيبى ؟

— أن يتسلل الخير من حيث لا ندرى ..

فقالت بازدرء :

— لا تكن متشائما ..

فضحك سخربوط ولم ينبس ..



انتشر نبأ خطبة كرم الأصيل لدنيا زاد فى الحى ساحبا وراءه
ذيلا عريضا من البهجة والتطلعات والسخریات .. حلم الفقراء
بمطرة منهجرة من الصدقات من رجل لم يعرف حتى حب الصدقة
.. وفرح الأعيان بهذه المصاهرة بين السلطان وحیهم .. وجرت
الهمسات منذرة باقتران القرد بالملك .. وناحت دنيا زاد فى
وحدتها مناجية المجهول « أين أنت يا حبيبى ؟ » ، « متى تجىء
لأنقاذى من الدمار ؟ » وراح نور الدين يتخبط بين الطرقات وقد أثار
نبأ القران أحزانه مناجيا المجهول أيضا « أين أنت يا حبيبتى ؟ » ..
وتابع قمقام وسنجام المناجاة المتبادلة فى أسى عميق حتى قال
سنجام لزميله :

— انظر ماذا يفعل الزمان والمكان !
فقال له قمقام :

* — ان أنات البشر من قديم تتدفق فى نهر الحشرات بين
الكواكب ..

ومر تحت الشجرة المعلم سحلول مهولا فقال قمقام بصوت
مسموع :

— انه ماض إلى مهمة ..
فقال سحلول بحيرة :

— أحيانا ألتقى أوامر غير مفهومة !
ومضى فى سبيله ..



انتهى سحلول إلى سور دار المجائين ووقف فى الظلماء ..
همس لنفسه :

— لولا الإيمان لتساءلت عن معنى ذلك ..

وسلط ارادته على الأرض فيما بينه وبين زناينة جمصة البلطى
فانشق نفق لا يستطيع البشر شقه فى أقل من عام .. وفى ثوان كان
واقفا فى الظلام فوق رأس جمصة البلطى يسمع شخير المنتظم ..
هزه برفق فاستيقظ متسائلا :

— من ؟

فقال له :

— لا أهمية لذلك ، جاءك الفرج ، هات يدك لأنطلق بك إلى
الحرية ..

استسلم جمصة له غير مصدق حتى غمره هواء الربيع الرطيب
.. تتم جمصة :

— يا رحمة الله ! ، من أنت أيها الغريب ؟ ، من أرسلك ؟ .

دفعه سحلول وهو يقول :

— إلى مقامك المنعزل القديم على شاطئ النهر !



عندما ذهب الغريب قال جمصة البلطى لنفسه :
— ليس هذا من عمل الانس ، تذكر ذلك يا جمصة ، تذكر
وتفكر ..

عاش بين المجانين حتى الف الجنون .. ادرك انه سر مغلق
وكشف مثير .. تمتى أن يغوص فى أعماقه ويحياه تحدياته .. ولما
انعمشه الهواء جرى قلبه إلى أكرمان ورسمية وحسنية ، تمنى لو
يزور الربع ويخالط أنفاس الأحبة .. لكن من يكون ؟ .. لقد
حلقوا شعر رأسه ولحيته وجلدوه مرتين .. لا وجود اليوم لجمصة
ولا لعبد الله .. انه اليوم بلا هوية ولا اسم ، ملء بالاشجان
والنزوع إلى التقوى .. أوى إلى النخلة عند اللسان من النهر ..
تذكر صديق الاحلام عبد الله البحرى .. رجع يقول :

— كائن بلا هوية ، غايته فوق الأكوان ، ولكن تذكر وتفكر ، فلم
يجئك الفرج بغير ما سبب ! ..

حملت دنيا زاد إلى السراى لبحقتل بزفافها فى رحاب السلطان
تنفيذا لرغبته السامية .. اجتاحت رياح الرعب المثقلة بالغبار
قلب العروس وشقيقتها صاحبة الحكايات .. نصحت شهرزاد
أختها بادعاء المرض ورجت السلطان تأجيل الزفاف حتى تبرأ من
مرضها .. واستدعى الطبيب عبد القادر المهينى فتولى العلاج ،

وسرعان ما ساورته شكوك .. كان فطنا أريبا ذا خبرة بالنفوس
لا تنقل عن خبرته بالأجساد فرجح لديه أن العروس راغبة عن القرد ،
ولكنه تغابى بلباقة ، متعاطفاً مع رغبتها ، دافئاً سرها فى بئر مهنته
المصون ، فقرر أن العلاج سيطول .. غير أن كرم الأصيل ضاق
بالقرار ، وساورته شكوك أيضاً فتضرع إلى مولاه أن يأذن له فى
عقد الزواج على أن يؤجل الزفاف لحين الشفاء .. وافق السلطان
وجىء بكبير القضاة فعقد الزواج ، وبذلك باتت دنيا زاد زوجة
شرعية لكرم الأصيل صاحب الملايين .. وانتظر قوم بهجة الأفراح
على لهفة وتوقع آخرون سقوط الكارثة ..

وقادت أقدام نور الدين الحائرة صاحبها ذات مساء إلى النهر
فخلا إلى نفسه عند اللسان .. فى خلوة ناعمة بأنفاس الربيع ،
مشتعلة بالسنة الأشواق .. ترمى إليه صوت مناجاة فأيقن أنه
صوت عابد ، فأنجذب نحوه ناشدا راحة وسلوى .. عثر على
الشيخ تحت النخلة فأشفق من مقاطعته وجلس يستمع .. ولما
انتهى الرجل سألته :

— من أنت ؟ .. وماذا جاء بك ؟

فأجاب نور الدين :

— انى معذب ، وأنت ؟ ، من هذه الناحية يا عم ؟

— لا تهم النواحي من جعل قرّة عينه فى العبادة ، ولكن ما سر
عذابك ؟

— لى حكاية غريبة !
 دفعتة رغبة قوية للاعتراف فحكى له حلمه بتفاصيله وما أعقبه
 من جنون ، ثم سأله :
 — هل تصدقنى ؟
 فأجاب الرجل :
 — المجانين لا يكذبون ..
 — هل عندك تفسير للسر ؟
 — وراءك ملاك أو شيطان ولكنه حقيقة !
 — وكيف أبرأ من أشواقى ؟
 فقال بهدوء :

— نحن نكابد أشواقا لا حصر لها لتقودنا فى النهاية إلى الشوق
 الذى لا شوق بعده ، فاعشق الله يفنك عن كل شىء ..
 فقال نور الدين بعد صمت :
 — انى مؤمن صادق العبادة ولكنى ما زلت عاشقا لمخلوقات
 الله ..

— إذن فلا تكف عن البحث ..
 — نال منى التعب والأرق ..
 — العاشق لا يتعب ..
 فقال باهتمام :
 — يخيل إلى أنك ذو خبرة ..
 — عرفت رجلا لم يحرم من يحب فحسب ولكنه حرم من
 الوجود ذاته !
 — بالموت ؟
 — بل فى الحياة !

— هل داخلكما شك فى عقلى ؟
 — انه الجنون نفسه ..
 — والعقل أيضا ..
 فقال بعد تردد :
 — انك تغمض وتزداد غموضا ..
 فتسأل بنبرة باسمه :
 — إذن ماذا تقول عن حلمك ؟ !

— ٢٢ —

ورجع نور الدين إلى المدينة يخوض بحار الظلمات .. لم يبلى
 العابد غلته أو بالكاد فعل .. حثه على السحى ولم يعده بالظفر
 ولا أنفذه بالأس ثم وضع أنه من المبطلين .. لم يخلق نور الدين
 للزهد فى الدنيا ولكنه خلق لعشق الله فى الدنيا .. على ذلك فارق
 الشيخ عبد الله البلخى يوم فارقه .. لم يملك فى تلك اللحظة
 إلا اليقين بأن محبوبته كائنة فى مكان ما ، وأنها منطبعة بأثر حبه ..
 بذلك حدثته نسائم الربيع الهائلة فى الليل عما حدثته ومضات
 النجوم الهابطة بين القباب والمآذن .. وهتف بصوت مرتفع من
 وحدته :

— خفف عذابى يا لطيفا بالعباد ..
 وإذا بصوت عميق يسأل :
 — من الشاكى فى هذه الساعة من الليل ؟
 انتبه إلى شبح رجلين يعترضان سبيله فتسأله :
 — أمن رجال الشرطة أنتما ؟
 فأجاب صاحب الصوت :

— نحن تاجران غريبان نتسلى عن طول ليلنا بالمشى فى حبكم العريق ..

— أهلا بكما ومرحبا ..

— ماذا تشكو أيها الشاب ؟

وقال زميله :

— الناس للناس ، ولا تضيع الشكوى بين أهل المروءة ..

فقال نور الدين مدفوعا بكرمه :

— ادعوكما إلى دارى المتواضعة وهى قريبة ..

وضمتهن حجرة أنيقة ، وقدم لهما زلابية وقدحين من الكركديه

.. حاما حول شكواه ، سألها عن موطنهما ، قالا انهما من

سمرقند .. حاما حول شكواه مرة أخرى .. قال :

— بيوح الحائر بسره للغريب ..

فقال ذو الصوت العميق :

— وقد يجد عنده ما لا يخطر على بال ..

فقال نور الدين متنهدا :

— فلتمطرنا السماء مطرة غير متوقعة ..

واندفع يحكى لهما حكاية حلمه العجيب حتى تلاشى صوته فى

صمت شامل وهو يرنو إليهما فى خفاء .. ثم قال ذو الصوت

العميق :

— تعارفنا بالقلوب كما يجدر بأهل الكرم ولكن آن لنا أن نتعارف

بالأسماء ، أما أنا فعز الدين السمرقندى ، وهذا شريكى خير الدين

الأنسى ..

فقال نور الدين :

— نور الدين بياح الروائح العطرية ..

— تجارة جميلة مثل وجهك ..

— معاذ الله ، الله لا يضع جماله إلا حيث يريد أن يضع رضاه .

— هل صدقتمانى ؟

فقال عز الدين :

— أجل أيها الشاب ، انى جواب بلدان ، وقد سمعت من حكايات

الاولين ما لا يخطر على قلب بشر ، لذلك لا أشك فى حقيقة حلمك ..

فانتعش قلب نور الدين بالآمال وتساءل :

— هل يمكن أن أبلغ المراد بالوصول إلى محبوبتى ؟

— ما أشك فى ذلك ..

فتأوه متسائلا :

— ولكن كيف ومتى ؟

فقال الرجل :

— بالصبر والاصرار يتحقق الوصول ..

وسأله خير الدين الأنسى :

— أنت فى حاجة إلى مال ؟

فقال متنهدا :

— لا أسأل الله إلا الوصول ..

فقال عز الدين :

— ابشر بفرج الله القريب ..

— ٢٣ —

رأت شهرزاد السلطان منفعلا كما لم تره من قبل .. كانا فى

الشرفة المطلة على الحديقة وقد فرغ من صلاة الصبح وراح يتناول

افطارا من الحليب والتفاح .. عما قليل سيرتدى زيه الرسمى

ويذهب إلى مجلس الحكم ولكنه يبدو فى ساعته كطفل سعيد

باكتشاف جديد .. قال :

— ليلة أمس صادفت فى تجوالى حكاية كأنها احدى حكاياتك
يا شهرزاد ..

فقالت باسمه رغم كربها الدفين :
— تكرر الحكايات آية صدقها يا مولاي ..
— أجل ، أجل .. أسرار الوجود شائقة والذ من الخمر ..
— متعك الله بالوجود وأسراره يا مولاي ..
فقال بعد تمهل :
— الحق أننى فى حركة دائبة لا تتوقف ولا يهدأ القلب ،
يتنازعنى بياض النهار وظلام الليل ..
فقالت بمرح تغطى به على فتور روحها :
— هكذا الرجل الحى ..
— مهلا ، جاء دورى لاحكى لك حكاية غريبة ..
وقدم لها حلم نور الدين بياع الروائح العطرية .. وانتبه إلى
وجهها قائلا بدهشة :
— ما أشد تأثرى يا شهرزاد ! ..
فقالت كالمعتذرة :
— استيقظت اليوم متوعدة ..
— لسعة رطوبة لا تلبث أن تزول وسوف يراك الطبيب ، أما أنا
فأريد أن أكلف المنادين بالسير بالحكاية لأجمع بين العاشقين ..
فقالت بحرارة :
— بل التمهّل أولى بنا أن يتعرض بريئان للسنة السوء !
ففكر مليا ثم تساءل :
— الست قادرا على حمايتهما ؟!
وقالت شهرزاد لنفسها ان هذا الرجل لم يكن يشغله إلا ضرب
الاعناق ، وما زال شيطانه ذا سطوة لا يستهان بها ، ولكنه لم يعد
يستأثر به ..

— ٢٤١ —

وقالت شهرزاد الامها المقيمة فى السراى بعلّة رعاية دنيا زاد
فى مرضها :
— ثمة خارقة من الخوارق تطالبنا بمزيد من الحكمة ..
فتنهت الأم قائلة :
— لا يصلح قلبى لتلقى الحوادث الجديدة ..
— أمى ، لقد تجلت حقيقة صاحب الحلم !
ففغرت المرأة فاما ثم تمت :
— لا تحدثينى عن الأحلام ..
— ما هو الا نور الدين بياع الروائح العطرية ..
وقصت عليها مغامرة السلطان بحروفها .. عند ذاك قالت الام
بذهول :
— ما فى وسع مثله أن يتسلل بليل إلى سراى السلطان ..
— لو صح ارتياك يا أمى لهان عليها أن تهرب معه ..
— ولكن ما الفائدة ؟ ، أختك زوجة شرعية لكرم الاصيل
والكارثة تقترب ساعة بعد أخرى ..
— وسوف ينادى المنادون بالحكاية ولا يبعد أن تنكشف
حقيقتها ..
فزفرت الأم قائلة :
— الخطر يدهمنا ..
— هى الحقيقة المرعبة ..
— هل ننتظر كالمطروح فوق النطع ؟
فقالت شهرزاد باضطراب :

راح المنادون يذيعون الحلم العجيب ويدعون العاشقين للتلاقى
فى رحاب السلطان .. فى ذات الوقت تلقى السلطان نبأ انتحار
دنيا زاد بالحزن والسخط وأصدر أمره بالعثور على جثتها فى أى
موضع من الأرض .. وغضب كرم الأصيل غضبا شديدا دعاه إلى
الاعتكاف بعيدا عن شماتة الشامتين وسخرية الساخرين فلم يكن
يغادر داره إلا عند انتصاف الليل .. أما يوسف الطاهر - حاكم
بلحى - فقد تلقى الخبر فى دفقة امتزج فيها السرور بالحزن
العميق .. سر بتحرر دنيا زاد من قبضة الرجل القرد ولكنه حزن
بعمق على موت الفتاة التى تمنّاها لنفسه والتى من أجلها فكر جادا
فى تدبير مؤامرة لاغتيال كرم الأصيل ..



كان المجنون يتأمل فى ظلمة الليل تحت النخلة عندما انتبه إلى
منسبح يقترب على ضوء النجوم .. سمع صوت أنثى يحييه ويقول :
- باسم الله أسألك أن ترشدنى إلى سفينة تبعدننى عن المدينة .
فسألها برقة :
- اتربين من فعل يغضب الله ؟
فقالت بحرارة :
- ما أغضبت الله فى حياتى قط ..

- انى خائفة ، على دنيا زاد وعلى نفسى أيضا ، لا أمان
للسفك ، ان شر ما يبئلى به الإنسان أو يتوهم أنه اله ..
- انه كالموت ، لا مفر منه ..
- يتراءى لى أحيانا أنه يتغير ..
- أبوك يقول ذلك أيضا ..
- لكن ماذا يدور بداخله ؟ .. ما زال فى نظرى لغزا غامضا
لا أمان له ..

فقالت الأم بقلق :
- قد تعجبه الحكاية وهى بعيدة ، اما ان تقتحم داره وتتعامل
معه فشىء آخر ، قد تعاوده وسأوسه ..
- وينقلب شيطانا كما كان أو افطع ..
- وما ذنبك أنت ؟
- أرى أن نشارك دنيا زاد فى همونا ..
- إنى أشفق من ذلك كل الاشفاق ..
- إلام نهرب من الحقيقة وهى تطوقنا ؟
واستأذنت القهرمانه مرجان فى الدخول .. قدمت لشهر زاد
رسالة وهى تقول بخوف :

- اختفت سيدتى دنيا زاد تاركة هذه الرسالة ..
قرأت شهر زاد الكلمات الآتية :
- عفوا يا مولاي السلطان ..
لا قبل لى بعصيان أمرك بالزواج من كرم الأصيل ، ولا طاقة بى
للزواج منه ، فاخترت أن أقضى على نفسى والله غفور رحيم ..
شهت الأم وأغمى عليها ..



صوتها ذكره بأكرمان وحسنية فمازج حنان الأرض أشواق
السماء فى قلبه فقال برقة مشعشعة بالندى :

— عليك بالانتظار حتى مطلع الفجر والله يتولاك برحمته ..
— هل أستطيع الانتظار هنا ؟

فابتسم ابتسامة لم ترها وقال :

— خلق العراء للهاربين ! ، أين تذهبين ؟

— أريد أن أبعد عن المدينة ..

— ولكك وحيدة ولعلك جميلة !

فلأذت بالصمت فقال :

— لعل الله يعينك بيدى أن شئت ؟

فقالت بامتنان :

— ما أريد إلا أن تيسر لى السفر ..

فتسائل بقلق :

— عهد الله أنك لم تخلفى وراءك اذى لانسان ؟

فقالت بصوت متهدج وقد اطمأنت إليه :

— انى مظلومة ، غادرت دارى لأقتل نفسى ثم خفت أن يلقتنى

الله غاضبا ..

— لماذا يا ابنتى ؟

فنشجت باكية فهتف مخاطبا السماء :

— انك أعلم أين تضع رحمتك ..

— بريئة ومظلومة ..

— ما أحب أن أتطفل على سر قلبك ..

فاستسلمت قائلة :

— انك من العباد الطيبين وإليك أبوح بسرى ..

وراحت تحكى حكايتها فقطاعها متسائلا :

— أنت صاحبة الحلم ؟

فهتفت متسائلة :

— كيف عرفت ذلك ؟

— عرفت من شريكك فى نفس المكان ، وسمعته بعد ذلك من

المادين ..

— عقلى عاجز عن متابعتك ، هل تعرف شريكى فى الحلم ؟

— المنادون يرددون اسمه فى كل مكان ، انه نور الدين بياع

الروائح العطرية ..

فقالت وكأنها تخاطب نفسها :

— المنادون ؟ ! ، وراءهم السلطان ! ، يا للعجب ، نور الدين

.. نور الدين .. لكنى متروجة ، بل انى ميتة ..

واكملت قصتها فقال الرجل :

— اذهبى إلى زوجك !

فهتفت باصرار :

— الموت أهون ..

— اذهبى إلى زوجك نور الدين !

فتساءلت بذهول :

— ولكنى زوجة شرعية لكرم الأصيل !

— اذهبى إلى نور الدين ودعى الفجر يطلع !



قال سخربوط محتدا :

— ماذا أرى ؟ .. الأمور تسير نحو حل سعيد !

فقالت زرمباحة مدارية مرارة :

— انتظر ، ما زال الطريق مليئا بالأشواك ..

ولما تحت الشجرة سحلول يمضى مهرولا فى الظلام فتساءل

سخربوط :

— مهمة طارئة أيها الملاك ؟

وقالت زرمباحة :

— لعلها لنا لا علينا ..

مضى سحلول دون أن يعيرهما التفاتة ..

فى الصباح الباكر غادر نور الدين داره ليفتح دكانه .. وجد عند الدكان فتاة محببة كأنما تنتظر .. عليها رداء من القز الدمشقى يفصح عن هوية سامية .. تطلعت إليه باهتمام ثم نددت عنها آهة عميقة .. عجب لسانها وتلقى من قلبه نبضات موحية بالهلمات غامضة .. ما لبثت أن أسفرت عن وجه مضى ورنّت إليه بثبات واستسلام وشغف .. مر دهر وهما غائبان عن الوجود وغائبان على حلم ينفث السحر والوجد .. رقت نسائم الربيع ، خف وزنهما ، أفعبا بشذا الزرقة السماوية .. أنستهما السعادة الهابطة ذكريات

العذاب والحيرة فحل السلام بالأرض وتلاحمت الأيدي بحركة عفوية مثل غناء الطير .. هتف :

— كائن وحى ، حقيقة لا حلم ، هنا فى هذه الساعة من الزمان .

فهمست بصوت متهدج :

— نعم .. انت تور الدين وأنا دنيا زاد !

— أى رحمة هدتك إلى مقامى ؟

فتدافعت الكلمات من ثغرها تروى المأساة والفرج فقال بنشوة :

— كان علينا أن نطمئن إلى أن المعجزة لا تقع عبثا ..

— ولكن الرعد أقوى من هديل الحمام ..

فقال باصرار :

— معا وإلى الأبد ..

— كان ذلك قدرا مقدورا ..

— لنذهب إلى السلطان ..

فانطفأت شعلة وهى تقول :

— ولكننى متزوجة من كرم الأصيل ..

فقال بحدة :

— وعد السلطان أقوى ..

فقالت بأسى :

— والعثرات لها قوتها أيضا ..

ولكنه كان من السكر فى غابة ..



انعقد المجلس السلطانى فى الضحى وشهده كبار رجال الدولة .. مثل أمام العرش نور الدين بياع الروائح العطرية ودنيا زاد أخت السلطنة .. قال السلطان متجهما :

— دهبتنا العجائب الغامضة وقد علمتنا الأيام والليالى بأن نخص العجائب باهتمامنا وأن ندق باب الغموض حتى تتفتح مصاريعه عن الضياء ، غير أن هذه العجيبة المتكررة فى حلم اقتحمت على دارى ..

صمت السلطان فحقق قلب الوزير دندنان ، وشحب وجهها دنيا زاد ونور الدين .. قوى متضاربة تتنازع قلب السلطان ولا شك .. ما زال المارد القاسى ، سخرته الحكايات ولكنها لم تغير من جوهره ، وإذا به يقول ووجهه يزداد تجهما :

— ولكن وعد السلطان حق !

فزال الكرب عن قلوب كثيرة واشرقت وجوه بنور الأمل .. وعند ذاك قال المفتى :

— ولكن السيدة دنيا زاد متزوجة بحكم الشرع ..

فأصدر السلطان أمره إلى دندنان قائلا :

— أحضر كرم الأصيل ..

فقام يوسف الطاهر حاكم الحى العتيق وقال :

— مولاي ، وجد كرم الأصيل ميتا ليلة أمس غير بعيد من داره :

اجتاح الخبر القلوب فزلزلها وسرعان ما تذكرت مصارع الحكام والأعيان .. وقام بيومى الأرملة كبير شرطة الحى فقال :

— عثر رجالنا على المجنون الهارب يهيم على وجهه ليلا فى الخى بعد بحث طويل خائب عنه فألقوا القبض عليه ..

فسأله السلطان :

— هل تتهمونه بقتل الأصيل ؟

— انه ينسب إلى نفسه كافة الجرائم فى مباهاة وعزة ..

— أليس هو الرجل المصر على الزعم بأنه جمصة البلطى ؟

— هو نفسه وما زال مصرا على ذلك ..

وهنا قال يوسف الطاهر :

— نستأذن مولانا فى ضرب عنقه فهو آمن من إرجاعه إلى دار المجانين ..

فقال السلطان :

— حدثنى وزيرى دندنان بأن النفق الذى هرب منه لا يمكن أن يصنعه بشر !

فقال بيومى الأرملة بتسليم :

— هو كذلك يا مولاي ..

تردد السلطان طويلا حتى شعر المقربون بأن الخوف يساوره لأول مرة فى حياته ، ولما أدرك دندنان ذلك قال بلباقة :

— ما هو إلا مجنون يا مولاي ، ولكن به سر لا يستهان به فليترك وشأته ، وما من مملكة إلا وبها نفر من أمثاله لهم دورهم فى العناية الإلهية ، أرى يا مولاي أن يترك وشأته وأن يبحث عن القاتل بين الشيعة والخوارج ..

فقال السلطان شاكرا فى باطنه لوزيره لباقته :

— أحسنت النصيحة يا دندنان ..

ثم نظر إلى دنيا زاد ونور الدين وقال :
 — لكما الوعد فتزوجا ، وسيكون لدنيا زاد جميع مخصصاتها
 من بيت المال ..
 وتجلل المجلس بالسلامة والسعادة ..



مغامرات عجر الحلاق

— ١ —

تبلبلت الخواطر لموت كرم الاصيل ولكن عجر الحلاق شغل
 بنفسه عن الدنيا وما فيها ، فى الظروف العادية لا يشغله شيء عن
 الأحداث ، فهو طفولى عريق ، ينسج من الحبة قبة ، ويعتبر فى
 دكانه راوية قبل أن يكون حلاقا ، ويستجلب بالأخبار والمبالغات
 الاهتمام والرضى .. غير أن ابتسامة أعادت خلقه من جديد ،
 وفجرت الأمانى المكتومة من قديم .. وهو قصير نحيل براق
 العينين غامق السمرة لا يخلو فى الأصل من وسامة ينطوى على هم
 لا يدرى به سواه .. صاحبة الابتسامة متوسطة العمر .. تكبره
 بعام أو عامين .. لم تبسم إلى حلاق مثله ؟ ! لعلها تحب الرجال ،
 لعلها تغرى بالأنوثة والجود ، فما يشك أحد فى فقر عجر الحلاق
 .. يا إلهى ، انه يحب النساء ، ولولا الفقر ما بقيت فتوحة زوجته
 الوحيدة طيلة ذاك العمر .. لعله يحلم بالنساء كابنه اليافع

علاء الدين ويحلم أيضا بالجاء والطعام والشراب .. وقد واضطبت
 على المرور أمام دكانه أياما متتابعات حتى تصدى لها فضربت له
 موعدا عند مدرسة السلطان عقب مغيب الشمس .. انتظر وهو
 بقول لنفسه « جاء دورك فى الحذايا عجر » .. لأول مرة يثنى على
 الحظ ويسجد ، الأول مرة يرحب بهبوط المغيب ، لأول مرة يأنس
 إلى الطريق وهو يقتر .. الدكاكين تغلق أبوابها ، وهو يمتلىء
 بالانفعال والانتظار .. ولما خلا الطريق أو كاد ظهر « المجنون »
 بجلبابه الفضفاض ولحيته المرسل .. على غير انتظار ظهر ليخترق
 الليل بأسراره .. هو المتطوع دائها بأنه مرتكب الجرائم الكبرى ،
 والزاعم بأنه جمصة البلطى قاهر الموت ، الذى غزا قلب السلطان
 الحجرى فاطلق سراحه .. وعجر يحبه كدعابة غامضة ولكنه لم
 يرحب بظهوره فى تلك الساعة الفاصلة .. وحدث ما أشفق منه
 فاقترب منه المجنون حتى وقف بإزائه وقال له بصوته الملىء :

— اذهب إلى بيتك فلا يخرج فى الليل إلا ذو هدف ..

فضحك عجر مغالبا توتره وقال له :

— شعر رأسك ينمو مثل شجرة بلخ ولحيتك تمتد طولا وعرضا

كالستارة ، هلا زرتنى فى دكانى لاهذبك ؟

فنهزه قائلا :

— عقلك فاسد فلا تطاوعه ..

— يا لك من مجنون ظريف ..

فمضى عنه وهو يقول :

— جاهل من ذرية جهلاء !

لم يبق وحده أكثر من دقيقة ثم أقبلت المرأة ..



تجربة مشتعلة ، يستهان فيها بالمجهول ، بعد عشرين عاما من حياة زوجية يومية .. قادته فى الظلام المخفف بفوانيس الأبواب إلى دار شبه معزولة ببستان خارج السور .. آمن بأن التى تقوده من أهل الجاه والثراء والفجور فسعد بذلك درجة بعد درجة .. غاصا فى مكان مظلم وثبت به روائحه الزكية فأدرك أنه خديقة ، ثم وجد نفسه فى بهو مضاء بقناديل فى الأركان ، يتصدره سرير وثير يتوسطه مجلس من الوسائد حوله مائدة حفلت بالطعام والشراب .. غابت المرأة ثم رجعت سافرة فى جلباب حرير .. مكتنزة ، حسنة القسمات ، أكبر مما حسب ، ولكنها تسيل دلالة وخلاعة .. جرى بصره على المرأة والطعام والشراب وقال لنفسه « انظر كيف تتحقق الأحلام » .. قال وهو يتحفز :

— ليلتنا ليس فى الليالى مثلها ..

ملأت كأسين وهى تقول ضاحكة :

— لا ينكر النعمة إلا جاحد ..

وصفقت فجاءت جارية فى العشرين ، حاملة عودا ، تشبه المرأة فكأنها أختها وتتفوق بالشباب ، وقالت المرأة :

— أسمعينا ، لا يتم السرور إلا بالكمال ..

لعب الشراب بالعقول كما لعب الوتر بالقلوب .. وبقحة عجر المعهودة أقبل على الشراب والطعام والمرأة .. وتساعل مرات متى يتم التعارف ؟ . ولكن ما أهمية ذلك ؟ . ليحذر التسرع وليلعب دوره كما يجدر به .. انه لا يشك فى انه بحضرة فاجرة .. لكنها فاجرة تجود وتهب ولا تستغل .. انه حلم لا يضيره إلا انه لا يصدق ..

وخصته بيوم الاثنين من كل اسبوع .. طمع فى المزيد ولكنها تجاهلته .. نصح نفسه بالقناعة .. تحامت أن تشير إلى هويتها غايقن أنها من عليه القوم .. لماذا لم تستقر فى سراى مع كبير من الأكابر ؟ ، لعله الفجور أو البطر فأنعم بأيهما .. والجارية الشابة شقيقتها بلا جدال .. غائصة ولا شك فى الفساد .. وهى مذعنة ومطيعه للمرأة كأنها تابعة .. وهى فتنة ، رهبا يتبادلان استراق النظر .. سيقع حتما فى شباك الصغرى كما وقع فى الكبرى وكل آت قريب .. انه مجلس معبق بالشهوة والخيانة ولكنه يعمل للمرأة الف حساب .. وأحب الطعام والشراب مثلما أحب المرأة .. وبمرور الأيام أحب الطعام والشراب أكثر .. يهجم على المائدة بوحشية وبلا حياء حتى بات فرجة مسلية للمرائين .. حرص على ألا يفضحه هواه بالجارية الشابة ، وشجعته هى مستخفية وراء المزيد من الحذر .. شعر فى مقهى الأمراء بأنه أعلى مرتبة من الوجهاء وأنه أسعد من يوسف الطاهر وأنه شهريار آخر ..

وذهب ليلة فلم يجد إلا الجارية الشابة .. البهو هو البهو ولكن المائدة خالية .. وتسألت عيناه فى خيرة دون أن ينبس فقالت الجارية :

— انها مريضة وقد كلفتنى بالاعتذار ..

خفق قلبه وبرقت عيناه وابتمس فقالت :

— ينبغى أن أرجع مسرعة ..

فقال بلهفة :

— انها شديدة الثقة !

وتقدم خطوتين فاحتواها بين ذراعيه فقالت دون أن تبدي مقاومة تذكر :

— من يدري ؟

— ولكن الفرصة لن تغفل من يدنا ..

— يا لها من مغامرة ..

— انك حرة مثلها .. لا شك أنك شقيقتها ..

تخلصت منه بعذوبة وجاعت بالطعام والشراب .. اقتبلا على الشراب بافراط ليبددا مناخ التوتر والفكر .. وتذاوبا في رغبة متأججة .. واعتليا قمة التحدى فغابا عن الوجود .. واستيقظ مبكرا .. قام يترنح برأس ثقيل .. أزاح الستار فتدفق ضوء الصباح .. جانت منه التفاتة إلى ذكريات الليلة الماضية ففرت من فيه آهة وجحظت عيناه .. رأى الجارية الجميلة مذبوحة ! .. صفى دمها تهما ، واستقر بها الموت .. منى .. من .. كيف .. هل يهرب ؟ .. ما أثقل رأسه .. كأنما شرب في الخمر بنجا .. التهمة معلقة فوق رأسه .. فكر سريعا .. وبلا منطق .. الحديقة .. دفن الجثة .. ازالة آثار الدماء .. هل في الدار من يراقبه ؟ .. عليه أن يعمل وأن يسلم نفسه للمقادر .. لا وقت للتفكير .. تقوض البناء كله .. ما كان كان .. لازمه شبح المرأة الأخرى طيلة الوقت ..

وعندمالقى على المكان نظرة أخيرة رأى عقدا ذا فص من الماس ملقى أسفل السرير فتناولوه وهو لا يدري ماذا يفعل ؟ ودسه في جيبه .. تسلل إلى الخارج وهو يقول :

— ستكون معجزة إذا نجوت ..



— (٥) —

مضى عجر يتخبط في زناانة كربه المقيم .. الجريمة تحاصره وتبسط قبضتها المتشنجة لتخنق عنقه .. اعاهدك يا ربى على التوبة إذا انقذتنى .. رآه ابنه علاء الدين فسر بعودته على حين كشرت فتوحة زوجته عن أنيابها ، قال دون مبالاة :

— غلبنى النعاس فى غرزة ..

لعنته .. الحياة بينهما تجرى مكتظة بالنقار والمودة .. فتح دكانه متأخرا عن ميعاده .. استقبل الرعوس واللى ببعقل شارده يهيم في وديان الرعب .. كان ثمة شخص ثالث هو القاتل بلا ريب .. لكن لماذا قتل الشابة الجميلة ؟ .. الفيرة ؟ .. فيرة رجل مجهول أم فيرة امرأة ؟ .. دائما تطارده صورة الأخت الكبرى .. قوية وفاجرة وقادرة على الكبائر .. هل تكتشف الجثة ؟ .. هل علم احد بتسلله الليلي ؟ .. هل يساق ذات يوم إلى السياف ليضرب عنقه ؟ .. اعاهدك يا ربى على التوبة إذا انقذتنى .. وفكر لحظات في الهرب .. العقد المستقر فوق بطنه يعد ثروة ولكن عرضه للبيع قد يوقعه في شر أعماله .. كلا .. انه لم يقتل ولن يهرب والعناية الإلهية لا تنام .. أجل ان العناية الإلهية لا تنام ولكن من هذا ؟ .. نظر بصدر منقبض إلى « المجنون » وهو يدخل الدكان فيقتعد الأرض في بساطة وهو يأكل مشمشة .. وكان يشذب لحية الطبيب عبد القادر المهينى فقال للمجنون :

— ماذا جاء بك في النهار على غير عادة ؟

فقال المجنون ببساطة :

— نهارك ليل يا مجر :—

— أعوذ بالله من شر الكلام :—

وضحك الطبيب قائلا :

— لا تخدعنى يا رجل فالجنون منتهى العتل ..

فقال المجنون :

— انى شرطى قديم ..

— ما زلت مصرا على أنك جمصة البلطى ؟

— والشرطى إذا توجه الله لم يتخل عن مهنته القديمة !

فقال عجر بضيق :

— ارحمنى من جنونك فلست رائق البال ..

فقال المجنون بهدوء :

— لا يدعونى إلا أمثالك يا جاهل ..

فضحك الطبيب عاليا وقال :

— انه يدعى عادة إذا عجز علمنا عن الخدمة ..

ونهض المجنون فمضى وهو يقول :

— الله ملجأ الحى والميت ، والميت الحى ..

ولما غيبه الباب قال عجر للطبيب :

— قلبى يحدثنى الآن بأن هذا المجنون قاتل خطير ..

فتمتم عبد القادر المهينى :

— ما أكثر القتلة يا عجر ..

شعر عجر بأن المجنون مطلع على سره .. ترى أهو الذى ذبح

الجميلة ؟ ! . متى تنكشف الغمة يا رب السماوات والأرض ؟ !



وليلة الاثنين جاءت .. موعد جلنار المنذر بالاحتمالات المبهمة ..
إذا ذهب قالى الجحيم يذهب .. وإذا لم يذهب قدم الدليل على
جريمة لم يرتكبها .. مضى الى دار الجريمة والفرع .. سلم نفسه
الى المقادر مقلعشعر البدن .. أخفى الحديقة من الوجود بغض البصر ..
أما العنق المنزوع من الجسد الجميل فقد لازمه خطوة خطوة ..
رأى جلنار والمائدة فتلقى أول نسمة فى جو الصيف المشبع بالرطوبة ..
عليه أن يكبح اضطرابه أن يفضحه .. عليه أن يمارس الحب ..
نوق فراش الدم .. الجثة تملأ المكان وتغطى على المرأة النهممة ..
ما أعذب الهرب .. أقبل على الشرب بيأس .. المرأة هادئة باسممة ..
أيسال عن زهريار أم ينتظر ؟ أيهما يشئ بالريسة أكثر ؟ لكن
جلنار بادرت متسائلة :

— أين زهريار ؟

فتساءل بدوره :

— ألم تحضر معك ؟

فحدجته بحيرة وهى تشاربه ثم قالت :

— أرسلتها اليك حاملة اعتذارى ..

فقال بقلق خافق جاف :

— تبادلنا كلمتين ثم افترقنا ..

— اختفت كأنما تبخرت ، يئس المجدون فى البحث عنها ، البيت
مشتعل نارا ..

فضرب كفا بكف وتمتم :

— حدث عجيب حقا ، هل ثمة ما يدعوها الى الاختفاء ؟

— نهارك ليل يا عجر :

— أعوذ بالله من شر الكلام :

وضحك الطبيب قائلا :

— لا تخدعنى يا رجل فالجنون منتهى العتل ..

فقال المجنون :

— انى شرطى قديم ..

— ما زلت مصرا على أنك جمصة البلطى ؟

— والشرطى إذا توجه الله لم يتخل عن مهنته القديمة !

فقال عجر بضيق :

— ارحمنى من جنونك فلست رائق البال ..

فقال المجنون بهدوء :

— لا يدعونى إلا أمثالك يا جاهل ..

فضحك الطبيب عاليا وقال :

— انه يدعى عادة إذا عجز علمنا عن الخدمة ..

ونهض المجنون فمضى وهو يقول :

— الله ملجأ الحى والميت ، والميت الحى ..

ولما غيبه الباب قال عجر للطبيب :

— قلبى يحدثنى الآن بأن هذا المجنون قاتل خطير ..

فتمتم عبد القادر المهينى :

— ما أكثر القتلة يا عجر ..

شعر عجر بأن المجنون مطلع على سره .. ترى اهو الذى ذبح

الجميلة ؟ ! متى تنكشف الغمة يا رب السماوات والأرض ؟ !



وليلة الاثنين جاءت .. موعد جلنار المنذر بالاحتمالات المبهمة
.. اذا ذهب فالى الجحيم يذهب .. واذا لم يذهب قدم الدليل على
جريمة لم يرتكبها .. مضى الى دار الجريمة والفرع .. سلم نفسه
الى المقادر مقشعر البدن .. أخفى الحديقة من الوجود بغض البصر
.. اما العنق المنزوع من الجسد الجميل فقد لازمه خطوة خطوة ..
راى جلنار والمائدة فتلقى أول نسمة فى جو الصيف المشبع بالرطوبة
.. عليه أن يكبح اضطرابه أن يفضحه .. عليه أن يمارس الحب ..
نوق فراش الدم .. الجثة تملأ المكان وتغطى على المرأة النهممة ..
ما أعذب الهرب .. أقبل على الشرب بيأس .. المرأة هادئة باسممة
.. أيسأل عن زهريار أم ينتظر ؟ أيهما يشئ بالريبة أكثر ؟ لكن
جلنار بادرتة متسائلة :

— أين زهريار ؟

فتساءل بدوره :

— ألم تحضر معك ؟

فحدجته بحيرة وهى تشاربه ثم قالت :

— أرسلتها اليك حاملة اعتذارى ..

فقال بقلق خافق جاف :

— تبادلنا كلمتين ثم افترقنا ..

— اختفت كأنما تبخرت ، يئس المجدون فى البحث عنها ، البيت

مشتعل نارا ..

فضرب كفا بكف وتمتم :

— حدث عجيب حقا ، هل ثمة ما يدعوها الى الاختفاء ؟

- لا أدري عن ذلك شيئاً ولا أتصوره ! .. البيت مشتعل نارا ..

- أى بيت يا جلنار ؟

- بيتنا يا عجر ، أحسبنا بلا أهل ؟

- وهذه الدار ما شأنها ؟

- ما هى الا استراحة لنا أوقفناها على الطرب !

فتردد ثم تساءل ورأسه مثقل بلا نشوة :

- من اهلك يا جلنار ؟

فقالت باسمه :

- ناس من الخلق ، ماذا يهمك منهم ؟

فغاص فى الهم اكثر وتساءل بحزن :

- ترى أين أنت يا زهريار ؟!

- أحزنك الخبر ولا شك ؟

فانقبض صدره وقال بحذر :

- ما انا الا انسان يا جلنار ..

فدأبت لحيته قائلة :

- وانسان طيب يا عجر ..

وانتشت بالخمير فاقتربت منه .. أطبقت الكابة متجسدة .. ران

الاحباط على الطعام والشراب وجفت ينابيع الرغبة .. جفك من

المرأة بقدر ما توجس منها خيفة .. إنه كابوس ثقيل طويل ويجب

ان يتلاشى ..

- ● -

- ٧ -

فى الموعد التالى ذهب وكأنما يذهب الى النطع ولكن لم يستجب لطرقاته على الباب أحد ، ولم يفتح له بعد ذلك فتلقى أول شعور بالراحة منذ اكتشاف الجريمة .. لعل أهلها فطنوا أخيراً الى سلوكها السرى ، لعلها نفرت منه ، لعلها لحقت بأختها ، ليكن من أمرها ما يكون فقد انتهى قدر لا يستهان به من عذابه .. لن يقترب مرة أخرى من مقام الجريمة ، وسوف يقاوم لثون الدم الذى يطارده ، ولن يألوا أن يذكر نفسه بأنه لم يرتكب طيلة حياته جريمة قتل .. هيهات .. ولا قتل دجاجة مما يستطيعه .. وابتعدت ذكريات الطعام والشراب والغرام فقال لنفسه المنهزمة لعلها لم تكن حقيقة قط .. وكل يوم يمر بوجود بهيمة من الطمأنينة .. الخوف حق على المجرمين لا الأبرياء .. وهو يرى ما فى ذلك شك .. وكلما رسخت الطمأنينة دبب الحياة فى الرغبة المكبوتة .. رجع يتذكر ليالى الغرام والطعام ويتنهد .. ويتذكر العقد الثمين فوق بطنه المحروم من عرضه للبيع ويتأسف .. انه يحمل ثروة معطلة ، وله تجربة مع السعادة لا تنسى ، ويتفجر فى أعماقه النهم وأشواق اللذة .. وتساءل فى حيرة :

- أليست التوبة أجدر بى ؟

ولكن ليالى جلنار أشعلت فى وجدانه جنون النساء .. جالت عيناه متلصصة بين الحسان ، تنطلق من نار وترتد بنار أشد .. فى احدى جولاتها وقعت على حسنية بنت صناعان شقيقة فاضل قشجعه فقرأها وسمعة أبيها المتوفى على الطمع فيها .. وانتهاز فرصة مجيء

فاضل الى دكانه ليشذب لحيته وشاربه فغالى فى الترحيب به وسأله ببساطة عجيبة :

- يا سيد فاضل صنعان ، هناك من يطلب شرف القرب منك ..
فتساءل فاضل بعقل خال :

- من يا عجر ؟

فقال بالبساطة نفسها .

- العبد لله

صدم فاضل وكنتم انفعاله .. قال لنفسه لعل عجر أيسر فى الرزق منى ، ولكنه عجر وأنا فاضل ، وحسنية لا تقل فى التهذيب عن شهرزاد نفسها .. تساءل ليكسب مهلة للتفكير :

- أختى ؟

- نعم ..

فقال كالمعتذر :

- يبدو أن أحدهم سبقك يا عجر !

لأن عجر بالصمت دون أن يصدقه .. لو سبقه سابق لعلم به وهل يخفى عليه شيء مما يجرى فى الحى كله ؟ وغضب عجر .. كيف لا يعتبر فاضل طلبه منة وهو يطلب القرب من بيت حلت به لعنة الشيطان ؟!

- ٨ -

ازداد رغبة فى الحب ، ولم يكف عن التلهف على الجاه .. خاض فى أجساد العذارى كالمراهقين رغم أن ابنه علاء الدين لم يتزوج بعد .. وتقلب بين الوسائد فى دور سحرية على مثال الدور التى يدخلها أحيانا لخدمة أصحابها .. وكما وقع فى حب حسنية

تعلق قلبه بقمر أخت حسن العطار .. حب أقوى من الاول .. وزاده قوة أنه حب ميثوس منه .. حب مقضى عليه بالكتمان والاسى والعذاب .. ذهب يوما الى دار العطار ليشذب لحية المعلم حسن فلمح البنت الجميلة ففقد راحة البال الى الأبد .. لكنه لم يفقد الحلم .. انه يهيم بالدور العظيمة كدور العطار وجليل البزاز ونور الدين .. ونور الدين ما أسعده من شاب ! .. من بياع عطور بسيط لا يرتفع درجة عن عجر ، ولعله دون ابنه علاء الدين فى الجمال والكمال ، الى عين من الأعيان ، قريب وعديل للسلطان ، وزوج لثنيا زاد أخت شهرزاد أليس الله بقادر على كل شيء ؟ ..

- ٩ -

فى قهوة الأمراء جلس كعادته كل ليلة .. عقب نهار صيف حار جاد الليل بنسمة طيبة .. وجد نفسه أقرب ما يكون من أريكة المعلم سحلول تاجر المزايدات ، وأنهى الراوى فصلا من سيرة عنقرة فسكتت الرياب ونطق السمر .. قال عجر للمعلم سحلول وهو من زبائنه :

- لم تشرفنا من زمن !

فقال الرجل باسم :

- سأزورك على غير انتظار ذات يوم !

وجاء حسن العطار وجليل البزاز وبصحبتهما فاضل صنعان فاطمأنوا الى مجلسهم .. حياهم عجر مغاليا فى التودد والتقرب فردوا تحيتهم بتحفظ .. انه يلقي نفسه القاء على السادة ولكنه يره دون تشجيع حذرا من تطفله .. انه اليوم أعلى من فاضل ولكنهم يحفظون العهد القديم .. حلمه الدائم أن يقبل ليقتدم خدماته

نظير الاستمتاع بموائدهم ٠٠ يفلح مرة ويخفق عشرات المرات
فيتأجج نهمه ٠٠ اليوم فاضل غريمه بعد أن رفض يده أما حسن
فيحوز النعمة التي لا أمل فيها ٠٠ سدد نحو مجلسهم أذنه على
حين تظاهر بالاسترخاء والنعاس ٠٠ انهم يتحدثون عن سهرة
جميلة احتفالا بقدوم سفينة الباز محملة من الهند ٠٠ سيكون طعام
ولا طعام جلنار وسيجرى الشراب ٠٠ سيملا بياح الحلوى بطنه
كالأيام الخالية ٠٠

– الجو حار ، نريد مكانا خارج الدور !

الصعلوك يعلن رغباته كأنه من السادة ٠٠ ويجيبه جليل :

– اللسان الأخضر ، انه جزيرة خضراء !

فقال حسن العطار :

– ودعوت شملول الأحذب !

فقال جليل :

– ما أجمل أن يهرج لنا مهرج السلطان ٠٠ !

حتى المهرج ٠٠ أما أنت يا عجر فما أن يبتسم الحظ لك حتى

يجتاحه الدم البشري ٠٠ ونظر نحو المعلم سحلول وقال بأسف :

– انك طراز وحدك في زهدك في اللهو يا معلم سحلول ٠٠

فقال المعلم بهدوء :

– هذا حق ٠٠

– انك رجل كريم متواضع وما كنت تأبى أن أكون نديمك ٠٠

فابتسم ولم يجب ٠٠ وتفكر قليلا كيف يحرضه على اللهو ٠٠

ونظر نحوه مرة أخرى فوجد مكانه خاليا ٠٠ أجال بصره في المقهى

فلم يعثر له على أثر ٠٠ هكذا يختفي فجأة وفي غمضة عين فما

أغريه ٠٠ ولكن عجر صمم على أن يشترك في سهرة اللسان الأخضر

مهما كلفه الأمر ٠٠ ولو توجت المغامرة بطرده !

اللسان الأخضر الممتد في عرض النهر مثل جزيرة نحيلة
ولا ضوء الا ضوء النجوم الخافت ٠٠ وغير بعيد ينطلق شبح
النخلة يقوم أسلفها مثنوى الجنون ٠٠ كان عليهم أن يمدوا بساطا ،
ويهيئوا سباطا ، ويشعلوا نارا للشواء ٠٠ غير أن شبحا أقحم
نفسه بينهم متطوعا للخدمة وهو يقول :

– خدام السيادة !

لم يحظ الصوت بارتياح أو تشجيع وصاح جليل البزاز :

– عجر ! ٠٠ يا لك من طفيلي ثقيل ٠٠

فقال بثبات ويده لا تكفان عن العمل :

– طفيلي أى نعم ولكن لست ثقيلا ، وكيف يطيب مجلس كهذا

بلا خادم ٠٠

فقال حسن محذرا :

– على شرط أن تلتزق فاك بالغراء !

– لن أفتحه الا بعد الحاح ٠٠

وارتفع صوت شملول الأحذب رفيعا كصوت طفل وهو يقول له :

– كيف تدس نفسك يا صعلوك بين الأكابر ؟

فحنق عليه ولكنه انهمك في عمله مجهزا القوارير والكؤوس

وراح يشعل النار ٠٠ اندفعوا في الشرب ٠٠ تناول شملول عودا

يمائله في الحجم ومضى يدندن بصوته المثير للضحك ، وكان رغم

ضالته يجيش صدره بعظمة كونية ٠٠ وعقب أول كأس تستقر في

جوف عجر نسي عهده فتساءل :

– هل سمعتم بأخر نادرة من نوادر حسام الفقى كاتم سر الحاكم

يوسف الطاهر ؟

فصاح به حسن العطار :

— لا نحب أن نسمع فأغلق فاك ! ..

وتنادوا في الشراب على حين ترامى صوت غير مرئى المصدر
يناجى « الواحد » فاتجهت الرؤوس نحو شبح النخلة .. وقال
فاضل :

— انه المجنون ..

فتساءل جليل :

— ألم يجد مثوى غير ذلك ليفسد على اللسان الأخضر رواده ؟

فقال حسن العطار مخاطبا فاضل :

— انه يزعم انه حموك جمصة البلطى ..

— هكذا زعم ولكن رأس جمصة المعلق يقول غير ذلك ..

فقال شملول الأحذب :

— كل شيء جائز فى هذه المدينة المجنونة !

عند ذاك قال عجر الحلاق :

— ان أردتم الحق ..

ولكن جليل قاطعه :

— لا نريد الحق ولا نحب ..

فصاح شملول :

— لا تذكرونا بالموت ، بذلك أمر السلطان ..

فسال جليل :

— كيف تسامر السلطان يا شملول ؟

فقال شملول بعجرفة :

— لست ممن يفشون الأسرار يا أحقر الخلق !

ضحك الجميع الا حسن العطار فقد انفجرت نشوته غضبا

فصاح به :

— أيتها الحشرة ..

وغضب الأحذب فرمى بالعود ووثب قائما .. وما يدرون الا وهو
يبول على السماط بطعامه وشرابه ! وجموا موقنين بأن سهرتهم
هدمت وتقوضت .. اشتعل السكر بالغضب ورموا الأحذب بجمرات
الحقد .. انقض عليه فاضل دافعا أياه على ظهره ثم رفعه من قدميه
الصغيرتين ومشى به الى جافة اللسان الأخضر ثم غطسه فى مياه
النهر ثوانى طويلة .. رفعه مرة أخرى من الماء تاركا أياه يسقط
على الأرض المعشوشبة وهو يرقد من الرعب .. وقام مترنحا فتناول
المجرة ورماهم بها فتطايرت الجمرات المتقدة تلسع هذا وذاك ..
بلغ منهم الحنق مداه فاجتاحوه سكارى غاضبين وانهالوا عليه
لكما وركلا حتى تهاوى فاقد الوعى .. تابعهم عجر جامدا ذاهلا
.. تمتم :

— كفاكم يا سادة ، انه مهرج السلطان ..

وانحنى فوقه فى الظلام فى صمت .. رفع رأسه وهمس :

— يا سادة ، لقد قتلتم الأحذب !

تساءل جليل :

— واثق مما تقول ؟

— انظر بنفسك يا معلم ..

شحن الصمت بالرعب .. شمت بهم عجر .. قال متماذيا :

— جريمة من لا شيء تطرق باب السلطان !

صاح حسن العطار :

— انه الجنون ..

— أى حظ أسود ..

باسترداد ما فقد .. السرعة والستر مطلبه .. وترامى اليه صوت
هتك الصمت :

- أيها السائر فى الظلام تخفف ..
ارتعد كما لم يرتعد من قبل .. المجنون .. دائما يخترق
وحدته .. ما عليه الا ان يلف الجثة الصغيرة بطرف عباءته ..
مد يده ثم سحبها يعنف كاللدوغ .. ثمة حركة أم لعلها نبضة ..
ثمة نفس كالآنين .. رياه الأحذب لم يميت .. وترامى الصوت كرة
أخرى :

- .. تخفف ! ..

اللجنة .. مازال يطارده .. قاتل زهريار الجميلة .. لم
قتلها ؟ لم لم يقتل جلنار ؟ حمل شملول على كتفه اليسرى وغطاه
بجناح عباءته الأيمن .. همس له :
- اطمئن يا شملول .. صديقك عجر .. سأمضى بك .. الى
الامان ..

هل تضيق المكافاة ؟ هل تتلاشى الرغائب ؟ آه لو به قدرة
على القتل ! ولكن ! .. أجل خطرت له فكرة .. أن يخفيه فى
داره حتى ينال ما يشتهى .. استولت عليه الفكرة ولم يكن ممن
يقبلون الأفكار على شتى وجوها ..

- ١٢ -

نظرت فتوحة الى الاحدب الضئيل بلا حراك بذهول فقال لها
عجر :

- اسمعى وأطيعى ..
فقال ساخرة :

- أنضيق بلا سبب ولا ثمن !
وكان رأس عجر يطلق خيالات خارقة فى جميع الجهات ويقلب
من حلم الى حلم .. أخيرا قال بهدوء وهو يشعر بالسيادة لأول مرة :
- خذوا حوائجكم واذهبوا ..
فقال جليل :

- كيف نذهب تاركين وراءنا هذه الجريمة ؟
فقال عجر بنبرة أمرة :
- اذهبوا .. سوف تختفى الجثة ولن يعثر عليها الجن نفسه ..
- أو اثق أنت من نفسك ؟
- كل الثقة وما توفيقى الا بالله !
قال جليل بصوت متهدج :
- انتظر مكافاة لم يسمع بمثلها أحد ..
فقال ببرود :
- انه أقل ما انتظر !

ولكن لعل كثيرين فى المقهى قد سمعوا بدعوتنا له الى سهرتنا ؟
- أجل حصل ، ولكننى لحقت بكم بلا دعوة ، وأستطيع أن أشهد
بأنه لم يلبث معنا الا ساعة ثم مضى وحده معتذرا بتويعه ،
افهموا وتذكروا ..

- ١١ -

مع جثة الاحدب وحده .. تذكر زهريار والدم فارتعدت مفاصله
.. لكن لا وقت للأفكار المثبطة .. لنيعد عن الأرض المزروعة ..
ليبحث عن حفرة فى الصحراء .. عن مكان امين لحفظ الجثة حتى
يحقق رغائبه .. لقد أهدرت جثة حظه السعيد وهاك جثة تعده

— انه لا يصلح للطعام ..

فقال بحرارة :

— سنعد له مكانا مريحا في العلية ، ليقبأ أياما معدودة حتى

يسترد صحته ..

— ولماذا لا تذهب به الى أهله ؟

— انه نجمة الحظ التي ستجلب لنا السعادة وتنقلنا من حال

الى حال ، قدمي له ما يحتاجه وأحكمي اغلاق باب العلية ، لن يطول

ذلك ، وسأخبرك بجميع ما ينبغي لك معرفته ..

— ١٣ —

لم يكد ينم من ليلته ساعة .. وتوثب للعمل منذ الصباح الباكر

.. انه يوم فاصل في الحياة كلها ويجب أن تحدث فيه جميع

المعجزات بلا تأجيل .. ليكون جريئا مقتحما وبلا حياء وهو لم يكن

ذا حياء قط .. ما هي الافصة واحدة وهيئات أن تتكرر وكل شيء

بمشيئة الله .. وقرر أن يبدأ بأعلى صيد فقصد دار حسن العطار

قبل موعد زهابه الى مكانه .. جاءه الشاب في المنظرة الوثيرة وهو

يتساءل بلهفة :

— ماذا وراءك يا عجر ؟

فأجاب بنبرة مليئة بالثقة :

— كل خير يا معلم ، لك الامان حتى آخر العمر ..

فشد على ذراعه وقال :

— موفق بأذن الله ، هل قابلت المعلم جليل ؟

— كلا بعد .. أردت أن أبدأ بالرأس ..

— اليك ألف دينار حلالا لك ..

فقال بهدوء :

— بل عشرة آلاف يا معلم ..

قطب حسن مذهولا وتساءل :

— ماذا قلت ؟

— عشرة آلاف دينار !

— لكنها ثروة ينوء بها أكرم الأغنياء ..

فقال بالهدوء نفسه :

— هي قطرة من بحر ، وحياتك لا تقدر بمال قارون نفسه ..

— اقتنع بخمسة آلاف وسوف يتمها جليل البزاز عشرا !

— لن أفرط في درهم منها ..

لأنه حسن بالصمت مليا ثم قام متثاقلا فغاب قليلا ثم رجع

بالآلاف المطلوبة وهو يتمتم :

— لا رحمة لك ..

فأقبل يدها في جيبه وهو يقول محتجا :

— سامحك الله ، ألم أنقذ أعناقكم من سيف شبيب رامة ؟

— لكن طمعك أفتك من سيفه ..

فتجاهل تعليقه قائلا :

— بفضل الله سيصير عجر من الأعيان ويستثمر أمواله مع

الأقذان من أمثال المعلم سحلول .. بذلك يصير أهلا لتحقيق أحلامه

الحقيقية ..

فتساءل بسخرية خفية بنفسها عن حقه :

— وما أحلامك الحقيقية ؟

فقال بهدوء وجراة مذهلة .

— أن أطلب شرف القرب منكم في يد أختكم المصونة ..

انتتر قائما وهو يهتف :

— ماذا ؟ !

فقال ببرود :

— لا تشعرنى باحتقارك ، لا حق لك فى ذلك ، كلنا من صلب آدم ،
ولم يفرق بيننا فيما مضى الا المال ، ولا فرق اليوم بيننا ..
فكظم حسن غيظه دفعا لسوء العاقبة ، وقال متملصا من
حرجه :

— ولكن لا بد من موافقتها كما تعلم ..

فقال وهو يرمقه بنظرة ذات معنى :

— ستوافق من أجل انقاذ رأس أخيها المحبوب ..

فقال وهو يتنهد بعمق :

— طلبك يخلو من الشهامة ..

فقال بيقين :

— الحب لا يؤمن الا بالحب ..

ساد صمت فغاصا معا فى حر اليوم المتصاعد حتى قال حسن :

— فلنؤجل ذلك الى حين ..

فقال بقوة :

— موعدا العصر ..

— العصر !

— عصر اليوم للعقد ولنؤجل الزفاف ..

قام منحنيا له تحية وذهب وهو يشعر بجمرات الحقد المتطايرة
من نظراته تحرق ظهره ..

— ١٤ —

قبل ان يستدير الصباح كان قد حصل من جليل البزان على
عشرة آلاف دينار ، ومضى عنه مشيعا بحقه المكتوم .. قال ان عليه
أن يوثق علاقته بكبير الشرطة بيومى الأرملة انتقاء لئى غدر فى
المستقبل .. عليه أيضا أن يلتزم بحاكم الحى وكاتم سره كما يفعل
الأثرياء وفى ذلك ما فيه من العزة والأمان .. أما فاضل صنعان
فقد خلا به فى دكانه وهو يمر امامه .. تفحصه بزرارية وسأله :

— ماذا عندك لى جزاء انقاذ رأسك يا فاضل ؟

فضحك فاضل مرتبكا وقال :

— عندى رأسى فهى أثمن ما أملك ..

فقال عجر بمرارة :

— سبق أن رفضت يدى باباء ..

فقال فاضل معتذرا :

— لك على أن أكفر عن خطئى ..

فصمت لحظات وقال :

— وهبنى الله من هى خير منها ، ولكن تذكر أننى أنقذت رأسك بلا
مقابل مراعاة لفقرك !

— • —

— • —

وتوجه من فوره الى نور الدين عدیل السلطان فسأله الشاب
فى شىء من الارتياب :

— أقسم لى على أن المال جاءك من الحلال ؟

فاضطرب قلبه ولكنه أقسم فقال له نور الدين :

— ستبحر سفينة فى هذا الشهر ، ارجع الى فى نهاية الأسبوع ..
مضى خائفاً من مغبة القسم الكاذب ولكنه تعهد أمام ضميره بأن
يكفر عن ذنوبه بالحج والصدقة والتوبة ..

— ١٦ —

ادرك عجر أن أقدام الزمن تنذر بتعطيم آماله ، وأنه لا يستطيع
أن يوقفها .. ليس فى وسعه أن يحتفظ بالأحدب فى سجنه الى
الأبد ، ولن يوجد فى المدينة مستقر آمن له .. لم يبق له إلا أن
يستولى على عروسه ثم يهرب بها فى أول سفينة .. فى بلاد بعيدة
يبدأ حياة جديدة ، حياة الثراء والحب والتوبة .. ودافع عن
نفسه أمام نفسه فقال انه لم يكن شريرا ولكنه فعل ما فعل بدافع
الحرمان والعجز .. أعطاه الله حظ الفقراء وشهوات الأغنياء فما
ثنيه ؟ ، وذهب عند المساء الى مقهى الأمراء فمضى من توه — بأقدام
ثابتة — الى مجلس حسن العطار وجليل البزاز وفاضل صنعان ..
أوسعوا له مرغمين .. قال لنفسه كنت أمس محتقرا وأنا اليوم
بغريض حتى الموت .. لكنه سيحسم أمره مع العطار فى نهاية السهرة
وينطلق من الغد الى دنيا الأحلام الجميلة .. ورأى فاضل يحملق
فى مدخل المقهى بذهول داعيا صاحبيه للنظر .. اتجه نظره نحو
المدخل فرأى شملول الأحدب يرميهم بنظرة حمراء ملتبهة وهو ينتفض
من شدة الانفعال ..

— ١٥ —

وفى عصر اليوم تمت المراسيم الشرعية لزواج عجر من قمر
العطار فى جو أشبه ما يكون بجو المآتم .. تركز هم عجر فى
الاحتفاظ بشملول الأحدب فى داره حتى تزف اليه العروس .. من
ناحية أخرى اكترى دارا جميلة وشرع يعدها لاستقبال العروس
.. ولم يكن مطمئنا للمستقبل كل الاطمئنان ، فخدعته ستكشف
عاجلا أو آجلا ، أكثر من ذلك ستعلم فتوحة بزواجه من قمر وتجمع
سحب المتاعب والأكدار .. غير أنه قد ينجو من السقوط اذا ضم
اليه عروسه فانضم بطريقة ما الى آل العطار ، واذا استثمر ماله
فواتاه الربح الوفير والثراء المقيم .. وذهب الى السوق فقابل المعلم
سحلول وقال له :

— لدى مال أريد أن أستثمره عندك فأنت خير المستثمرين ..

فسأله سحلول ولم يكن يعلن عن دهشته أبدا :

— من أين لك المال يا عجر ؟

— الله يرزق من يشاء ..

فقال باقتضاب :

— لا أشرك أحدا فى مالى ..

فقال برجاء :

— علمنى فالتعليم ثواب ..

فابتسم سحلول قائلا :

— مهنتى لا تعلم يا عجر ، انتظر حتى يرجع السندباد ..

تخطف اليأس والرعب روحه .. اقترب منهم بخطى سريعة
مقاربة حتى وقف أمامهم متحديا .. صرخ بصوته الرفيع كالصفير
- الويل لكم يا عجر !
ركز أولا على عجر وقال :
- تحبسنى فى دارك مدعيا ضيافة لم أطلبها !
لم ينبس عجر فواصل الأحذب :
- أطلقتنى امرأتك عقب ما نما اليها من نبال زواجك فانتظر الرعد
فى بيتك ..

ثم راجعا الى الثلاثة :

- تضربون رجل السلطان يا أوغاد ! ، لكل قوى من هو أقوى منه
وأفتك ، وسوف تنالون الجزاء الحق ..
وغادر المقهى مصفر الوجه من الغضب ، فى خطى متقاربة سريعة ،
مخلفا وراءه عاصفة من الضحك .. ولكن تجمدت أوجه للرجال الثلاثة
ثم اجتاحتهم الخوف والغضب .. ألهبوا عجر بنظرات حاقدة وهمس
حسن العطار :

- وغد محتال ، أرجع النقود وافسخ العقد ..

وقال جليل البزاز :

- أرجع النقود والا هشمنا عظامك ..

قال عجر :

- حسبته أول الأمر ميتا والله شهيد ..

قال حسن :

- ثم انقلبت مجرما محتالا ، النقود والفسخ ..

قال باستقتال :

- احذروا الفضيحة ، سيداع سر السكر والعريضة والعدوان ،
خير من ذلك أن تسترضوا الأحذب قبل أن يرفع شكواه الى مولاه ، أما
ما أعطيتكم من مال فاعتبروه تكفيرا عن آثام حياتكم ..
- الويل لك ، لن تقلت بدرهم يا محتال ..
نهض الرجل بغتة وغادر المكان وكأنما يفر فرارا ..

تلاشى الأمان من دنياه ، وانطفأ سراج الأمل .. انه زوج قمر
ولكنها أبعد عنه من النجوم ، وهو غنى ولكن الموت يتهدده وهو أدرى
الناس بالتعاون الخفى بين العطار والبزاز من ناحية ويوسف الطاهر
الحاكم وحسام الفقى كاتم السر من ناحية أخرى .. وفقوحة رابضة
فى الدار متلهفة على عودته لتغرز أنيابها فى عنقه .. ما أضييق الدنيا
.. وهام على وجهه .. غفا ساعات فوق سلم السبيل .. انزوى فى
أقصى الحى النهار كله .. لا شك أن أعداءه استرضوا الأحذب وهم
عاكفون الآن على تدبير الانتقام منه .. وفى المساء وجد نفسه الهائمة
فى ميدان الرماية ، وفجأة جذب بصره ضوء مشاعل وضوء غير
مألوف ..

ماذا يجرى فى الميدان ؟ ، قوة من رجال الشرطة تحيط بعدد عديد من الصعاليك وتسوقهم بعنف نحو مكان مجهول ٠٠ وصادف رجلا قريبا يقول بصوت مسموع :

- يا له من قرار عجيب !

لم يكن الرجل فى حقيقته الا العفريت سخرىوط متنكرا فى صورة انسانية ، رافلا فى جلباب ينطق بحسن المكانة ٠٠ سألته عجر :

- أى قرار يا سيدى ؟

ففرح سخرىوط لاستدراج عجر وقال :

- فليكرم الله مولانا السلطان ، فقد تنبأ له فلكى القصر بأن حال المملكة لن يصلح الا اذا تولى شئونها الصعاليك فأمر مولانا بالقبض على الصعاليك ليختار منهم شتى القيادات ٠٠

فذهل عجر وتساءل :

- أموقن أنت مما تقول ؟

فقال سخرىوط بدهشة :

- ألم تسمع المنادين ؟

وثب قلبه من الجذل ٠٠ أى موجة من البشر تكتسح الاحزان كلها بانطلاقة واحدة ؟ انها المنفذ من العذاب واليأس ، والمبشر بالنجاة والسيادة ٠٠ ماذا فى وسع أعدائه أن يفعلوا اذا أطل عليهم غدا من شرفة الحكام ؟ ولم يتردد دقيقة واحدة فاندس فى زمرة المقبوض عليهم مستسلما لتيارهم ٠٠

مضى التيار نحو دار الحاكم يوسف الطاهر ٠٠ حشد المقبوض عليهم فى الفناء تحت حراسة قوية وعلى ضوء المشاعل ٠٠ جاء يوسف الطاهر يتبعه حسام الأفقى فحياهما كبير الشرطة بيومى الأرملة ثم قال :

- هؤلاء من أمكن القبض عليهم هذا المساء وسيجئ الآخرون تباعا ٠٠

فتساءل يوسف الطاهر :

- أضمن بذلك حقا أن تنمحي الجرائم والسرقات وقطع الطرق ؟

فقال بيومى الأرملة :

- هو المأمول يا مولاي ٠٠

وبإشارة من الحاكم راح الجنود يجردون المقبوض عليهم من ملابسهم الرثة ٠٠ وذهل عجر طيلة الوقت وأيقن من أنه ساق نفسه الى مصيبة تخف بالقياس اليها مصائبه ٠٠ وانهالت السياط عليهم فمزق صراخه الجو من قيل أن يأتى دوره ٠٠ ولكنه نال نصيبه ٠٠ ولما أخذوا يمشون بهم الى السجن صاح عجر مخاطبا الحاكم :

- يا نائب السلطان ، انظر بحق الله المتعال فانى لست منهم ، أنا

عجر الحلاق ، كبير الشرطة يعرفنى ، ويعرفنى كاتم السر ، انى صديق

نور الدين عديل السلطان !

انتبه اليه بيومى الأرملة فدهش وسأله :

- لكنى لم أقبض عليك يا عجر ٠٠

فصاح عجر :

- اختلاط الأمر وفعل الشيطان ٠٠

وأمر يوسف الطاهر باطلاق سراحه ورد ملابسه اليه غير أنه انتبه اليه باهتمام فجأة ، نحو اللفة حول وسطه فارتعد عجز وأخفاها بذراعيه ٠٠ وداخل الحاكم شيء من الريبة فأمر بنزعها وفحص ما بذراعه ٠٠ ولما رأى العقد ذا الجوهر صاح :
- عقد زهريار ٠٠ ما أنت الا لص قاتل ، اقبضوا عليه ٠٠

- ٢١ -

بدأ اليوم التالى بالتحقيق مع عجر ٠٠ حكا الرجل حكاية وأقسم بأغلظ الايمان على صدقها ٠٠ تطوع حسن العطار وجيليل البزاز فشهدا عليه بالكذب والاحتيال ٠٠ قضى يوسف الطاهر بضرب عنقه ٠٠ واحتشد الحى ليشهد ضرب عنقه فى الميدان ، وقبيل الشروع فى التنفيذ جاء الوزير دندان فى موكب مهيب ٠٠

- ٢٢ -

سرعان ما جمعت حجرة القضاء بدار الحاكم بين دندان ويوسف الطاهر وحسام الفقى وبيومى الأرمل وعجر الحلاق ٠٠ قال دندان :
- أمرنى مولاى بإعادة المحاكمة ٠٠
فقال يوسف الطاهر :
- سمعا وطاعة أيها الوزير ٠٠
فقال دندان :

- وافاه « المجنون » بأخبار أراد أن يتحقق منها ٠٠

فدهش يوسف الطاهر وقال :

- ذلك المجنون المصر على أنه جمصة البلطى ؟

- هو بعينه ٠٠

- وهل صدقه مولانا السلطان ؟

فقال دندان بخشونة :

- انى هنا لأحقق معكم لا لتحققوا معى ٠٠

وساد صمت مجلل بالرهبة فسأل دندان يوسف الطاهر :

- ألك شقيقتان ، احداهما حية والاخرى مختفية ؟

فقال يوسف الطاهر :

- أجل يا سيدى الوزير ٠٠

- وهل مارسا حياة داعرة فاجرة ؟

قال يوسف الطاهر بصوت متهدج :

- لو عرفت ذلك ما سكت عنه ٠٠

فقال دندان :

- بل انهما أسكتتك من قبل أن تتولى الامارة بالاغداق عليك من

المال الحرام !

فقال الحاكم .

- ما هى الاخيلات رجل مجنون ٠٠

فالتفت دندان نحو حسام الفقى كاتم السر وقال :

- يقال انك تعرف كل شيء عن هذه القضية فبأمر السلطان أدل بما

عندك واحذر الكذب فقد يتسبب فى ضرب عنقك ٠٠

انهار حسام الفقى تماما فقال لائذا بالنجاة ما وسعه ذلك :

- جميع ما قيل حق لا ريب فيه ٠٠

فسأله دندان متجهما :

- ماذا تعرف عن اختفاء زهريار ؟
- حققت فى ذلك بنفسى فتبين لى أن أختها جلنار هى التى قتلتها
بدافع الغيرة :
ودعى عجر للكلام فحكى حكايته من ساعة عشقه لجلنار حتى دس
نفسه بين الصعاليك المقبوض عليهم ..

انىس الجليس

- ١ -

شهریار و دندان یغوصان فی اللیل ، یتبعهما شیب رامة ، وقد
تلاشت حركة الانسان .. على ضوء المصابيح المتباعدة لاحت الدور
والحوانیت والجوامع نائمة ، وخفت حرارة الصيف ، ومضت
النجوم فى الاعالى .. تساءل شهریار :

- ما زایک فیما کان ؟

فقال دندان :

- سلیمان الزینى رجل مأمول كحاکم .. كذلك کاتم سره الفضل

بن خاقان ..

- اذا نامت الرعية نام الخير والشر ، الجميع شغوفون بالسعادة
ولكنها كالقمر المحجوب وراء سحب الشتاء ، فاذا وفق حاکم الحى
الجديد سلیمان الزینى تساقطت قطرات من السماء مطهرة الجو من
بعض ما ينتشر فيه من الغبار ..

- سيكون ذلك بفضل الله المتعال وبید مولانا السلطان وحكمته

فقال شهریار بعد تفكير :

- ولكن القسوة يجب أن تبقى ضمن وسائل السلطان !

فتفكر دندان بدوره ثم قال بحذر :

- الحكمة - لا القسوة - هى ما يقصد مولای ..

فضحك السلطان ضحكة مزقت صمت اللیل وقال :

- ٢٣ -

رفعت القضية بحذافيرها الى السلطان شهریار فأمر بعزل يوسف
الظاهر لفقدان الأهلية وعزل حسام الفقى لتسترة على رئيسه .. وجلد
حسن العطار وجليل البزاز وفاضل صنعان للمسكر والعريدة ،
ومصادرة أموال عجر الحلاق وإطلاق سراحه ..

وخلا دندان الى ابنته شهرزاد فقال لها :

- لقد تغير السلطان وتخلق منه شخص جديد ملئ بالتقوى

والعدل ..

ولكن شهرزاد قالت :

- ما زال جانب منه غير مأمون ، وما زالت يداه ملوثتين بدماء

الأبرياء ..

- ٥ -

اما عجر فقه تناسى خسارته فى فرحة النجاة .. وسرعان ما
فسخ العقد بينه وبين قمر ومضى الى النخلة غير بعيد من اللسان
الأخضر فانحنى امام الجنون المتربع تحتها وقال بامتنان :

- انى مدين لك بحياتى أيها الزوالى الطيب ..

- ٥ -

- ما انت الا منافق يا دندان ، ماذا قال المجنون ؟ ، قال ان الرأس اذا ضلح صلح الجسم كله .. فالصلاح والفساد يهبطان من أعلى ، غمزنى بجراة لا تكون الا للمجانين ، ولكنه عرف سر القضية .. كيف تهيأ له ذلك ؟

- من ادرانى يا مولاي بما يدور فى رءوس المجانين ؟

- زعم انه احاط بالاسرار منذ كان كبيراً للشرطة ..

- ما زال يصصر على انه جمصة البلطى ، وهو ادعاء يكذبه رأس

جمصة البلطى المعلق على باب داره .. لعله حقاً من رجال الغيب ..

فقال شهريار وكأنما يناجى نفسه :

- علمتنى شهريار ان اصدق ما يكذبه منطق الانسان ، وأن

اخوض بحراً من المتناقضات ، وكلما جاء الليل تبين لى انى رجل فقير !

- ٢ -

قالت زرمباجة لسخربوط :

- اخشى ان يركبنا الضجر ..

فقال سخربوط مشجعاً :

- بل ستتاح فرص وتخلق فرص يا تاج الذكاء ..

وترامى صوت قمقام من أعلى الشجرة وهو يقول :

- اذا تردد التذمر بينكما فهو البشرى بالرضى ..

فقالت له زرمباجة ساخرة :

- ما أنت الا عجوز عاجز ..

فقال سنجام من مجلسه لصق قمقام :

- الارض تشرق بنور ربها ، ونحو النور يتطلع ليل نهار جمصة

البلطى ونور الدين العاشق ، حتى عجز استقر فى دكانه وتاب عن تطلعاته .. أما شهريار السفاح فثمة نبضة هدى تقتحم عليه هيكله الملىء بالدم المسفوك ..

فقال سخربوط هازئاً :

- ما ترى من الأشياء الا ظلها الآخرى ، وما تحت الرماد الا

جمرات نار وسيوقظك الغد من غفوة العمى ..

- ٣ -

بدأت الحركة بصوت ناعم كالحرير ثم انفجرت بهزيم الرعد ..

فى ذات ليلة بمقهى الامراء خرج عم ابراهيم السقاء عن أدبه المعهود

وقال بصوت مرتفع دل على شدة تأثره وانفعاله :

- حملت فى صدر النهار الماء الى الدار الحمراء ..

فسأله شملول الاحدب بصوته الرفيع :

- وأى جديد فى هذا يا احمق ؟

فقال السقاء وهو سكران بالانفعال :

- لمحت صاحبة الدار ، تبارك الخلاق العظيم ..

ضحك الجالسون على الأرض والمتربعون على الأرائك وقال

معروف الاسكافى :

- انظروا الى جنون الشيخوخة ..

فقال عم ابراهيم بأسى :

- نظرة منها تملا الجوف بعشرة دنان من خمر الجنون ..

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

- صفها لنا يا عم ابراهيم ..

فهتف الرجل :

يوسف الطاهر أول من قام بالمبادرة ٠٠ منذ عزله وهو ثرى
يعانى البطالة والضجر فجاءه الفرج ٠٠ مع الليل ذهب الى الدار
الحمراء وطرق الباب ٠٠ فتح له العبد وسأله :
— ماذا تريد ؟

فاجابه بجرأة رجل حكم الحى زمنا :
— غريب ينشد مأوى عند أهل الكرم ٠٠
غاب العبد وقتا ثم رجع موسعا للقادم وهو يقول :
— أهلا بالغريب فى دار الغرياء ٠٠

أدخل الى بهو مزين الجدران بالأرابيسك ، مفروش بالأسطة ،
الفارسية ، والدواوين الأنطاكية ، محلى بتحف الهند والصين
والاندلس ، أبهة لا ترى الا فى دور الأمراء ٠٠
وهلت امرأة محجبة ، تشى قامتها المتوارية فى طيلسانها
الدمشقى بالجلال ، فجلست متسائلة :

— من أى البلاد يا غريب ؟
فقال وهو يتلقى من الحيوية زادا كالخمر :
— الحق أنى من عشاق الحياة ٠٠
— خدعتنا وحق السلطان ٠٠
فقال بحماس :

— عذرى أن قارىء الكف تنبأ لى بأنى أعيش للجمال وأموت فى
سبيله ٠٠

فقالت بنبرة جادة :
— اتنى امرأة متزوجة ٠٠

— انها لا توصف يا سيدى ولكنى أسأل الله الرحمة والغفران ٠٠
وبعد ليلتين قال عم رجب الحمال :

— دعيت اليوم لحمل نقل الى الدار الحمراء ٠٠
شد الانتباه من فوره وبدا فريسة لعاطفة قهارة فقال .
— لمحت ست الدار ، أعوذ بالله من عنف الجمال اذا طغى ٠٠
لنا الله ٠٠ ليس الأمر بالهزل ٠٠ انطلق أصحاب الأشواق
يستطلعون ٠٠ انطلقوا الى سوق السلاح حيث تقوم الدار الحمراء
٠٠ دار كبيرة هجرت زمنا لهلاك أصحابها فى وباء ٠٠ تركت عارية
وماتت حديققتها ٠٠ حتى اكترتها امرأة غريبة من بلد مجهول
مصحوبة بعبد واحد ٠٠ وفى الليل العميق يترامى من وراء أسوارها
غناء عذب ونغم ساحر ٠٠ قالوا لعلها غانية ! ٠٠
واذا بعجر الحلاق يتحدث عنها بجنون لكل زبون يقصده ٠٠
يقول :

— عصفت بتوبتى وأصابتنى بسهم العذاب الأبدى ٠٠
ويقول :

— دعتنى لتهديب خصلات شعرها وتقليم أظافرها ، لو كانت
سيدة محتشمة لدعت بلانة ولكنها نار الله الموقدة !
وعرف أن اسمها « أنيس الجليس » وتضاربت الأقوال فى وصفها
حتى أثارت الشك فى عقول الواصفين ، فمن قائل انها بيضاء شقراء ،
ومن قائل انها سمراء خمرة صافية ، ومن منوه ببدايتها الى متغزل
فى رشاقتها ٠٠ هيج ذلك مكامن الأشواق فتوثب الأعيان والموسرون
لاقتحام المجهول ٠٠

فتساءل بقلق :

— حقا ؟

فاستدركت :

— ولكنى لا أدرى متى يلحق بى زوجى ؟

— يا له من قول غريب ! ..

فتمتعت متهكمة :

— ليس دون قولك غرابة :

وبدلال أزاحت النقاب عن وجهها فسطع جمال قد خلق على هواه
وحقق شوارد أحلامه .. تلاشى العقل فركع على ركبتيه .. أخرج من

جيبه حقا عاجيا ففتحه ووضع بين قدميها كاشفا عن جوهرة ناطقة
بمثل ضوء الشمس .. همس بصوت متهدج :

— حتى جوهرة التاج لا تليق بقدميك ..

انتظر الحكم المقرر للمصير فقاتلت بنعومة .

— مقبولة تحيتك ! ..

فانقض بفرحة الأمل ، أحاط ساقبها بذراعيه ، وهوى رأسه قلثم

قدميها ..

— ٥ —

كانت مبادرة يوسف الطاهر بمثابة فتح الباب لأمواج الجنون
الهادرة الصاخبة التى تدفقت لتغمر الحى كالطوفان وتصيبه فى أغنى
أبنائه ، أما الفقراء فكانت لهم الحسرة .. باتت الدار الحمراء بسوق
السلاح قبلة لحسام الفقى وحسن العطار وجيليل البزاز وغيرهم ..
حملت الهدايا فى اثر الهدايا ، وسلبت القلوب والجوانح ، وتاهت

العقول وشردت ، وسيطر الاسراف والسفاه ، ونحيت العواقب ،
وتلاشى الزمن فلم تبق الا الساعة الراهنة ، ومضت الدنيا تضيع فى
اثر الدين .. وأنيس الجليس ساحرة فائنة ، تحب الحب ، تحب المال
تحب الرجال .. لا يرتوى لها طمع ولا تكف عن طلب .. الرجال
يستبقون بجنون بحكم الحب والغيرة ، لا يستأثر بها أحد ، ولا يزهّد
فيها أحد ، منحدرين بقوة واحدة نحو الضياع ..

— ٦ —

لم يغرف المعلم سحلول النشاط كما عرفه فى تلك الايام .. انه
رجل المزايدات وأول من يحضر عند حلول الافلاس .. سقط أول من
سقط حسام الفقى .. لم يهمله ضياع المال بقدر ما أهمله ضياع أنيس
الجليس .. لم يكرهه مصير النساء والأولاد كما أكرهه الحرمان ..
قال للمعلم سحلول :

— لا يستطيع أن يدمر الانسان مثل نفسه ..

فقال الرجل بغموض :

— ولا يستطيع أن ينجيه مثل نفسه ..

فقال الفقى ساخرا :

— أفلسنا الموعظ من قديم ..

ولحق به فى السقوط جليليل البزاز ، ثم حسن العطار أما يوسف
الطاهر فترنح على حافة الهاوية .. وقال عجر الحلاق لسحلول مغلقا
على نشاطه المتصاعد :

— مصائب قوم !

فقال سحلول دون مبالاة :

— هم الجناة وهم الضحايا ..

فتنه عجر قائلا بأسى :

- لو رأيته يا معلم لهفت نفسك الى الجنون ..

- ما هى الالبسة شيطان ..

- انى أعجب كيف لم تقع فى هواها !

فقال سحلول باسماء :

- جرت المقادير بأن يوجد عاقل واحد فى كل مدينة مجنونة ..

وذات ليلة وسحلول يخوض الظلام متمهلا اعترضه قمعام

وسنجام فتبادلا تحية مقدسة ، وقال قمعام :

- انظر الى العبد يعصف بالمدينة ..

فقال سحلول :

- لقد عشت ملايين من السنين فما يدهشنى شيء ..

فقال سنجام :

- ستقبض ارواحهم ذات يوم وهى تنز اثما ..

- وقد تسبق التوبة حلول الاجل ..

- لماذا لا يسمح لنا بمساندة الضعفاء ؟

فقال سحلول بوضوح :

- وهبهم الله ما هو خير منكم ، العقل والروح !

- ٧ -

مضى حسام الفقى ثملا متريحا الى الدار الحمراء وطرق الباب

الكبير .. فاضت كاس جنونه فساقته الى باب النجاة ولكن لم يفتح

له أحد فصاح فى الليل غاضبا :

- افتح يا مفتاح الابواب ..

ولكن لم يكثرث بندائه أحد فانزوى تحت السور فى قهر وعناد

.. وما لبث أن رأى شبحا قادما حتى رأى وجهه تحت ضوء المصباح

المعلق فعرف فيه رئيسه القديم يوسف الطاهر فاشتعل بيقظة غاضبة

.. طرق الرجل الباب فسرعان ما فتح له .. اندفع حسام الفقى فى

اثره ولكن العبد اعترض سبيله قائلا :

- معذرة يا معلم حسام ..

فلطمه على وجهه بحنق فقال له يوسف الطاهر برقة :

- أفق واسلك كما يليق بك ..

فتساءل بغلظة :

- ضاع المال والدين فماذا يبقى لى ؟ ..

تحول عنه ليمضى فى سبيله ولكن الآخر وثب عليه كنمر وطعنه فى

قلبه بخنجر مسموم .. عند ذاك صرخ العبد صرخة أفزعت النيام ..

- ٨ -

قبض على حسام الفقى الذى لم يحاول الهرب .. نظر اليه

بيومى الأرملة برثاء وقال :

- أسفى عليك أيها الصديق القديم ..

فقال حسام بهدوء :

- لا تأسف يا بيومى ، ماهى الا قصة قديمة يستدفىء بها العجائز

.. قصة الحب والجنون والدم ..

- ٩ -

وقال العبد لأنيس الجليس :

- حبيبتي زرمباحة عما قليل سيشرف دارنا بيومى الارمل كبير الشرطة ..

فقال المرأة :

- كما رسمنا يا سخربوط .. ونحن فى الانتظار ..

- دعيني أقبل الرأس الحاوى للعبقريّة ..

لم تستغرق محاكمة حسام الفقى الا ساعات ثم ضربت عنقه ..
 واجتمع الحاكم سليمان الزينى بكبير الشرطة وحضور كاتم السر
 الفضل بن خاقان والحاجب المعين بن ساوى .. قال الزينى مخاطبا
 بيومى الارمل :

- ما هذا الذى قال الشهود ؟ عشرات الرجال يفلسون .. رجلان
 يفقدان حياتهما بسبب امرأة غريبة داعرة .. أين كنت يا كبير
 الشرطة ؟

فقال بيومى الارمل :

- الدعارة اثم سرى ونحن منهمكون فى مطاردة الشيعة
 والخوارج !

- لا .. لا .. انك عين الشريعة .. حقق مع المرأة .. صادر
 مالها الحرام ، استدرك ما فاتك قبل أن تسأل أمام السلطان ..

وقف بيومى الارمل بين نخبة من رجاله فى بهو الاستقبال بالدار
 الحمراء ينظر فيما حوله ويتعجب .. ترى هل تفوق سرائى السلطان
 هذه الدار فى شئ ؟ وجاءت المرأة مقنعة الوجه محتشمة الجسد ..

- أهلا بكبير الشرطة فى دارنا المتواضعة ..

فقال بخشونة :

- لا شك علمت بالجريمة التى ارتكبت عند مدخل دارك ؟

فقال بتأثر :

- لا تذكرنى بها فلم يغمض لى جفن منذ ارتكابها ..

فقال بحدّة :

- لا أصدق كلمة مما تزورين ، أجيبى على أسئلتى بالصدق . ما

اسمك ؟

- أنيس الجليس ..

- اسم مريب ، من أى البلاد جئت ؟

- أمى من الهند وأبى من فارس وزوجى من الأندلس !

- متزوجة ؟

- نعم ، وقد تلقيت من زوجى رسالة ينبئنى فيها بقرب قدومه ..

- أتمارسين الدعارة بعلمه ؟

- أعوذ بالله ، انى امرأة شريفة ..

فهز رأسه ساخرا :

- وما شأن الرجال الذين يترددون عليك ؟

- أصدقاء من سادة البلد ممن يطيب لهم الحديث في الشريعة
والآداب ..

- عليك اللعنة ، ألك ذلك أفلسوا وتقاتلوا ؟

- انهم كرماء ولا ذنب لى وما كان يصح فى آدابنا أن أرفض
هداياهم ، ولا أدري كيف اندس الشيطان بينهم ..
فقال بتفاد صبر :

- لدى أمر بمصادرة مالك الحرام ..

أشار الى رجاله فانتشروا فى الدار ينقبون عن الحلى والجواهر
والنقود .. فى اثناء ذلك لبثا وحيدى صامتين .. خطف من نقابها
نظرات مستطلعة بلا ثمرة أما هى فلم تجزع .. استسلمت للقدر أو
هكذا بدت ، ثم تساءلت فى عتاب :

- هل أعيش بعد اليوم من بيع أثاث دارى ؟

رفع منكبيه استهانة فأنزحت النقاب عن وجهها قائلة :

- مغذرة ، حر الصيف لا يطاق ..

نظر بيومى فصعق .. لم يصدق عينيه ولكنه صعق .. التصق
بصره بوجهها فلم يستطيع أن يسترده .. سبح فى بحر الجنون
المتلاطم .. فقد القوة والوظيفة والامل .. دفن كبير الشرطة بيديه
فانبعث من قبره مائة عفريت وعفريت .. دفعته آلاف الأيدي فكاد
يتهاوى لولا سماعه عريضة أعوانه فى الحجرات .. الرقبا والعيون
قادمون ، أما بيومى الأرمل فقد ضاع الى الأبد .. وعادت تقول
متوسلة :

- أسألك المروءة يا كبير الشرطة ..

أراد أن يجيب اجابة خشنة تناسب المقام .. أراد أن يجيب اجابه
ناعمة تناسب المقام .. لكنه غرق فى الصمت ..

- • -

- ١٢ -

عند منتصف الليل فقد صيره فطار مستخفيا الى الدار الحمراء
.. مثل بين يديها مستسلما وهو يقول لنفسه انها القدر الذى لا ينفع
معه حذر ولا ينتفع لديه بمثال « .. تجاهلت حاله وقالت بأسى :

- لم يبق لدى ما تصادره يا كبير الشرطة ..

فقال بذل :

- لقد قمت بواجبى ولكن ثمة جانب للرحمة ..

ورمى عند قدميها بكرة مكتنزة .. ابتسمت بعذوبة ، وتمتمت :

- يا لك من رجل شهم ..

ركع على ركبتيه فى خشوع ، أحاط ساقها بذراعية ، ثم سجد

لاثما قدميها ..

- ١٣ -

تصاعدت أنات شكوى من مستحقى بيت المال ، وتهامس كتاب
البيت بأن المال لا يصرف فى وجوهه الشرعية كما أمر الزينى ..
ويلفت الأنباء الحاكم فبث العيون وشدد المراقبة .. وكلف كاتم سره
الفضل بن خاقان وحاجبه المعين بن ساوى بالتحقيق السرى .. وقرر
أخيرا استدعا كبير الشرطة بيومى الأرمل وقذف فى وجهه بالبيانات
الصادقة .. بدا الرجل مستسلما وغير مبال فعجب لشأنه وسأله :

- أرى فيك شخصا آخر لم أعهد من قبل ؟
فقال الرجل بأسى :

- تقوض البناء القديم يا مولاي ..
- ما تصورت أن تغتال أسوال المسلمين ..
فقال بالنبرة نفسها :

- اغتاله المجنون الذى حل فى ..
وحوكم بيومى الارمل فضربت عنقه .. حل محله المعين بن
ساوى .. صودرت أموال أنيس الجليس مرة أخرى .. ولزم حارس
بابها ليمنع أى رجل من الدخول ..

- ١٤ -

ورفع أمرها الى المفتى ولكنه أفتى بأنه لم تقم بيعة شرعية على
فسقها ، وكان المعين بن ساوى يمارس عمله فى مقر الشرطة عندما
استأذنت امرأة فى مقابلته .. نظر الى نقابها الكثيف بلا مبالاة
وسألها :

- من أنت وماذا تريدان ؟

فأجابت بعصبية :

- أنا أنيس الجليس المظلومة ..

فانتبه الرجل اليها باهتمام وسألها بخشونة :

- ماذا تريدان ؟

فأزاحت النقاب عن وجهها وقالت :

- صادرتم مالى ، أصبحت مستحقة للصدقة والزكاة فاكتبني

عندك ضمن المستحقات ..

لم يفقه معنى كلمة مما قالت .. نسي أشياء لا تحصى كما نسي
نفسه .. عبثا حاول أن يستمد من ضميره قوة .. زلت قدمه فتردى
فى الهاوية .. سمع صوتها يتردد مرة أخرى دون أن يفقه له معنى ..
.. أخيرا سألها وهو يلهث :

- ماذا قلت ؟

فقال متجاهلة حاله :

- اكتبني عندك فى المستحقات للزكاة والصدقة ..

تساءل وهو يلقى بتاريخه من الخافذة :

- متى أبعث لك بحاجتك ؟

فقال بدلال :

- سأنتظرك عقب صلاة العصر ..

- ١٥ -

اشتعلت نشاطا ومقدرة .. قالت انه يوم الفصل والنصر ..
ضحكت طويلا كما ضحك سخربوط .. وفى الحال قصدت كاتم السر
الفضل بن خاقان .. تكررت اللعبة والمأساة .. ضربت له موعدا
عقب صلاة المغرب .. أما سليمان الزينى فكان مواعده عقب صلاة
العشاء .. نور الدين عاشق الروح وعديل السلطان وافق على
الذهاب بعد العشاء بساعتين وقد حرر لها رقعة لمقابلة الوزير دندان
وأخرى للقاء السلطان شهريار بحجة أن تظفر بالعدل والانصاف عند
أى منهم .. هوى الرجال جميعا وتطلع كل الى مواعده وقد فقد رشده
.. حتى دندان وشهريار !

- ● -

تتابع الرجال ٠٠ الفضل بن خاقان ٠٠ سليمان الزينى ٠٠ نور الدين ٠٠ دندان ، شهریار ٠٠ استسلموا للنداء الأسر ، ثملوا بالنشوات المعريدة ، ثم سيقوا عرايا الى الاصونة ، وترامى اليهم صوت أنيس الجليس وهى تضحك ساخرة فأدركوا أنهم وقعوا فى شرك محكم ٠٠ قالت :

— غدا فى السوق سأعرض الاصونة للمزاد بما فيها ٠٠

وضحكت مرة أخرى وواصلت :

— سوف يشاهد شعب السوق سلطانه ورجال دولته وهم يباعون عرايا ٠٠ !

ولما رجعت الى البهو رأت أمامها « المجنون » واقفا فى هدوء ٠٠ انزعجت مرتجفة ٠٠ ماذا جاء به ؟ ، كيف اقتحم دارها ؟ ، هل سمع حديثها للرجال ؟ سألته :

— كيف دخلت دارى بلا دعوة ولا استئذان ؟

فقال بهدوئه :

— رأيت الرجال يتتابعون فثار شوقى للمعرفة ٠٠

صفقت بيديها منادية العبد فأدرك ما تريد فقال :

— لقد ذهب !

فسألته غاضبة :

فى موعده جاء المعين بن ساوى بدقة فلكية تعكس عيانه معاناة عاشق قديم ٠٠ رمى بالبذرة فى خفة طفل سعيد ، لم ير من الوجود الفخم الا كوكبه الساطع ، وثل بالنشوة حتى استقر عند قدميها ٠٠ ليس فى الجلسة الا بروق الوعود السعيدة المحتدمة ولا مكان بها للعواقب ٠٠ شرب من يد العبد تارة ومن يدها أخرى وتمادى فى أفانين الهوى حتى تجرد من ثيابه فارتد للعصر البدائى ٠٠ وهو يندفع بها نحو الفراش اندفع العبد داخلا مهرولا وانكب على أذنيها فأسر إليها بسر خطير كما بدا ٠٠ وثبت واقفة ، أسدلت على جسدها البض طيلسانها وهمست محموعة :

— زوجى وصل ٠٠

أفاق الرجل من سكرته بضربة قاضية فشدته من يده الى حجرة جانبية ، ثم أدخلته فى صوان ، أغلقته باحكام ، وهى تقول من خلال رجفة الاضطراب والذعر :

— ستذهب بأمان فى الوقت المناسب ٠٠

فهتف الرجل :

— الى بئىابى ٠٠

فقالت وهى تبتعد :

— انها فى الحفظ والصون ، اصمت ، لا صوت ولا حركة والا

ملكنا ! ٠٠

— الى أين ؟

— دعينا منه وأكرمي ضيفك ..

بدا مفروق الشعر مسترسله .. غزير اللحية ، حافى القدمين ،
فى جلباب أبيض فضفاض ينبعث من طوقه شعن صدره .. أتوقعه فى
شراكها ؟ أقبلت ولكن فى فتور .. لأول مرة لا يحدث وجهها أثره ..
انه فتنة ولكن للعقلاء لا المجانين .. اقتربت من المائدة مثبّية وقالت :

— ان كنت تريد طعاما فكل ..

فقال بازدرأ :

— لست متسولا !

فتساءلت مدافعة اليأس :

— اليك الشراب ..

— رأسى ملئ بالبدنان !

— لا يبدو عليك سكر ..

— ما أنت الا عمياء ..

فقطبت مستوحشة ، وسألته :

— ماذا تريد ؟

فسألها بدوره :

— كيف تعيشين فى قصر مهجور خال من كافة وسائل الحياة ؟

فنظرت فيما حولها بقلب منقبض وتساءلت :

— ألا يعجبك هذا الجمال كله ؟

— لا أرى الا جدراننا تتردد بينها أنفاس الوباء القديم ..

جاء دورها لتتعري كالأخرين .. استسلمت ضعيفة أمام جنونه
المقتم .. انهزم الاغراء كما انهزم التمويه .. ولته ظهرها لتفكر ..
تحركت شفتاه بتلاوة خفية .. لم تسعفها المقاومة اليائسة .. وزحف
عليها ما يشبه النوم الثقيل .. تراخت أعصابها .. تركت تيار التغير

يتدفق .. مضت قسماات وجهها تذوب وتنداح فصارت عجينة مقورمة
.. تقوضت القامة الفارمة وطارت منها الملاحه والرشاقة .. بسرعة
عجيبة لم يبق منها الا نقاط منفصلة .. استحالت دخانا ثم تلاشت
غير تاركة أى أثر .. فى أعقابها اندثرت الأرائك والوسائد والأبسطة
والتحف .. انطفأت القناديل .. فنيت فساد الظلام .. حمل ركام
ثياب الرجال فقذف بها من نافذة ومضى نحو حجرة الأصونة ..

— ١٩ —

قال المجنون يخاطب من فى الأصونة :

— لن أعفيكم من العقاب ، ولكنى اخترت لكم عقابا ينفعكم ولا
يضر العباد ..

فتح الأقفال بسرعة ثم غادر المكان ..

— ٢٠ —

تسلل الرجال من الأصونة فى حذر واعياء يترنحون من الالهراق
.. لم يفتح أحد منهم فاه من القهر والخجل .. عراة الأجساد عراة
الكرامة يتخبطون فى الظلام .. يفتشون عن ملابسهم ، عن أى ملابس
عن أى شيء يستتر العورة .. الوقت يمضى لا يرحم والنور يقترب
والفضيحة تومض فى الظلام .. جالوا فى الظلام يستكشفون المكان
بأنزعهم المدودة .. لا أثر لشيء .. لا أثر لحياة .. وهم أو كابوس

أما الفضيحة فحقيقة .. انه الذل واليأس .. واسترشدوا بالجدران
نحو الباب الخارجى ودبيب الزمن يتلاحق خلفهم .. وما ان تنفسوا
هواء الطريق حتى تشهدوا وبعضهم بكى .. المدينة خالية .. فرصة
واى فرصة .. انطلقوا حفاة عرايا فى ظلمة الليل .. بصقهم المجد،
وعلاهم الخزى ، وكسا الائم وجوههم بطبقة من القصدير المذاب ..

قوت القلوب

— ١ —

كان المجنون يترنم بأوراد الفجر فى مطلع الخريف عندما تنامى
اليه تحت النخلة صوت ساكن الماء مناديا .. هرع الى حافة النهر
وهو يقول :

— أهلا بأخى عبد الله البحرى ..

فقال الصوت :

— انى أعجب لشأنك ..

— لماذا ؟

— طالما قتلت المنحرف لانحرافه فما بالك تجنب الاثمين الفضيحة ؟
فقال المجنون بأسى :

— أشفقت أن يصبح الصباح فلا تجد الرعية سلطانا ولا وزيرا

ولا حاكما ولا كاتم سر ولا رجل الأمن فى أخذها أقوى الأشرار ..

— وهل أجدت حكمتك ؟

— أراهم يعملون وقد ملأ الحياء قلوبهم وقد خبروا ضعف

الانسان ..

فهمس عبد الله البحرى :

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

— فى مملكتنا المائية نجعل الحياء شرطا ضمن شروط عشرة يجب
أن تتوافر فى حكامنا ٠٠
فقال المجنون مقتنهدا :
— ويل الناس من حاكم لا حياء له ٠٠

— ٢ —

تأخر الوقت برجب الحمال خارج البوابة ٠٠ ولدى عودته فى
الظلام رأى أشباحا تفتح مدفنا وتدخله ٠٠ وعجب لما يدعوههم لذلك
قبيل الفجر فأغراه قلبه باقتحام لغز غير يسير ٠٠ وما لبث أن تسلق
السور فانبطح على بطنه وراح ينظر نحو الفناء على ضوء شمعة
خافت أمسك بها شبح ٠٠ رأى نفرا من العبيد تفتح قبرا منعزلا كأنما
أعد للخدم ، ثم رآهم يحملون صندوقا فيودعونه القبر ويهيلون عليه
القرباب ٠٠ انتظر حتى فارقوا المكان ٠٠ فكر أيضا فى الذهاب ولكن
الصندوق الماح عليه ٠٠ ماذا يحوى ؟ ، ولماذا دفنوه فى هذه الساعة
التأخرة ٠٠ ولم تعفه نفسه من المتاعب فوثب الى الفناء ٠٠ وبهمة
واصرار فتح القبر واستخرج الصندوق ٠٠ ولولا قوته وتمرسه بحمل
الأحمال ما استطاع أن يفعل ٠٠ وعالج الصندوق حتى فتحه وأشعل
شمعة يحتفظ بها فى رحلاته ، وألقى نظرة فارتعد اشفاقا ورعبا ٠٠
ثمة جارية كاليدى فى تمامه مكشوفة الوجه ، فى ثوب لا كفن ، ميتة
ولا شك ولكنها تبدو كنائمة ٠٠ أدرك أن ملايسات الدفن تومىء الى
جريمة ما ٠٠ كما أدرك أنه ورط نفسه فى مأزق ما كان أغناه عنه ٠٠
وفى الحال توثب للفرار دون أن يفكر فى إعادة الصندوق الى قبره
أو اغلاقه ٠٠

— ٣ —

وعندما وثب الى الخلاء وجد أمامه شبحا فتقلص قلبه . ولكنه
سمع صوت المعلم سحلول تاجر المزايدات يتساءل :
— من هنا ؟
فأجاب مخفيا ارتباكاه ما استطاع :
— رجب الحمال يا معلم سحلول ٠٠
فسأله ضاحكا :
— ماذا كنت تفعل فى الداخل ؟
فأجابه على البداة :
— ربنا أمر بالسرى يا معلم ٠٠
أراد أن يوحى اليه بأن وراء السور امرأة فضحك سحلول
وتساءل متهكما :
— ألا يوجد فى هذه المهينة رجل فاضل ؟

— ٤ —

استعبده الخوف ٠٠ لم يعرف من قبل المأزق الخطيرة ٠٠ لاح له
النطع كمصير مظلم ٠٠ صلى الفجر بجسده أما عقله فاستأثرت به
الوساوس ٠٠ سوف تكتشف الجثة ٠٠ يشهد سحلول برؤيته وهو يثب
من فوق سور المدفن ٠٠ وهو الحمال المرشح لحمل الصندوق ٠٠ فاما
الهروب واما الاعتراف بالحقيقة قبل أن تكتشف ٠٠ وهو مرتبط بالأهل

والأرض .. ليس كقرينه السندباد الغائب فى البحر .. وهو أيضا
ممن يعطف عليهم الساوى بن معين كبير الشرطة .. فليقصده
وليُعترف بين يديه بكل شيء ..

— ٥ —

عقب الصلاة عزم على لقاء المعين بن ساوى ولكنه رآه مسرعا
فوق بغلته وبين حرسه .. تبعه على الأثر فوجده ماضيا نحو دار
الزنى ينتظر منصرفه .. وكان سليمان كبير الشرطة ثائرا ، وكانت
داره تعاني اضطرابا شاملا .. لقي الحاكم كبير الشرطة ساخطا
وقال له بغضب :

— ما هذا الذى جرى فى دار الامارة ؟ .. هل رجعنا الى أيام
الفوضى ؟

فوجم المعين وسأل عما جرى فقال الحاكم :

— جاريتى قوت القلوب لا أثر لها كأن الأرض ابتلعته ..

فذهل المعين وتساءل :

— متى حدث ذلك ؟

— رأيته أمس والآن لا وجود لها ..

— ماذا قال أهل الدار ؟

— يتساءلون مثلى وقد ركبهم الخوف ..

تفكر المعين قليلا ثم قال :

— لعلها هربت !

فاحتقن وجه سليمان الزنى بدم أسود وصاح :

— كانت أسعد الجوارى ، عليك بالعثور عليها ..

نطق بها بثورة وعيد واضحة ..

— ٦ —

أمام باب الدار وجد رجب الحمال فى انتظاره .. تقدم منه حانى
الرأس وقال :

— مولاي .. لدى ما أقوله ..

فقاطعه بحدة :

— اغرب عن وجهى .. هذا وقت كلام يا غبى ؟

فقال الحمال بالحاح :

— حلمك يا سيدى .. انها جريمة قتل .. الجثة خارج البوابة ،

والتأجيل حرام ..

انتبه الرجل الى قوله متسائلا :

— أى جريمة .. وما دخلك فيها ؟

فقص عليه القصة بسرعة ولهجة والآخر يتابعه باهتمام

متزايد ..

— ٧ —

مع أول شعاع للنور حمل الصندوق الى بهو دار الامارة ..

أحدق به سليمان الزنى والمعين بن ساوى ورجب الحمال .. قال

كبير الشرطة بحزن :

— اهتديت الى مكان قوت القلوب وجئت بها ولكنها للأسف جثة

هامدة !

ارتجف سليمان الزنى رغم رزائقه تحت ضغط عواطفه ..

فتح المعين بن ساوى الصندوق .. انحنى فوقه الزينى بوجه يطفح
بالحزن مغمما « انا لله وانا اليه راجعون » .. أغلق المعين الصندوق
وهو يتمتم :

— أطال الله بقاءك وهون من أجزائك ..
صاح سليمان :

— الويل للمجرم .. اكتشف لى الأسرار التى أطاحت بسعادتى ..
— مولاي .. ما زال اللغز لغزا .. كيف غادرت الدار ؟ أين قتلت ؟
من قتلها ؟ اليك يا مولاي شهادة تطوع بها هذا الحمال ..
وروى له الشهادة ، فرمى الزينى رجب بنظرات من نار وقال له :
— أيها القدر ، أنت أنت القاتل أو عنده خبره ..
فهتف الحمال مرتعدا :

— ورب السماوات والأرض ما أخفيت عنكم كلمة واحدة ..
— اخترعت أسطورة تستر بها على فعلتك ..
— لولا صدقى ما ذهبت بنفسى الى كبير الشرطة معترفا بما
شاهدت ..

غير أن المعين بن ساوى فاجأه بما لا يتوقع قائلا :
— فى هذا كذبت يا رجل .. (ثم متلفتا الى الحاكم) .. لقد قبض
عليه فى مكان الجريمة ..

فذهل رجب .. لم يصدق أذنيه .. سأله :
— ماذا قلت ؟

فكرر الرجل :

— لقد قبض عليك ولم تجيء بنفسك ..
— أنت تقول ذلك ؟

فقال بازدرأ مصطنع :

— الواجب فوق الرحمة ..

قصرخ فى وجهه :

— لن تفلت من الله يا مفترى ..

فقال له الزينى :

— اعترف وجنب نفسك أهوال التعذيب ..

فقال رجب بيأس :

— كبير الشرطة كذاب .. لا علم لى بشيء سوى ما قلت ..

وتذكر الواقعة الوحيدة التى أخفاها فواصل :

— أحضروا المعلم سحلول تاجر المزايدات فقد رأيته قريبا من

المدفن ..

— ٨ —

جىء بالمعلم سحلول .. لم يغير شيء من هدوئه المألوف .. سئل
عما دعاه للتواجد قرب المدفن فى تلك الساعة من الليل فقال :

— تستوى جميع الأمكنة والأزمنة عندى بحكم عملى ..

وقص عليهم حكاية ضبطه مصادفة لرجب وهو يثب من فوق

السور .. فسأله المعين :

— أتعقد أنه القاتل ؟

فقال بهدوء :

— لا بينة لدى ، ثم انه لا يوجد قاتل بلا قتيل فأين القتيل ؟

— فى هذا الصندوق ..

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— دعونى أره ..

فتح المعين الصندوق ونظر سحلول الى الجثة مليا ثم قال :

— الجارية ما زالت تنبض بالحياة ..

ترقق الأمل فى عينى الزينى ورجب على حين صاح به المعين :

— أتسخر منا يا مجرم ! ..

فقال مخاطباً الزينى :

— أسرع باحضار طبيب والا ضاعت الفرصة ..

— ٩ —

جاء الطبيب عبد القادر المهنى وفى الحال عكف على فحص

« الجثة » .. رفع رأسه وقال :

— ما زالت حية !

ندت عن الزينى آهة سرور على حين اصفر وجه المعين بن ساوى

حتى حاكى وجوه الموتى .. وواصل عبد القادر :

— دس لها قدر من البنج يكفى لقتل فيل !

وراح يعالجها حتى لفظت ما فى بطنها وحركت رأسها .. صاح

الحمال :

— الحمد لله رب المظلومين ..

وقال سحلول وهو يختلس من كبير الشرطة نظرة خفية :

— سوف تكشف لنا سر الحكاية ..

— • —

— ١٠ —

مضت مدة مشحونة بالصمت والانفعالات حتى عادت قوت القلوب
الى وعيها .. رأت وجه الزينى أول ما رأت فمدت له يدها مستغيثة
فقال برقة :

— لا تخشى شيئاً يا قوت ..

فهمست :

— انى خائفة ..

— انك بين أحضان الأمان فابتسمى ..

لمحت المعين بن ساوى فاضطربت هاتفة :

— هذا الوحش ..

ساد صمت مذهل .. قالت :

— لا أدري كيف أخذنى الى دار خالية ، هددنى بالقتل اذا لم

أذعن لمرغباته الدنيئة ، ثم لم أعد أدري شيئاً حتى الساعة ..

تركزت الأعين فوق كبير الشرطة .. صاح الزينى :

— أيها الكلب الخائن ..

جرده من سيفه وخنجره وهو يقول :

— ما أسرع أن يدب الفساد من جديد ..

وأمر بسجنه حتى يحقق معه بنفسه ، على حين أعلن براءة

الحمال وتاجر المزادات ، واستبقى المعلم سحلول قليلاً فقال له :

— انى مدين لك بالكثير يا معلم سحلول ، ولكن خبرنى لك خبرة

بالطب ؟

فأجاب باسم :

— كلا يا مولاي ، ولكن لى خبرة بالموت !

— • —

قال سليمان الزينى للمعين بن ساوى :

- ما تصورتك خائنا أبداً ، وظننت أن المحبة التى وقعنا فيها جميعا قد طهرتنا وأن حياتنا ستقوم على العدل والنقاء ، وإذا بك تخون الأمانة وتستهين بالكرامة وتتمادى فى الفسق والجريمة .. فقال المعين :

- لا أنكر شيئاً مما تقول ، لقد أعلننا توبة ولكن الشيطان لم يتب

بعد ..

- لا عذر لك ولأجعلن منك عبرة لكل معتبر ..

- مهلاً .. لست صيدا سهلاً ، والشر انبثق من دارك ..

- عليك اللعنة ..

فقال بهدوء :

- لى شريك هى الست جميلة زوجتك ..

ارتجف الرجل غاضبا وصاح :

- ماذا قلت ؟

- دعتنى بدافع الغيرة وأغرتنى بالتخلص من جاريتك المفضلة

قوت القلوب ..

- خائن ومفتري ..

- يجدر بك أن تحقق مع زوجتك أولا ..

- زعم باطل لن ينجيك من النطع ..

فقال الرجل بتحد :

- سأطالب بتحقيق عادل ، وسيجرى على ما يجرى عليها ..

فالشريعة فوق الجميع ..

ما بين يوم وليلة شاخ سليمان الزينى وتهدم .. ولم تتوان فقررت ست جميلة حتى أقرت بتدبيرها .. تصدى للحقيقة بحيرة بالغة .. إعلان الحقيقة يعنى القضاء على أم أولاده كما يعنى القضاء على مركزه .. والحق واضح ولكن تبين له أنه أضعف من أن يتخذ القرار الحق .. وجد نفسه منحدرًا الى العفو عن الاثنين ، كى تبقى جميلة فى داره كما يبقى المعين فى وظيفته .. واتخذ القرار المتهالك وفقد شرفه ..

غير أن قوت القلوب صارحته بأنه لا بقاء لها فى داره بعد اليوم ، ولا أمان لها فيها .. فاضطر الى عتقها وتزويدها بالمال ، وتركها تذهب آخذة معها قلبه ..

خفقت قلوب بالأسى .. تناجى قمقام وسنجام ، المجنون وعبد الله البحرى .. حزنوا لسقوط التائبين .. أما قوت القلوب فعاشت وحيدة فى دار جميلة .. عاشت فى أمان من الحاجة ولكن فى غشاء من الوحشة .. ومع أن سيدها استجاب لطلبها وأكرمها ولكنها لم تعفه من الملامة لتفريطه فيها ، ومرارة الوحدة تشتعل جديما بالحب الخائب .. وسعى اليها طلاب الزواج حبا وطمعا فرفضتهم جميعا .. رفضت حسن العطار كما رفضت جليل البراز .. ورغب فيها آخرون عن بعد كالمعين بن ساوى ، وتساءل رجب الحمال أليس من حق من أحيا ميتا أن يملكه ؟

ووقعت أحداث بسيطة لم ترمش لها أعين المدينة ولكنها هزت
أفئدة أصحابها .. تزوج إبراهيم السقا من ست رسمية أرملة جمصة
البلطى .. وعرض بيت المال دار جمصة البلطى للبيع فأمر سليمان
الزينى بدفن رأس جمصة فى مقابر الصدقة .. ولم يفت المجنون أن
يشهد دفن رأسه ، وقال لنفسه انه أول انسان يشيع نفسه الى دار
البقاء ، وسعد بزواج أرملته من ابراهيم السقا لأن وحدتها أمست
تنغص عليه صفوه .. وثقل على المعين بن ساوى الشعور بالنبذ فبأ
صفحة جديدة فى التعاون الريب مع التجار والأغنياء .. وأمطرت
السماء فى ذلك الخريف على غير عادة ..

وكان ثلاثة أشباح يخترقون الظلمة صامتين .. وتخت دار قوت
القلوب نادتهم أوتار عود وصوت شجى تهادى اليهم يناجى رطوبة
الخريف :

من عادة الدهر ادبار واقبال
فما يدوم له بين الورى حال
كم أحمل الضيم والأهوال يا أسفى
من عيشة كلها ضيم وأهوال
ثقلت خطاهم حتى توقفت ، وهمس أحدهم :
- هذا مطلبنا يا دندان !

طرق شبيب رامة السياف الباب ففتحت جارية تسأل عن الطارق
فقال شهريار :

- دراويش من رجال الله ينشدون مؤانسة شريفة ..
غابة الجارية قليلا ثم رجعت فقادتهم الى حجرة استقبال ناعمة
الوسائد والمفارش قد أسدل على ديوانها الرئيسى ستار يحجب صاحبة
الدار .. تساءلت قوت القلوب :

- تريدون طعاما ؟

فقال شهريار :

- بل نريد مزيدا من غناء ..

فكررت الصوت على مقام جديد حتى سبح الرجال فى طرب رائع
.. وقال شهريار :

- أنت مغنية يا هذه ؟

فهمست :

- كلا يا رجال الله ..

فقال السلطان :

- صوتك ينطق بحزن دفين ..

- وأى حى يخلو من حزن ؟

فتساءل برقة :

- ماذا يحزنك ودارك ناطقة بالنعيم ؟

فلاذت بالصمت فعاد شهريار يقول :

- احكى لنا حكايتك فصناعتنا فى الحياة مداواة القلوب
الكليمة ..

فشكرته ثم قالت :

- سرى لا يباح يا رجال الله ..

وأصرت على الصمت فاستأذنوا فى الانصراف والسلطان ضيق
الصدر بصمتها ٠٠ ومال على أذن دندان قائلاً :

— آتنى بسر هذه المرأة الصامتة ٠٠

— • —

— ١٦ —

مطالب السلطان جبال ثقال لا تنزاح عن كاهله حتى يحققها .
وهو أعلم بغضبه اذا خاب له مطلب ، وما زال السلطان متأرجحاً
بين الهدى والضلال فلا تؤمن غضبته ٠٠ لذلك استدعى حاكم الحى
سليمان الزينى ٠٠ وصف له موقع دار قوت القلوب وقال :

— فى الدار امرأة غامضة ذات صوت عذب وهم خفى . يريد
مولانا السلطان فؤادها صفحة مبسوطة لا خفاء فيها ٠٠

زلزلت نفس الزينى وأدرك أنه مسوق الى الاعتراف ٠٠ سيتحرى
دندان عن الحقيقة لدى كل من يأنس عنده قدرة على كشف الأسرار
من الرجال وعلى رأسهم الفضل بن خاقان ٠٠ ستهدى اليه الحقيقة
عاجلاً أو آجلاً فليكن على الأقل صاحب الفضل فى الاعتراف تقرباً من
السلطان ٠٠ وهو ذو خلق فلم يطمئن قلبه لحظة بتصرفه ويفضل
عنه بأى سبيل ٠٠

وأفضى الى الوزير دندان بمكنون سره ٠٠

— ١٧ —

ولما تلقى شهريار الحقيقة من وزيره غضب وهتف :

— لا بد من ضرب عنقى المعين وجميلة زوجة الزينى ٠٠

غير أن غضبه فتر فجأة ٠٠ لعله تذكر هروبه ليلاً عارياً والاثم
يطارده ، ولعله تذكر أن الزينى والمعين كانا من خيرة الرجال . على
أنه فصل الرجلين من عملهما ، وصادر أموالهما ، كما أمر بجلد
جميلة والمعين ٠٠ وهب قوت القلوب عشرة آلاف دينار ، وسألها
بعطف :

— ماذا تطلبين أيضاً يا جارية ؟

فقالت قوت القلوب :

— أسألك يا مولاي العفو عن سليمان الزينى ٠٠

فتبسم السلطان وسألها :

— يبدو أنك ما زلت تحبينه ٠٠

فغضت بصرها حياء ولكنه قال بحزم :

— لقد صدر أمرنا بتولية الرجال الجدد ولا رجوع فيه ، بذلك

يصبح الفضل بن خاقان حاكماً ، وهيك الزعفرانى كاتم سر ،

ودرويش عمران كبير للشرطة ٠٠

فشفت عيناها عن دمع يود أن ينطلق فقال شهريار :

— بيدك أنت أن تعفى عنه ولعلك خير له من الامارة !

فلثمت موطئ قدميه وهمت بالانصراف فسألها :

— ماذا نويت يا جارية ؟

فأجابت ببساطة وبعينين مغرورقتين :

— العفو يا مولاي ٠٠

— • —

علاء الدين أبو الشامات

— ١ —

هتف جمصة البلطى فى هدأة الليل تحت النخلة « اللهم حررنى
من أمس ٠٠ اللهم حررنى من غد » ٠٠
وإذا بصوت سنجام يقول له :
— نحن نحب ما تحب ولكن بيننا وبين الناس حاجز من المقادير
ولعلت ضحكة زرمياحة ثم قالت :
— لماذا خلق الشهد والخمر ؟
وكان شهريار ماضيا فى جولاته الليلية مع رجله فقال لندنان :
— تمر بى هواتف متلاحقة ولكنى دائر الرأس فى مقام الحيرة ٠

— ٢ —

نحيل القوام ، مشرق الوجه ، ناعس الطرف ، فوق كل خد شامة ،
يهم بولوج المراهقة فى حياء ٠٠ رمقه عجر الحلاق وقال :
— تعلمت ما أنت فى حاجة اليه فخذ العدة واسرح والله يرزقك ٠
وتمت فتوحة :
— ربنا يكفيك شر أولاد الحرام ٠٠
وذهب الفتى نشيطا مستبشرا فقال عجر وكأنما يخاطب نفسه :

— له جمال نور الدين فاللهم أسبغ عليه حظه ٠٠
فقال فتوحة :

— حجابى فوق صدره يصده عن طريق أبيه ٠٠
فرماها عجر بنظرة سامة ولكنه لم ينبس ٠٠

— ٣ —

مضى يعمل فى الطريق والدكاكين وكل من تقع عليه عيناه يقول :
— تبارك الخلاق العظيم ٠٠

واختار سلم السبيل ساعة الراحة فنشأت مودة سريعة بينه وبين
فاضل صنعان بياح الحلوة ٠٠ ومرة دعاه الى مسكنه بالربيع فرأى
زوجته أكرمان وأمه أم السعد وأخته حسنية ٠٠ تحركت مراهقته خفية
فارتطمت بورعه وتربيته الدينية التى تلقاها فى الكتاب فجعل يعتل
بالعلل كلما دعاه فاضل الى مسكنه ٠٠ ولس فاضل ورعه فقال له :

— انك فتى جدير بكلمات الله المستكنة فى قلبك ٠٠

فغمغم علاء الدين :

— انه من فضل ربى ٠٠

فسأله يحذر :

— ما شعورك عندما ترى المعاصي تجتاح الناس ؟

فتمتم :

— الحزن والأسف ٠٠

— وما جدوى ذلك ؟

انجذبت عينا علاء الدين نحو الركن الأيمن فهجر حديث صاحبه
 وهو الى حين ٠٠ ثمة شيخ نحيل بهيج الوجه ذو نظرة آسرة ٠٠ خيل
 اليه أنه لم ينظر نحوه مصادفة ٠٠ وجد عيني الشيخ في انتظاره ٠٠
 ثمة دعوة خفية من هناك واستجابة من هنا ٠٠ ارتاح اليه كما يرتاح
 السليم الى بهجة الورد المتفتحة ٠٠ ولا حظ فاضل انصرافه عن حديثه
 الى الشيخ فقال له :

- الشيخ عبد الله البلخي رأس الولاية ٠٠
- فتساءل علاء الدين بأريحية :
- لماذا ينظر الى ؟
- فقال فاضل بغموض :
- ولماذا تنظر اليه ؟
- فهمس :
- الحق اني أحببته ٠٠
- فقطب فاضل ولم يجد ما يقوله :

— ٥ —

- غادر علاء الدين المولد وحده مقترع الصدر بأصداء الأناشيد ٠٠
- سبح في الظلام تحت ضوء النجوم الخافت ونسمة الخريف تلاففه ٠٠
- إذا بصوت عميق مؤثر يدركه مناديا :
- يا علاء الدين ٠٠
- فتوقف وقلبه يناجيه أن هذا الصوت من ذاك الشيخ يصدر ، لحق
 به الشيخ وقال له :
- أنت مدعو ل صداقتي ٠٠
- فقال بحياء :
- نعم الدعوة يا مولاي ، ولكن كيف عرفت اسمي ؟

- فتبذت الحيرة في عينيه وتساءل :
- ماذا تريد أيضا ؟
- الغضب !
- وكررها ثم قال :
- المرعى الطيب جدير بالأسد ٠٠

— ٤ —

أشرق الحى بمولد سيدي الوراق ٠٠ زحفت المواكب وتلاطمت
 الأعلام وتجاوبت الدفوف والمزامير ٠٠ اجتمع أهل الخير وأهل النفاق
 حول جفان الثريد ٠٠ ولاح في مجالس الخاصة سحلول وحسن
 العطار وجليل البزاز وسليمان الزيني والمعين بن ساوى وشملول
 الأحذب ، وتواجد أيضا فاضل صنعان وعجير الحلاق ومعروف
 الاسكافي وابراهيم السقاء ورجب الحمال ٠٠ جاء أيضا - بمفرده
 لأول مرة - علاء الدين أبو الشامات ٠٠ أجلسه فاضل الى جانبه وهو
 يقول :

- لو بعث الوراق لامتشق السيف !
- ابتسم علاء الدين ابتسامة من يزداد خبرة بمعرفة صاحبه ٠٠
- فقال فاضل بنبرة ذات مغزى :
- ما دام الطيبون لا يمتشقون السيوف !
- قال علاء الدين ببراعة :
- يتحدثون كثيرا عن توبة مولانا السلطان ٠٠
- فقال فاضل بسخرية :
- أحيانا يقوب عن توبته ، ويقينا أنه ليس أحق المسلمين بالولاية !

فلم يجبه وواصل :

- دارى معروفة لمن يريد ..

فقال كالمعتذر :

- عملى يستغرق نهارى كله ..

- انك لا تدري ما عملك ..

- لكنى حلاق يا سيدى ..

فلم يحفل باجابته وسأله :

- لماذا حضرت مولد الوراق ؟

- احب الموالد من صغرى ..

- ماذا تعرف عن الوراق ؟

- انه ولى من الصالحين ..

- اليك قصة رويت عن لسانه ، قال : « أعطانى شيخى بعض وريقات بقصد أن أرميها فى النهر فلم يطاوعنى قلبى على هذا العمل ووضعتها فى بيتى وذهبت اليه وقلت له قد أدبت أمرك فسألنى وماذا رأيت فقلت لم أر شيئا فقال لم تعمل بأمرى .. ارجع فارمها فى النهر فرجعت متشككا فى العلامة التى وعدنى بها ، ورميتها فى النهر فانشق الماء وظهر صندوق وفتح غطاؤه حتى سقطت الوريقات فيه ففقل والتقت المياه فرجعت اليه وأخبرته بما حصل فقال لى الآن رميها فسألته أن يبين لى سر ذلك فقال قد كتبت كتابا فى التصوف لا يمكن أن يناله الا الكمل فطلبه منى أخى الخضر وقد أمر الله المياه أن تأتيه به ..

فذهل علاء الدين ولاذ بالصمت ، فمضيا معا على مهل والشيخ

يقول :

- ومن أقواله الماثورة « فساد العلماء من الغفلة ، وفساد الأمراء

من الظلم ، وفساد الفقراء من النفاق » ..

فتمتم علاء الدين منتشيا :

- ما أعذب حديثه ! ..

فقال بصوت ارتفع درجة فى هدأة الليل :

- فلا تكن من قرناء الشياطين ..

فتساءل مدفوعا بشوق ساخن :

- من هم قرناء الشياطين ؟

فأجابه الشيخ :

- أمير بلا علم ، وعالم بلا عفة ، وفقير بلا توكل ، وفساد العالم

فى فسادهم ..

فقال علاء الدين بحماس :

- أريد أن أفهم ..

- الصبر يا علاء الدين ، ما هى الا بداية تعارف على مشهد من

النجوم ، ودارى معروفة لمن يريد ..

- ٦ -

حلم علاء الدين تلك الليلة بأن « المجنون » جاءه بجلبابه المسدول

على اللحم وقال له :

- أرسل لحيتك ..

فعجب لطلبه فقال المجنون :

- ما هى الا شبكة للصيد ..

فقال علاء الدين :

- ولكنى حلاق لا صياد ..

فصاح المجنون :

- خلق الانسان ليكون صيادا ..

- • -

—٧—

على طبلية الفطور حكى لوالدية حكاية الشيخ عبد الله البلخي
ففرحت فتوحة وقالت :
- بركة من ربنا ..

أما عجر فاستمع اليه بفتور وقال :
- ما أنت الا حلاق ، وانك لمتدين بما فيه الكفاية فاحذر المغالة .
وبسبب هذا الاختلاف تشاجر الزوجان وتقاذفا بكلمات قارصة .

—٨—

وفوق سلم السبيل راح يصغى لحديث فاضل بدهشة ، ثم سأله :
- انك حائق على رجالنا الاجلاء ..
فسأله فاضل :

- هل عرفتهم عن قرب ؟

- أحيانا يصحبني أبى معه الى دورهم كمساعد له ، فرأيت عن
قرب الفضل بن خاقان حاكم حيننا وهيكل الزعفراني كاتم السر
ودرويش عمران كبير الشرطة ..

- لا يعنى هذا أنك عرفتهم ..

- رجال عظام ، واحد فقط انقبض قلبي لראه هو حبظلم بظاظة
ابن درويش عمران ، خيل الى أن به شبهها بالشیطان !

- هل رأيت الشيطان ؟

- لا تسخر منى ، ما هو الا شعور ..

- تنهد فاضل صنبعان قائلاً محادثاً نفسه :

- الأوغاد !

- كيف أسأت الظن بهم ؟

- لا دخان بلا نار !

- فتفكر قليلاً ثم قال :

- الله موجود ..

- فهتف فاضل :

- لكننا ضمن أدواته التي يصنع بها الخير أو يمحق الشر !

- فنظر اليه فى عينيه متسائلاً :

- ماذا تريد يا فاضل ؟

- فقال بغموض :

- أطمح أن أجعلك صديقاً وزميراً !

—٩—

جلس فى حجرة الاستقبال البسيطة بدار البلخي ينتظر دخوله ..
انها أول زيارة يقوم بها فى أول الليل .. وكان سمع أباه عجر يروى
حكاية عن الشيخ أكربته وأحزنته .. قال ان درويش عمران كبير
الشرطة خطب الابنة الوحيدة للشيخ لابنه حبظلم بظاظة .. انها ابنة
تقية نقية أخذت العهد عن أبيها ، وفاتقة الجمال .. وتذكر صورة
حبظلم بظاظة الشيطانية وما يقال عن سيرته فاستاء وتضاعف حزنه
.. ومضى أبوه فى روايته فقال ان الشيخ شكر واعتذر ، ولكن لا شك

أن كبير الشرطة قد غضب ، وإذا غضب كبير الشرطة فلا أمان
للمغضوب عليه .. وقد سأل أباه :

— ألا يدرك الشيخ البلخي هذه الحقيقة ؟
فأجاب عجر :

— معروف عن الشيخ أنه لا يخشى إلا الله ، ولكن هل يخشى كبير
الشرطة الله ؟!

وجاء لزيارته بقلب ثقل بالحزن له .. ولكنه ما كاد يراه مقبلا
مشرقاً حتى نسي حزنه وأدرك أنه حقاً لا يخشى إلا الله .. تربع الرجل
على شلثة في الصدر وسأله :

— ما شعورك وأنت تزورني لأول مرة ؟

فقال علاء الدين صادقاً :

— أشعر كما لو كنت أعرفك منذ ولدت ..

فقال باسمًا :

— لكل منا أب آخر والسعيد منا من يكتشفه ..

— وحديثك في ليلة المولد أسر قلبي ..

— نحن نشد إلى الطريق الأكفاء الضالين ، ماذا قال أبوك ؟

اضطرب علاء الدين وقال :

— أنه يريدني على أن أكرس قلبه لعملى ..

فقال جامداً :

— أنه نائم ويأبى أن يصحو ، ولكن كيف تقيم نفسك يا علاء الدين ؟

لم يدر بماذا يجيب فسأله متبسّطاً :

— أرى مسلم أنت ؟

— أرى مسلم صادق ..

فتساءل :

— هل تصلى ؟

— الحمد لله ..

— أرى أنك لم تصل قط ..

فنظر إليه بدهشة فقال الشيخ :

— الصلاة عندنا تؤدي بعمق فلا يشعر صاحبها بمس النار إذا

أحرقته ..

فصمت علاء الدين مغلوباً على أمره فقال الشيخ :

— فعليك أن تقبل الإسلام من جديد لتصير مؤمناً حقاً ، وعندما يتم

لك الإيمان تبدأ الطريق من أوله إذا شئت ..

ظل علاء الدين صامتاً فقال الشيخ :

— لا أهون من مشقة الطريق بمعسول الكلام فنور الخلاص

ثمرة مضمون بها على غير أهلها ، والله يتقبل منك ما دون ذلك ، ولكل

على قدر همته ..

وخيم الصمت حتى شقه علاء الدين متسائلاً :

— أيقضى ذلك أن أتخلّى عن عملى ؟

فأجاب بقوة :

— لكل شيخ طريقة ، أما أنا فلا أقبل إلا العاملين ..

فقال علاء الدين :

— سوف أجيء بقلبي وقدمى ..

فقال :

— لا تجيء إلا إذا دفعتك رغبة لا تقاوم !

— ٩ —

- حقا انى لفى حيرة ..

فقال فاضل :

- المنطلق من الايمان دائما وابدأ ، الطريق واحد فى الاول ثم
ينقسم بلا مقر الى اتجاهين .. احدهما يؤدى الى الحب والفناء .
والآخر الى الجهاد ، أما اهل الفناء فيخلصون أنفسهم وأما اهل
الجهاد فيخلصون العباد ..
وغرق علاء الدين فى تفكير عميق نسى به الوقت ..

- ١١ -

كان درويش عمران كبير الشرطة وابنه حبظلم بظاظا يمضيان على
بغلتين من مقر الشرطة الى دارهما والشمس تؤذن بالغيب .. وعند
متعطف ميدان الرماية طالعهما فجأة المجنون فاعترض سبيلهما
صائحا فى وجه درويش عمران :

- زر صاحبك المعين بن ساوى وبلغه السلام !

وذهب الرجل الى حال سبيله فتساءل حبظلم :

- ماذا يريد المجنون ؟

فقال كبير الشرطة :

- لا يحاسب مجنون على قول أو فعل ...

لكنه أدرك أنه يذكره بمصير كبير الشرطة وأنه يشير الى
انحرافات .. ابنه أيضا أدرك ذلك رغم تساؤله خاصة وأنه يقوم

بالوساطة عادة بين التجار وأبيه .. وقال حانقا :

- للمجانين مكان لا يبرحونه ..

فقال درويش عمران :

- ١٠ -

اقبل على فاضل صنعان فى ماتقى السبيل شخصا جديدا ..
توجس فاضل ريبة فهمس بنفاد صبر :

- حتى متى تتركنى فى مقام الأمل ؟

فقال علاء الدين :

- أنى فى مقام الحيرة ..

- اهتديت الى دار الشيخ ؟

- أجل ، كيف عرفت ذلك ؟

- أعرف أثره ..

ثم مستدركا :

- وقد طفت به طويلا !

- أنت !

- نعم ..

- انه شيخ طاهر ..

فحنى رأسه مسلما وهو يقول :

- هو ذلك وأكثر ..

- لعل الصبر خائف فانقطعت ؟

- تلقيت على يديه تربية لا تزول آثارها ولكنى آثرت البقاء على

الفناء ..

- لا أفهم يا صديقى ..

- اصبر ، الفهم لا يتيسر الا مع الزمن ، أود أن أراك من جنودائه

لا من دراويشه !

- انه يحظى بعطف مولانا السلطان ..

فقال حبطلم بازدياء :

- انه يخافه فيما ارى ..

- احذر لسانك يا حبطلم !

فهتف الشاب :

- اى هوان يا أبى ، ألم يكفيننا أن الشيخ المنحرف رفض يدى !

فقطب درويش عمران دون أن ينبس ..

- ١٢ -

« من كان سروره بغير الحق فسروره يورث الهموم ، ومن لم يكن
أنسه فى خدمة ربه فأنسه يورث الوحشة »

بين دروس الدين يلقيها الشيخ على علاء الدين تفيض كأسه
بنثار الكلم المضيئة كأنما يناجى بها ذاته ولكن الفتى يتلقاها مبهورا ..

- كل من عليها فان الا وجهه ، ومن يفرح بالفانى فسوف ينتابه
الحزن عندما يزول عنه ما يفرحه ، كل شئ عبث سوى عبادته ، الحزن
والوحشة فى العالم كله ناجم عن النظر الى كل ما سوى الله ..

وتذكر علاء الدين أحلامه وأحاديثه وأفعاله فتبدت له الدنيا
غشاء من الالغاز ، وتذكر أباه وأمه فهيمن عليه الأسى ..

- من رزق ثلاثة أشياء مع ثلاثة أشياء فقد نجا من الآفات ، بطن
خال على قلب قانع ، وفقر دائم مع زهد حاضر ، وصبر كامل مع ذكر
دائم ..

وقال علاء الدين لنفسه اننا نصلى للرحمن الرحيم باسم الرحمن
الرحيم .. واذا بالشيخ يسأله :

- قيم تفكر يا بنى ؟

فخرج من غفوته مورد الخدين وقال :

- لن يخرجنى من حيرتى الا لطف الرحمن ..

- عليك قبل أن تتلقى الخمر أن تطهر الوعاء وتنقيه من

الشوائب ..

فقال برجاء :

- نعم المرشد أنت ..

- ولكن « الآخر » يقحم نفسه علينا وهو غائب !

فأدرك أنه يشير الى فاضل صنعان فتساءل :

- كيف تراه يا مولاي ؟

- شاب نبيل عرف ما يناسبه وقنع به ..

- أهو على ضلال ؟

- انه يجاهد الضلال على قدر همته !

فقال علاء الدين بسرور :

- الآن اطمأن قلبى ..

- ولكن عليك أن تعرف نفسك ..

- انه فقير ولكنه غنى بحمل هموم البشر ..

- مذهب للمسيح ومذهب للحب ..

فصمت علاء الدين فقال الشيخ :

- طوبى لمن تم له تحويل القلب من الأشياء الى رب الأشياء ، ليس

يخطر الكون ببالى ، وكيف يخطر الكون ببال من عرف الكون ؟

واصل الشيخ بعد ذلك درسه ..

وذات ليلة استقبله الشيخ في الحجرة نفسها ولكنه رأى ستارة
مسدولة في ركنها الأيمن فغزته خواطر الشباب .. وقال الشيخ :

— اسمع يا علاء الدين ..

تحركت أوتار عود من وراء الستار وأتشد صوت عذب :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس سارى

والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

سكن الصوت ولكن صدها واصل نفاذه الى الأعماق .. قال

الشيخ :

— هذه زبيدة ابنتى وانها لمريدة صادقة ..

غمغم علاء الدين منتشيا :

— أنعم وأكرم ..

— لقد رفضت أن أعطيها لابن كبير الشرطة ..

ثم مواصلا بعد صمت :

— ولكنى وهبتها لك يا علاء الدين ..

فقال بنبرة مرتعشة من التأثر :

— ما أنا الا حلاق متجول ..

فأشد الشيخ :

زائر نم عليه حسنه كيف يخفى الليل بدرأ طلعا

ثم قال :

— من ذل في نفسه رفع الله قدره ، ومن عز في نفسه أنزله الله في

أعين عبادة ..

عقد لعلاء الدين على زبيدة .. انتقل الفتى الى دار الشيخ الكبير
.. شهد الوليمة البسيطة عجر وفتوحة وفاضل صنعان والمعلم سحلول
وعبد القادر المهينى .. ووفد المجنون بلا دعوة فجلس الى يمين
العريس .. وعقب الوليمة مضى عجر الى داره بصحبة نفر من خاصته
فدارت أرطال النبيذ ، وراح يرقص ويغنى حتى مطلع الفجر ..

ولم تمض على ليلة الزفاف أيام حتى تكدر صفو الحى بأحداث
الليمة ، فزحف عليه وباء الشر بوجهه الكالح .. فقدت جوهرة نادرة
من دار الامارة جزعت لفقدائها حرم الحاكم الفضل بن خاقان ، وتذكر
بها الحاكم أحداث الفوضى التى تنتاب الحى بين الحين والحين من
اغتيالات وسرقات تنكشف عن أبشع المؤامرات وتنتهى بقتل الحاكم
أو عزله .. وصب الرجل غضبه على درويش عمران كبير الشرطة
ولكن الرجل نفى عن جهازه الغفلة ووعد بالقبض على الفاعل والعثور
على الجوهرة ..

وأطلق كبير الشرطة مخبريه فى كل مكان من الحى .. وبناء على
ما تلقى من معلومات اقتحم دار الشيخ عبد الله البلخى غير مبالي

بتذمر الأهالي ، وفتشها تفتيشا دقيقا ، وإذا به يعثر على الجوهرة
فى صوان علاء الدين ، كما عثر به على رسائل تقطع بتعاونه مع
الخوارج ، هكذا قبض على علاء الدين وألقى به فى السجن فتفررت
محاكمته بصفة عاجلة ٠٠

— ١٦ —

فى تلك الاثناء شاع الحزن فى قلوب الناس ٠٠ لم يحرق الحزن
زبيدة وحدها ، ولا فتوحة وعجر وحدهما ، ولكن القلوب تألمت لمصير
الفتى الجميل ، وأصرت على تبرئته مما رُمى به ، وأشارت الى كبير
الشرطة وابنه حبظلم بظاظة باعنيارهما المديرين للجريمة ٠٠ وزاد من
شك الناس ظهور نعمة مساجنة على المعين بن ساوى فأمنوا بأن
المديرين استعانوا بخبرته السابقة كرئيس للشرطة فى تنفيذ ما بيئا ٠٠
والتمس عجر الرأفة عند الفضل بن خاقان وهىكل الزعفرانى ولكنه
وجد منهما الزجر والرفض ٠٠ وحث الشيخ عبد الله البلخى على
السعى مستعينا بمهابته ولكن لم تند عن الشيخ كلمة أو حركة ٠٠
وتلاحقت الاجراءات بسرعة مذهلة فحوكم علاء الدين وقضى عليه
بالنطق ٠٠

— • —

— ١٧ —

وفى صباح يوم بارد من أيام الخريف سيق علاء الدين الى النطع
فى حراسة مشددة ، وسط جمهور غفير من أهل الحى جمع بين
الرسميين والكادحين ٠٠ لم يصدق علاء الدين ما يحدث ٠٠ وكان
بصيح :

— انى برىء والله شهيد ٠٠

زاغ بصره بين الوجوه المحملقة ، المشفقة والشامطة ، ورفع وجهه
الى السماء المتوارية وراء السحب مسلما أمره الى خالقه ٠٠ تنهى
اليه صراخ أمه وزوجته فارتجف قلبه ٠٠ تذكر رغم ذهوله أنه كان يأمل
أن يخرج من حيرته الى سيف الجهاد أو الحب الالهى ، ولم يخطر
بباله أبدا سيف الجلاذ ٠٠ وتطلع كثيرون الى معجزة تقع فى اللحظة
الأخيرة كما حدث لعجر وغيره ولكن السيف ارتفع أمام أعينهم فى جو
قاتم ثم هوى مبددا الآمال فانفصل الرأس النبيل الجميل عن الجسد ..

— ١٨ —

فى دار الشيخ تأوه عجر هاتفا :

— ابنى برىء ٠٠

وولدت زبيدة :

— برىء طاهر وحسبى الله ٠٠

وتربع الشيخ صامتا وهادئا .. لم يفعل شيئا وحتى الحزن لم
يعلنه .. وقالت له ابنته :
- انى معذبة يا أبى ..
وقال له عجر بعنف :
- لم تحرك ساكنا كأن الأمر لا يعينك ..
نظر الى ابنته دون مبالاة بعجر وقال :
- الصبر يا زبيدة ..
ثم استطرد بعد صمت :

- اليك حكاية شيخ جليل قال « سقطت فى حفرة وبعد مضى ثلاثة
أيام مرت على قافلة من المسافرين فقلت أناديهم ، ثم اذنتيت عن عزمى
قائلا لا ، انه ليس من الصالح أن أطلب المساعدة الا من الله تعالى ،
ولما اقتربوا من الحفرة وجدوها فى وسط الطريق فقالوا لنسد هذه
الحفرة حتى لا يقع فيها أحد ، فقلقت قلقا شديدا حتى فقدت كل رجاء ،
فبعد أن سدوها وسافروا دعوت الله تعالى وسلمت نفسى للموت وتركت
كل رجاء فى بنى الانسان فلما جن الليل سمعت حركة على ظاهر
الحفرة فأنصت لها فانفتحت فم الحفرة ورأيت حيوانا كبيرا كالتنين
أرسل الى ذيله فعلمت أن الله قد أرسله لنجاتى فأمسكت بذيله وسحبني
فنادانى صوت من السماء : انا قد نجيناك من الموت بالموت » ..

السلطان

— ١ —

مضى الرجال الثلاثة يخوضون الظلماء فى ثياب تجار غرباء .
شهریار وندان وشبيب رامة .. اقتربت منهم أشباح ثلاثة ولما حاذتهم
سألهم أحدهم :

- ماذا تفعلون فى هذه الساعة من الليل ؟

فأجاب شهریار :

- تجار غرباء يتداوون من الضجر بأنسام الربيع ..

فقال صاحب الصوت :

- أنتم ضيوفى يا غرباء ..

فدعوا له بالبركات ومضوا جماعة واحدة وشهریار يتساءل .

- ترى من يكون مضيفنا الكريم ؟

فقال صاحب الصوت :

- صبرا يا سادة يا كرام !

— ● —

— ● —

ساروا حتى شاطئ النهر .. اتجهوا نحو سفينة تنتظر تشع منها
أضواء المصابيح كالكوكب .. تساءل شهريار :
نحن مرتبطون بالسوق فهل ترومون سفرا ؟
فأجاب صوت آخر :
— أيها الغرياء انكم بحضرة مولانا السلطان شهريار فادوا له تحية
الملك واحمدوا الله على حظكم السعيد ..
عقدت الدهشة السنة الرجال الثلاثة .. أى سلطان ؟ ، وأى
شهريار ؟ ، وتجمدوا فى ذهولهم فلم تند عنهم حركة .. عند ذاك
صاح صاحب الصوت الثانى :
— التحية يا غرياء ..
أفاق شهريار من ذهوله .. صمم على خوض التجربة حتى نهايتها
.. سرعان ما انحنى أمام السلطان المزعوم فتبعه فى الحال دندان
وشبيب رامة .. قال :

— نضر الله وجه أمير المؤمنين وأطال عمره وأدام عهده ..
تبعوه ضمن الحاشية حتى جلس على عرش تحت مظلة فى أعلى
السفينة فاتخذوا مجالسهم فوق وسائد مطروحة على فسحة منبسطة
فيما أمام العرش .. وأقلعت السفينة فى جو ربيعى تحت بسمات
النجوم الساهرة ..



رست السفينة الى شاطئ جزيرة .. استقبلها الحرس بالمشاعل
.. همس شهريار الحقيقى فى أذن دندان :
— انها لملكة جديدة ونحن نيام !
— لعله الحشيش يا مولاي ؟
— ولكن مم ينفقون على هذه المظاهر الباذخة ؟
فقال الوزير بقلق :
— عما قليل تنطق الحقيقة بلسانها الخفى ..
دخلوا سرادقا مثيرا فوجدوا سماطا حافلا بالأطعمة والأشربة
فى انتظارهم .. تحلقه جمع غفير من رجال الملكة فأصابوا من الطعام
حتى شبعوا ، ومن الشراب حتى توهجت أرواحهم بالنشوة والبهجة
.. وأنشدت جارية من وراء ستار :

لسان الهوى فى مهجتي لك ناطق
يخبر عنى أننى لك عاشق
فهمس شهريار فى أذن دندان :

— يا لها من مأدبة ملكية وما نحن الا رعية ..
وعند لحظة معينة صاح السلطان الآخر :
— أن لنا أن نعقد المحكمة الالهية ..
فسأل دندان مولاه :

— ألا نستأذن فى الانصراف حتى نرسل الجند لمحاصرتهم قبل أن
يتفرقوا ؟

فقال شهريار :

— التآمر ضد السلطان وسرقة جوهرة الست قمر الزمان زوجة
الحاكم الفضل بن خاقان ٠٠

— من المدير للمؤامرة فى رأيك ؟

— حبظلم بظاظة وأبوه كبير الشرطة درويش عمران وقد استعاننا
بالمعين بن ساوى المنبوذ لانحرافاتة فنجح فى سرقة الجوهرة كما نجح
فى دسها فى صوان علاء الدين مع رسائل مزورة تنطق بخيانتة لمولانا
السلطان ٠٠

— وما الدافع وراء المؤامرة ؟

— الانتقام من علاء الدين لأنه تزوج زبيدة كريمة ولى الله البلى
الذى رفض أن يزوجه من حبظلم بظاظة لسوء خلقه وخلقه ٠٠
— هل لديك دليل على ما تقول ؟

— براءة علاء الدين فوق أى دليل ، سل عنه أهل الحى جميعا ،
والمؤامرة حقيقية يؤمن بها الجميع ، ولو كان عندى دليل واضح
لأنقذت عنق البرىء الطاهر ، ولكنى أضع أملى فى عدل السلطان
وتأثيره الذى لا يقاوم ٠٠

وفى الحال نحى السلطان عجز الحلاق واستدعى حاكم الحى
الفضل بن خاقان فمثل الرجل بين يديه تنطق قسمات وجهه بالرهبة
والانكسار ٠٠ قال له السلطان ٠٠

— أيها الحاكم ، لا شك عندى أنك من الصالحين ، لقد اخترتك
بعد تربية وتجربة ، أستحلفك بالله العظيم أن تفضى الى بسر هذه
القضية فلا شك عندى أنك عليها مطلع ٠٠

بسط الحاكم راحتيه مغمما :

— اللهم فاشهد ٠٠

ثم قال مخاطبا مولاه :

— عقب مصرع علاء الدين نما الى ما يتهامس به الناس من براءته

— بل نبقى لأشهد بعينى ما يجرى مما لم يجر لى فى خاطر ٠٠
وسرعان ما رفع قوم السماط ٠٠ وجيء بمنصة محكمة فنصبت
فى صدر السرادق ٠٠ جلس عليها السلطان الآخر ، وقف الى يمينه
وزيره ، وإلى يساره السياف ٠٠ وانبعث فى الأركان الحراس شاهرى
السيوف ٠٠ وجلس شهريار الحقيقى وتابعاه ضمن قلة من الصفوة
أذن لها بمتابعة محكمة العدل الالهى ٠٠

— ٤ —

قال السلطان الآخر من فوق المنصة مخاطبا الصفوة الحاضرة :
— أحمد الله الذى يسر لى التوبة بعد انغماسى فى سفك الدماء
البريئة ونهب أموال المسلمين ، انه سبحانه واسع الرحمة والمغفرة .
فامتنع وجه شهريار الحقيقى ولكن لم تند عنه حركة واحدة ٠٠
وواصل السلطان الآخر حديثه قائلا :

— هذه المحكمة تنعقد للتحقيق فى شكوى مرفوعة من رجل بسيط ،
لو صبح ما جاء بها لكشف عن جريمة بشعة ، اغتيلت فيها البراءة
لحساب الخسة والدناءة والظلم ، والله المستعان أولا وأخيرا ، فليدخل
صاحب الشكوى عجز الحلاق ٠٠
ودخل الرجل فوقف أمام المنصة فى حذر وخشوع فقال له
السلطان :

— ما شكواك يا عجز ؟

فقال الرجل بصوت متهدج :

— ابنى الوحيد علاء الدين راح ضحية مؤامرة وحشية غادرة ٠٠
— ما التهمة التى ضربت عنقه من أجلها ؟

وأجرام الآخرين فانزعجت انزعاج رجل نشأ متشبعاً بمبادئ الدين
الحنيف ، وبثت عيونى بين الرجال والأحياء فظفروا بالحقيقة من فم
المعين بن ساوى وهو سكران ، فما كان منى الا أن هممت بالايقاع
بالمجرمين ، غير أنى ..

صمت الحاكم ملياً ثم قال بذل :

- غير أنى ضعفت يا مولاي ، فأنا الذى حاكم علاء الدين وقضى
بضرب عنقه ، خفت عواقب الكشف عن الحقيقة واعلانها فمن قتل
نفساً فقد قتل الناس جميعاً ..

فقال السلطان :

- وخفت العواقب على سمعتك ومركزك كحاكم .. !
فنكس الرجل رأسه ولاذ بالصمت .. فسأله السلطان :
- هل علم كاتم سرك بالحقيقة ؟

فقال الرجل بأسى :

- نعم يا مولاي ..

قال السلطان مخاطباً الجميع :

- لله حكمته فى خلقه أما نحن قلنا الشريعة .. لذلك قضينا بضرب
اعناق المعين بن ساوى ودرويش عمران وحبطلم بظاظة ، كما قضينا
بعزل الفضل بن خاقان وهيك الزعفرانى مع مصادرة أملاكهما ! ..

- ٥ -

وجيء بالنطع والمجرمين فتحرك السياف .. عند ذاك لم يتمالك
شهرىار الحقيقى من أن يقف قائلاً بصوت جهورى :

- كفوا عن هذه المهزلة !

توثب الحراس ، وهتف السلطان من فوق المنصة :

- من اذن لك بالكلام أيها الغريب المجنون ؟

فنهزه السلطان قائلاً بحزم :

- أفق من جنونك أنت ، أنك تخاطب السلطان شهرىار ..

الجمت المفاجأة الألسنة ، وقف الى جانبى السلطان دندان وشبيب
رأمة شاهرى سيفيهما .. أما السلطان فأخرج من جيبه خاتم الملك
ولوح به فى وجه الآخر .. أفاق السلطان الزائف من ذهوله فوثب
من فوق المنصة ، ثم سجد بين يدى السلطان ، وقال بنبرة مرتعشة :
- عبدك ابراهيم السقاء ..

- ما معنى هذه المهزلة ؟

فقال الرجل وهو ينتفض من الرعب :

- عفوا يا مولاي .. ايدن لى برواية حكايتى واغفر لى حماقتى ..

- ٦ -

قص ابراهيم السقاء قصته على السلطان بمجلسه الصيفى
بالقصر .. قال :

- منذ صباى يا مولاي وأنا من المتوكلين على الله ، أكرح أمن
الفجر حتى المغيب ، رزقى محدود وقلبى قنوع وسلوتى فى الجوزة
.. ويسر الله لى نعمة كبيرة فتزوجت من أرملة جمصة البلطى ولم
أكن أحلم بأكل اللحمة الا فى عيد الاضحى .. ولما قتل ابن صديقى
عجر الحلاق انقلبت موازينى ، وسمعت ما يتهامس به الناس فهيمت
على حزن لم أعرفه من قبل وقلت اننا نحن الفقراء ليس لنا الا الله ..
وكان القدر يحبى لى مفاجأة لا تخطر بالبال فعثرت على كنز خارج

البوابة وصرت من أغنى الأغنياء .. فكثرت - وهو المألوف - أن
استأثر بالمال وحدي ، ولكن حبى للفقراء دفعنى الى سبيل آخر
فصممت على انشاء مملكة وهمية نهيم فيها جميعا يدا واحدة ..

تبسم شهريار وقال مقاطعا :

- الحشيش استهلك عقلك ..

- لا انكر ذلك ، فالفكره لا تخطر الا ببال حشاش ، وتحمس
الصعاليك لها أيما تحمس .. وقع اختيارنا على تلك الجزيرة المهجورة
توجت نفسى سلطانا واخترت من الحفاة الجياع الوزراء والقادة
ورجال المملكة ، ولم نكن نتلاقى لتمثيل لعبتنا الا فى الليل فننقلب من
صعاليك متشردين الى رجال مملكة عظام ، نأكل ما نشتهى ونشرب
ما نحب ، وتبادل الأحاديث فى شئون المملكة كل بحسب موقعه ودرجته
.. ولما كانت المؤامرة التى أهلكت علاء الدين تلح علينا فنعتقد كل ليلة
محكمة يأخذ فيها العدل مجراه بعد أن عز عليه ذلك فى الدنيا ..

فتساءل السلطان ساخرا :

- وأضعت الكنز يا حشاش ؟

- لم يبق منه الا القليل ولكننا اشترينا به سعادة لا تقدر بمال !



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com



سر شهريار بحكاية ابراهيم السقاء سرورا لا مزيد عليه ولكنه
قال لدندان :

- وافنى بما يشاع عن مصرع علاء الدين بن عجر الحلاق ..

فقال الوزير :

- ستجد المفتاح يا مولاي عند الفضل بن خاقان فاستدعه ولك

عليه التأثير الاكبر ..

فتساءل السلطان :

- أترى أن نسترشد بما فعل السلطان ابراهيم السقاء ؟

فقال دندان :

- الحق يا مولاي أنها كانت محاكمة عجيبة تقطع بأن الحشيش

لم يستهلك كل عقله ..

فقال شهريار :

- لا أخفى عنك أنى أعجبت بالحكم أيضا !

هكذا جرت الأمور فوقع الظالمون فضربت أعناق المعين بن ساوى

ودرويش عمران وحبطظم بظاظة وعزل الفضل بن خاقان وهيكل

الزعفرانى وصودرت أملاكهما ..



وكان فاضل صنعان يخلد الى الراحة فوق سلم السبيل في أعقاب
نهار حار من فصل الصيف .. انه يفتقد دائما علاء الدين ويترحم
عليه من قلب مكلوم .. ويتساءل في غضب متى يجيء الفرج ؟ ..
وانتبه الى رجل مشرق الصورة بسام الثغر يقبل نحوه فيجلس الى
جانبه .. تبادل تحية ولكن الرجل أولاه اهتماما كأنما جاء من أجله ..
انتظر فاضل أن يفصح الرجل المشرق عن خواطره ولما لم يفعل قال :

— لست من حيننا فيما أعتقد ؟

فقال الرجل بمودة :

— صدقت قراستك ولكنني اخترتك ..

— فحذره بحدس تلقنه من مطاردة المخبرين وسأله :

— من أنت ؟

— لا أهمية لذلك ، المهم حقا أننى من رجال الأقدار ، ومعى لك

هدية ..

فقطب فاضل فى حذر أشد وهو يتساءل :

— من مرسلك ؟ أفصح فأننى لا أحب الألغاز !

فقال باسم :

— وانى مثلك تماما ، اليك الهدية ففيها الغناء عما عداها ..

أخرج من جيب جلبابه طاقة مزخرفة بتهاويل ملونة لم ير مثله
من قبل ، وأحكم لبسها على رأسه فسرعان ما اختفى عن الأنظار فى
غمضة عين ذهل فاضل وقلقت عيناه فيما حوله بخوف .. وتساءل :

— أخلما أرى ؟

طاقة الاخفاء

قال سخربوط بفتور :

— عباس الخليجي حاكم الحى ، سامى شكرى كاتم السر ، خليل
فارس كبير الشرطة ، لا يتوقع منهم انحراف قريب ..
فتساءلت زرمباجة بسخرية :

— لماذا ؟ ..

— جاءوا فى اثر تجربة مريرة أطاحت بالمنحرفين ..

— دعنا من الحكام حتى يفسدهم الحكم ، وانظر الى ذلك الفتى

الهمام فاضل صنعان !

فقال سخربوط ساخطا :

— انه مثال حى للعمل المفسد لنوايانا وخططنا ..

— يا له من هدف جدير حقا بمهارتنا وحننا ..

فتسرب المرح الى صوته وهو يقول :

— انك كنز لا يقنى يا زرمباجة ..

— فلنفكر معا فى لعبة طريفة جديدة بنا ..

فسمع صوت الرجل يتساءل ضاحكا :

- ألم تسمع عن طاقة الاخفاء ؟ .. هذه هي بين يديك ..
ونزع الرجل الطاقة فعاد متجسدا كما كان في مجلسه .. تتابع
ضربات قلب فاضل في عنف وانفعال ، وسأله بلهفة :
- من أنت ؟

- الهدية حقيقة ملموسة ولا أهمية لسؤال بعد ذلك ..
- هل تنوى اهداءها لى حقا ؟
- من أجل هذا قصدتك دون العالمين ..
- ولماذا أنا بالذات ؟

- ولماذا يعثر ابراهيم السقاء على الكنز ؟ .. ولكن لا تبدد كنزك
كما يبدد كنزه !

قال لنفسه ان الدنيا تخلق من جديد ، وان العناية تخصه بهذه
الهدية لانقاذ البشر .. وسرغان ما أفعم قلبه بالهام نبيل .. واذا
بالرجل يسأله :

- فيم تفكر ؟ ..

- فى أشياء جميلة تسرك ..

فتساءل بحذر :

- خبرنى عما ستفعل بها ؟

فقال بتألق :

- سأفعل ما يمليه على ضميرى ..

فقال الرجل :

- أفعلى أى شىء الا ما يمليه عليك ضميرك !

فبردت نظرة عينيه وغشيتها الخيبة والانزعاج وسأله :

- ماذا قلت ؟

- أفعلى أى شىء الا ما يمليه عليك ضميرك ، هذا هو الشرط ، وأنت

وأنت حر فيما تقبل أو ترفض ، ولكن احذر الخداع فعنده تفقد الطاقة
وقد تفقد حياتك أيضا ..

- اذن فانت تدفعنى للشر يا هذا !

- شرطى واضح ، لا تفعل ما يمليه عليك ضميرك ، ولك ألا ترتكب

شرا أيضا ..

- فماذا أصنع بها ؟

- بين هذا وذاك أشياء كثيرة لا تنفع ولا تضر وأنت حر ..

- لقد عشت حياة كريمة ..

- واصليها كما تشاء ولكن بعمايتك لا بالطاقة ، ثم ماذا جنيت

منها ؟ .. الفقر والسجن بين الحين والحين ..

- هذا شأنى ..

قام الرجل قائلا :

- أن لى أن اذهب فماذا نقول ؟ ..

وجب قلبه بلهفة .. انها فرصة لا تلوح مرتين .. لم يستطيع

رفضها .. قال بثقة :

- هدية مقبولة ولا خوف على منها ..

- ٣ -

بدءا من صباح اليوم التالى انطلق فاضل صنعان مثل الهواء
يحل فى أى مكان ولا يرى .. هيمنت عليه التجربة السحرية الجديدة ..
.. جرب أن يكون زوحا خفيا متنقلة فأنساه السرور كل شىء حتى
سعيه اليومى فى سبيل رزقه .. شعر بالاختفاء أنه يعطى ويسود ،
ويتساوى مع القوى الخفية ، وأنه يملك زمام الأمور ، وأن مجال الفعل
يتراعى أمامه بلا حدود .. انها عطلة فريدة يستريح بها من جسمه

وأعين الناس وقوانين البشر ٠٠ وتصور ما كان يمكن أن تيسره لوغد من الأوغاد فشكر الحظ الذي خصه بالرعاية ٠٠ ومن قرط سروره لم ينتبه لنفسه الا حين حلول المساء ٠٠ هناك تذكر أن أكرمان وأم السعد ينتظران دراهمه المحدودة لاعداد العشاء وشراء المواد اللازمة لصنع الحلوى ٠٠ جزع وأدرك أنه لا يستطيع أن يرجع الى مسكنه بالربيع فارغ اليدين ٠٠ ومر بدكان قصاب وكان يحصى ربح يومه على حين تنحى صعبه جانبا ٠٠ قرر أن يستولى على ثلاثة دراهم هي مقدار ربحه اليومي متعهدا بردها عند الميسرة ٠٠ ولم يجد بدا من دخول الدكان واخذ الدراهم ٠٠ وخرج الى الطريق منقبض الصدر لتورطه لأول مرة في حياته في السرقة ٠٠ ونظر نحو الدكان فرأى القصاب ينهال بالضرب على الصبى ثم يطرده متهما اياه بالسرقة !

— ٤ —

بعد العشاء فكر في التخفيف عن نفسه بزيارة مقهى الأمراء تحت الطاقية ٠٠ ثمة فرص للمداعبة البريئة مع أخذ الحيلة في ألا يتورط في فعل شائن كما تورط في دكان القصاب ٠٠ رأى الوجود المألوفة لأول مرة دون أن تستطيع رؤيته ٠٠ جرى بصره بسخرية على حسن العطار وجليل البزاز وعجر الحلاق وشملول الأحذب والمعلم سحلول وابراهيم السقاء وسليمان الزينى وعبد القادر المهينى ورجب الحمال ومعروف الاسكافى ٠٠ سمع عجر الحلاق يتساءل :

— ماذا أخر فاضل صنعان ؟

فاجاب شملول الأحذب بصوته الرفيع ضاحكا :

— لعل مصيبة دهمته !

قرر أن يعاقب المهرج ٠٠ جاء النادل يحمل أقذاح الكركديه ، وإذا بالصينية تندلق فوق رأس الأحذب وتغمره بسوائلها ٠٠ وثب الأحذب صارخا على حين وقف النادل مبهوتا ٠٠ أخفى الرجال ضحكات ساخرة ٠٠ لطم المعلم صبيه وراح يعتذر لمهرج السلطان ٠٠ ومبالغة في الاسترضاء جاء المعلم بنفسه بالكركديه وإذا به ينصب فوق رأس سليمان الزينى ! ٠٠ انتشر الذهول والسرور الخفى ، وأكثر من صوت صاج :

— انه الحشيش والمنزول ٠٠

وأفلت الزمام من عجر فتناسى أحزانه وضحك ولكنه لم يهنا بضحكه فتلقى على قفاه صفة مدوية ٠٠ التفت مغضبا فرأى وراءه معروف الاسكافى فضربه بقيضته في وجهه وسرعان ما اشتبك في معركة ٠٠ وساد الظلام اثر حجر أصاب الفانوس ٠٠ وفي الظلام انتهالت الصفعات ، فثار الغضب والتحموا في صراع في الظلام ، وعلا الصراخ حتى تناثروا في الطريق على حال قبيحة من الجنون والخوف ٠٠

— ٥ —

مارس حياته المألوفة مخفيا الطاقية في جيبه لحين الحاجة اليها ٠٠ قال انه لم يجن منها حتى الآن الا أن سرق ، واركتب سخافات لا معنى لها ٠٠ ساوره قلق وضيق ٠٠ قال انه ما كان بوسعه أن يتجاهل فرصة نادرة مثلها ٠٠ ولم يكن لديه مجال للتأمل ولكن ما جدوى ذلك كله ؟ ٠٠ وإذا تعذر عليه صنع خير بالطاقية فما عسى أن يفعل بها ؟ ٠٠ وكان يستريح على سلم السبيل بعد الغروب على مبعدة يسيرة من بياح بطيخ متجول فرأى شاور مقبلا نحو الرجل لابتياح بطيخه ٠٠

من السرقة للمسخف ثم الجريمة .. سقط في الهاوية .. ولما
ضربت عنق بياح البطيخ في اليوم التالي هيمن عليه يأس مطلق ..
هام في الطرقات على وجهه كالمجنون .. كره نفسه لدرجة كره معها
الدنيا وأحلامه الخالدة .. همس لنفسه :

— الاعتراف والجزاء الحق ، هذا ما بقى لى ..

فراى أمامه الآخر وهو يقول :

— حذار !

فصاح به غاضبا :

— عليك اللعنة ..

فتلاشى وهو يقول :

— أهذا جزاء من سلمك مفتاح القوة واللذة !

وتمطى السخف في ذاته مشعشا بالجنون الأحمر فراح يسكر
مناديا الشياطين من مكائنها .. وتذكر خواطر مثقلة بالشهوة
كانت تداعبه فيطردها بالاعراض والتقوى .. تجسدت في اشعاعات
جنونه الأحمر في صورتين ، قمر أخت حسن العطار ، وقوت القلوب
زوجة سليمان الزينى .. قال لنفسه ما دامت الخمر قد ألقيت في
جوفى فما خوفى من السكر ؟ لم يبق لى الا حسن الامتثال لللعنة
.. فلأرفع نفسى الى السماء ولتنطلق الشياطين من قماقمها ..
وليقدم العذاب مكللا بالضحايا ..

ارتعدت مفاصله لرؤيته فهو سجان اشتهر بتعذيب اخوانه .. رآه
يمضى بالبطيخة نحو زقاق قريب حيث يقيم فيما بدا له فتبعه .. ولما
أمن المارة لبس الطاقية فتلاشى .. وكأنما نسى تعهده فاستل السكين
التي يقطع بها الحلوى .. فليجرب على الأقل كيف يحول « الآخر »
بينه وبين ما يود أن يفعل .. لحق بالسجان وهو عنه لاه .. وجه الى
عنقه طعنة قاتلة فسقط غارقا في دمه ..

أثمله شعور بالنصر .. يستطيع أن يفعل ما يشاء .. ولم يبرح
المكان ليتابع الحدث .. شاهد التجمهر على ضوء المشاعل .. جاء
الشرطة .. سمع أن السجان لفظ اسم بياح البطيخ قبل أن يلفظ
أنفاسه .. رأى الشرطة وهى تقبض على البياح البرىء .. تعجب
فاضل من ذلك وانزعج له .. ماذا كان بين السجان والبياح مما جعله
يوقع به ؟ .. استفحل انزعاجه وقال لنفسه :

— لا مفر من انقاذ الرجل البرىء ..

عند ذاك رأى صاحب الطاقية أمامه وهو يقول له :

— حذار أن تخون العهد ..

فدعر فاضل متسائلا :

— ألم تتركنى أقتل المجرم ؟

فقال الآخر :

— كلا .. لم تقتل المجرم ولكنك قتلت توأمة وهو رجل طيب لا غبار

عليه !

— ٧ —

وتساءلت قمر العطار .
 - لماذا فاضل صنعان ؟ .. يا له من حلم ! ..
 ولكنها لمست للحلم آثارا لا تنكر فذهلت وقالت كأنه الشيطان .
 استحوذ عليها الرعب وتخايل لعينيها الموت ..
 وقالت قوت القلوب :
 - انه كابوس .. ولكن لماذا فاضل صنعان وما خطر لى فى وجدان
 قط ؟ ..
 ولكن عن الكابوس تولدت آثار حقيقية فانفجر فيها الفزع .
 واكتشف سليمان الزينى سرقة نقوده .. وجاء خليل فارس كبير
 الشرطة .. وكتمت قوت القلوب خبر الكابوس .. وأطبقت عليها فكرة
 الموت ..

— ٨ —

حافظ على حياته اليومية نهارا ولم يتخلف عن مقهى الامراء ..
 وردد كثيرا فى نفسه :
 - رحمك الله يا فاضل صنعان .. كنت فتى طيبا مثل علاء الدين
 وافضل ..
 وصادفه المجنون فى تجواله فقدم له بعض الحلوى كعادته معه
 ولكن المجنون لم يمد يده هذه المرة ومضى لسبيله وكأنه لم يرد ..

الرتعب وحامت حوله المخاوف كالذباب .. المجنون لم يتغير لغير ما
 سبب .. لعله شعر بالشيطان وراء جلده .. غمغم :
 - على أن أخشى المجنون ..
 فرأى الآخر صاحب الطاقة يتسم اليه مشجعا ويقول :
 - صدقت ، وليس هو الوحيد الجدير بالخشية ..
 فقطب صنعان وشعر بذل ثم قال بحدة :
 - دعنى وشأنى ..
 فقال بهدوء :
 - اقتل المجنون ، لن يشق عليك ذلك ..
 - لا تقترح على فلا يدخل ذلك فى الاتفاق ..
 - يجب أن نصير أصدقاء ، لذلك أنصحك أيضا بأن تقتل البلخى
 ذلك الشيخ المخرف ..
 - لسنا أصدقاء ولن أفعل شيئا الا بمحض حريتى ..
 - أسلم بهذا تماما ، ولن تندم ، انك تتعذب بحكم تغيير العادة
 ولكنك ستبلغ الحكمة الباهرة وتفهم الحياة كما ينبغى لك ..
 فصاح فاضل :
 - انك تسخر منى ..
 - أبدا .. انى أحرضك على قتل أعدائك قبل أن يقتلوك ..
 فقال بقرف :
 - دعنى وشأنى ..

وقعت أحداث مثيرة للشجن ٠٠ فقد افترس مرض غامض فى وقت واحد تقريبا امرأتين جميلتين فاضلتين ، قمر العطار ، وقوت القلوب امرأة سليمان الزينى ٠٠ ولم تنفع فى انقاذهما اخلاص عبد القادر المهينى وخبرته ٠٠ وبموتهما حمل الطبيب هما خفيا احتار كيف يتعامى معه ٠٠ هل يصمت صونا لسمعة أصدقائه ؟ ٠٠ هل يخشى أن يغطى صمته على مجرم وجريمة ؟ ٠ تفكر الرجل طويلا ثم مضى الى مقابلة خليل فارس كبير الشرطة ٠٠ قال له :

— سأطرح عليك همى لعل الله يهدينا الى سواء السبيل ٠٠
وتنفس الرجل بعمق ثم استطرد :

— ليس مرضا ما أصاب قمر شقيقة حسن العطار وقوت القلوب امرأة سليمان الزينى ، فقد تبين لى أنهما تناولتا سما قتلتهما ببطء ٠٠
تمتم كبير الشرطة باهتمام :

— انتحار ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ جريمة قتل كيف ؟ ٠٠
— قبيل احتضار كل منهما لفظت باسم فاضل صنعان بتقزز ورعب ٠٠

فهن الرجل رأسه باهتمام متصاعد فقال الطبيب :

— خلاصة ما فهمته أنهما حلمتا ذات ليلة بأنه اعتدى عليهما ،
ثم وضع لهما أن ثمة آثارا تقطع بأن الحلم كان حقيقة واقعة ٠٠
— هذا مذهل ٠٠ هل خدرهما ؟

— لا أدرى ٠٠

— أين وقع الحلم ؟

— فى فراشهما بداريهما ٠٠

— هذا مدهل حقا ٠٠ وكيف تسلل الى الدار ؟ ٠٠ وكيف خدرهما حتى يقضى وطره ؟ ٠٠ آله شركاء فى الدارين ؟
— لا أدرى ٠٠
— هل فاتحت حسن والزينى فى الموضوع ؟
— لم أجد الشجاعة الكافية ٠٠
— ماذا تعرف عن فاضل صنعان ؟
— شاب لا غبار عليه وهو من خيرة الشبان ٠٠
— ثمة شبهة لم يقم دليل عليها بعد أنه من الخوارج ٠٠
— لا علم لى بذلك !
فقال كبير الشرطة بحزم :
— سألقى القبض عليه فى الحال وأجرى معه تحقيقا دقيقا ٠٠
فقام عبد القادر قائلا :
— لعلك تجرى تحقيقك فى كتمان رحمة بسمعة المرأتين ٠٠
فقال خليل فارس دون مبالاة :
— كشف الحقيقة هو ما يهمنى فى المقام الأول !

ألقى القبض على فاضل صنعان وسيق من فوره الى السجن .
اهتم حاكم الحى عباس الخليجى بالقضية واستدعى للقائه حسن العطار وسليمان الزينى وباغتهما بالنسر الذى أشفق الطبيب من قذفهما به ٠٠ كأن ضربة عنيفة أطاحت برأسيهما وهان يالقياس اليها الموت نفسه ٠٠ أمر الرجل باستدعاء فاضل صنعان من السجن ليحقق معه بنفسه فجاءه خليل فارس وحده وهو يقول بخزى عظيم :

- هرب المجرم ولا أثر له فى السجن !!

فثار الحاكم ثورة جاثقة وانهال على كبير الشرطة بالتقريع والاتهام فقال الرجل بحيرة ممزقة :

- هروبه لغز لا حل له كأنه عمل من أعمال السحر الأسود ..
فصرخ الحاكم :

- بل انه فضيحة ستزعزع أركان الثقة ..

وانطلق المخبرون فى كل مكان كالجراد .. وجيء بأكرمان زوجة فاضل وحسنية أخته وأم السعد والدته ولكن التحقيق معهن لم يسفر عن شيء وقالت أكرمان وهى تبكى :

- زوجى أشرف الرجال ولا أصدق عنه كلمة سوء واحدة !

- ١١ -

أدرك فاضل صنعان أنه أصبح فى عداد الأموات .. لا حياة له بعد اليوم الا تحت الطاقية كروح ملعونة هائمة فى الظلام .. روح ملعونة ، لا حركة لها الا فى مجال العيب أو الشر ، محرومة من التوبة أو فعل الخير ، صار شيطاننا رجيمًا ، تأوه من الحزن فتجسد أمامه صاحب الطاقية متسائلًا :

- لعلك فى حاجة الى ؟

فحدجه بنظرة محنقة فقال له ملاطفا :

- لا حد لسلطانك ولن يعوزك شيء ..
فهتف :

- انه العدم ..

فقال ساخرًا :

- اسحق الأفكار القديمة وانتبه الى حظك الكبير !

- الوحدة .. الوحدة .. والظلام .. ضاعت الزوجة والاخت
والأم وضاع الأصحاب ..

فقال بهدوء :

- أصغ الى نصيحة مجرب ، بوسعك أن تتسلى كل يوم بحدث
يزلزل البشر ..

- ١٢ -

واجتاحت الحى حوادث غامضة فأنستهم القضية والمجرم الهارب .. يدفع وجيه من فوق بغلته فيقع على الأرض .. يصيب حجر رأس سامى شكرى كاتم السر فيشجبه وهو بين حراسه .. تختفى جواهر ثمينة من دار الحاكم .. تشتعل النار فى وكالة الأخشاب .. ينتشر العيب بالنساء فى الأسواق .. يركب الرعب الخاصة والعامة .. يندفع فاضل صنعان فى طريقه الوعر مخمورا باليأس والجنون .. واجتمع الحاكم عباس الخليجي بالشيخ عبد الله البلخي والطبيب عبد القادر المهيني والمفتي وقال لم :

- انكم صفوة حينًا ، وأريد أن أسترشد بأرائكم فيما يقع لنا .
فما تشخيصكم له وما العلاج الذى تقترحونه ؟
وقال الطبيب :

- ما هى الا عصابة من الاشرار تعمل بجرص ودهاء فنحن فى
حاجة الى مزيد من السهر على الأمن ..
وتفكر قليلا ثم واصل :

- ونحن فى حاجة أيضا الى اعادة النظر فى توزيع الزكاة
والصدقات ..

— انهم فى رأيك الهداة ، وما أنت الا أحدهم ، فلا تحاول العبث

بى ..

فقال بتصميم ورجاء :

— دعنى أفعَل ما أشاء ثم أفعَل بعد ذلك ما بدا لك !

واذا بالطاقيّة تنزع من فوق رأسه فيتجسّد فى زحمة السابلية
بميدان الرماية .. فزع من وقع المفاجأة .. وقبل أن يفيق من فزعه
أعاد الآخر الطاقيّة الى رأسه وهو يقول :

— التزم بما تعاهدنا عليه لأعاملك بالمثل ..

— ١٤ —

لكنه لم يسعد بالنجاة .. شاعت فى مذاقة مرارة راسخة ..
تساءل كيف يمكنه أن ينقذ أقرانه وأخوانه .. اختنق بالقبضة
الحديدية التى تطوقه .. انه عبد الطاقيّة وصاحبها كما أنه أسير
الظلام والعدم .. كلا انه لا يسعد بالنجاة ويخجل منها .. وحتى
اليأس مهما ارتكب من حماقات لم تستطع أن تقتلع من قلبه أنغامه
القديمة .. وحن الى بعث فاضل القديم بأى ثمن .. أجل ان فاضل
القديم مضى وانقضى ولكن ما زال فى الطريق متسع لعمل .. ومن
أعماق الظلمات ومض شعاع .. انتعشت روحه لأول مرة منذ دهر
.. وبث حياة فى ارادته .. تفجرت شجاعته فى صورة الهام صاعد
.. ورفعته موجة استهانة وتحصد فوق الحياة والموت فتطلع من فوق
ذروتها الى أفق واعد .. واعد بالموت النبيل .. بذلك يسترد فاضل
صنعان ولو جثة هامدة .. ولم يتردد فمضى بعزم جديد نحو دار
الحاكم .. ومر به المجنون وهو يردد « لا اله الا الله ، يحيى ويميت .
وهو على كل شىء قدير » ..

فقال الحاكم :

— أعتقد أن المسألة أخطر مما تفترض ، ما رأيك يا شيخ عبد الله ؟

فأجاب الرجل باقتضاب :

— ينقصنا الايمان الصادق !

— ولكن الناس مؤمنون ..

فقال بأسى :

— كلا .. الايمان الصادق أندر من العنقاء ..

عند ذاك قال المفتى بصوت خشن :

— ثمة من يمارس علينا السحر الأسود ، ولا أتهم الا الشيعة

والخوارج !

— ١٣ —

وسيق الى السجون جميع من حامت حولهم الشبهات .. ضجت
دور كثيرة بالشكوى .. ولأول مرة يفيق فاضل صنعان من يأسه ..
عجب لنفسه وتساءل أما زال فى قلبه متسع للتأمل والندم ؟! غاودته
ذكريات قديمة كما تهفو نسائم على نار متأججة .. ومضى يفكر فى
توجيه عبثه الى متجه جديد .. غير أن صاحب الطاقيّة تمثّل له بنظرته
المحذرة وهو يتساءل :

— ألم تشف بعد من دائك القديم ؟

فاجتاحه الغيظ ولكنه كظم نفسه بذل وقال :

— ان تهريب هؤلاء سيكون قمة العبث !

— تذكر اتفاقنا ..

فتساءل بحدة :

— أى خير ثمة وراء تهريب أعداء الدين ؟

فتماذى فى النشوة والافتحام .. وما ارتعب عندما تراءى له
« الآخر » فقال له :

– اليك عنى ..
ونزع الطاقية من فوق رأسه ورمى بها فى وجهه قائلا :
– افعل ما بدا لك ..
قال له :

– سوف يمزقونك ويمثلون بك ..
فهتف :

– انى أعرف مصيرى خيرا منك ..
– سوف تندم حيث لا ينفع ندم ..

فصاح :

– انى أقوى منك ..
توقع مشققا أن يبطش به ولكنه تلاشى وكأنما غلب على أمره ..

— ١٥ —

أثارت محاكمة فاضل صنعان الخواطر كما لم تثرها محاكمة من
قبل .. وأنفجرت اعترافاته فى المدينة مثل أعصار .. ولأن الصفوة
ما زالت تعتبره أحد أبنائها ، ولأن العامة اعتبروه أحدهم ، فقد تبليت
الأفكار أيما تبليلا ، وتضاربت العواطف كالدوامات الصاخبة ..
واستقبل ميدان « العقاب » سيلا لا ينقطع من النساء والرجال من
كافة الطبقات .. واختلطت همسات الاشفاق بصرخات الشماتة
كما يختلط أنين الرباب بعريدة السكارى .. ولما تراءى الشاب من
بعيد استبقت اليه الأبصار .. تقدم بين حراسه يخطوات ثابتة ووجهه
هادئ وامثال خاشع .. أمام النطع انهمرت عليه الذكريات فى موجة

الذكريات فى موجة واحدة متفجرة بالشهب .. تماوجت وجوه
أكرمان والبلخى وجمصة البلطى وعبد الله الحمال والمجنون ..
التحم الحب والمغامرة ودفاتر الدعوة وآلاف اللقاءات المدثرة بالظلام
فى الأقبية والخلوات .. رتبت الطاقية وصاحبها كعثرة بلا قرار
يفوح من أعماقها الاغراء محطما قمقمه عن شهواته المكبوتة ..
وتجلس أخيرا نصره المأساوى جاذبا معه شبيب رامة السيف ..
تلقى ذلك فى ثوان بقوة خارقة وسرعة مذهلة فرفض الأسى باباء وواجه
مصيرة ببرود واستعلاء فرأى فيما وراء الموت اشراقة تبهر الأعين ..
ولكنه رأى أيضا معلما من معالم الآخرة متمثلا فى صورة المعلم
سطلول تاجر المزايدات والتحف .. دهش لمراه فأفاق من رؤيته وسأله :

– ماذا جاء بك يا معلم ؟

فأجاب وهو يتغير من النقيض الى النقيض :

– جاء بى ما جاء بك ..

فهتف بدهشة أكبر :

– أنت ملاك الموت !

ولكنه لم يرد فقال بشجاعة :

– أريد العدل !

فقال بهدوء :

– الله يفعل ما يشاء ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

- ويبدو أنك انتفعت به ، أين القصور ، أين الخدم ، أين الجاه والسيادة ؟
فقال :

- لولا تقوى الله لفعلت ما لا يخطر ببال بشر ..
فقال له يجب الحمال :

- أعطنا آية واحدة لنصدقك ..
- ما أيسر ذلك على !

- عظيم .. ارتفع نحو السماء ثم اهبط سالماً ..
فقال معروف في مناجاة :

- يا خاتم سليمان ارفعني الى السماء ..
عند ذاك صاح به سليمان الزينى :

- كف عن هذرك عليك ..

ولكنه انقطع فجأة عن الكلام .. معروف نفسه اجتاحه رعب غريب .. شعر بقوة تقتلعه من مجلسه ، ومضى يعلو ببطء وثبات حتى وقف جميع الرواد فزعين ذهليين .. واتجه نحو باب المقهى وخرج منه وهو يصرخ « أغيثوني » ثم ارتفع حتى اختفى فى ظلمة ليل الشتاء .. تجمهر الرواد فى الطريق أمام المقهى ، تصايح الناس بالواقعة ، انتشر الخبر كأنه أشعة الشمس فى نهار الصيف .. وإذا به يهبط رويدا رويدا حتى يتجلى شبحه فى الظلمة ويرجع الى مجلسه الأول - ولكن على حال لا توصف من الاعياء والفزع .. وأحدق به الجميع من الخاصة والعامة وانهالت عليه الاسئلة :

- أين وجدت الخاتم ؟

- متى وجدته ؟

- ماذا أنت فاعل به ؟

- صف لنا العفريت ؟

- متى تحقق أمانيك ؟

معروف الاسكافى

- ١ -

لا يفوق مرجه الظاهر الا أشجانه الباطنة .. رزقه محدود وامراته فردوس العرة نهمة جشعة شرسة مليئة بالقوة والعنف .. حياته جحيم بين الكدح والزوجية .. لا يمر يوم دون أن تنهال عليه ضربا وسبا وهو يرتعد بين يديها خوفا وذلا .. يتمنى شجاعة يطلقها بها ، يحلم بموتها ، يود الهرب ولكن كيف والى أين .. قال انه أسير كما كان فاضل صنعان أسيرا للشيطان .. ولعله لا خلاص له - مثله - الا بالموت ..

وذات ليلة التهم من المنزل فوق طاقته ومضى الى قهوة الأمراء والدنيا لا تسعه من السلطنة .. ونظر فى وجوه أصحابه وقال بصوت سمعه جميع الرواد :

- أقول لكم سرا لا يصح أن يخفى عنكم ..

هم عجر الحلاق أن يهزأ به ولكنه تذكر حزنه فعدل عنه ..
أما معروف فقال :

- أقول لكم الحق انى عثرت على خاتم سليمان !

فهتف به شملول الأحذب :

- تأدب أمام أسيادك يا تيس ..

وسأله ابراهيم السقاء :

وقال له عجر :

- لا تنس أصدقاءك ..

وصاح به ابراهيم السقاء :

- اخوانك الفقراء ..

وقال له رجب الحمال :

- اجعلها كما ينبغي لها أن تكون ..

وقال سليمان الزينى :

- لا تنس الله فهو صاحب الملك ..

لم يفقه مما قيل شيئا .. ولم يدر كيف وقع ما وقع .. أى سر
امتلكه ؟ .. أى معجزة تحققت على يديه ؟ .. هل يعترف لهم بالحقيقة ؟
حذر فطرى أسكته .. انه يريد أن يخلو الى نفسه .. أن يستتره
أنفاسه ، أن يتأمل ويتأمل .. ونهض من مجلسه دون أن ينبس فأكثر
من صوت هتف به :

- لا تتركنا حيارى ، بل ريقنا بكلمة طيبة ..
ولكنه غادر المقهى دون أن يلقي نظرة على أحد ..

- ٢ -

مضى نحو داره فى مظاهرة من الرجال والنساء اكتظ بهم الطريق
.. تنافسوا فى الاقتراب منه فسقط منهم قوم وداس بعضهم البعض
.. وصاح بهم :

- اذهبوا والا أرسلتكم الى الآخرة ..

وفى أقل من دقيقة تفرقوا فى فزع واضطراب حتى تلاشت
أصواتهم فلم يجد أمامه الا فردوس العرة زوجته تنتظره أمام الدار
وبيدها مصباح وهى تقول :

- يعطى الملك لمن يشاء ..

لأول مرة منذ دهر تبتسم فى وجهه فحذجها بنظرة غليظة ولطمها
لظمة فرقعت فى سكون الليل وصاح بها :

- أنت طالق فاذهبى الى الجحيم ..

صرخت فردوس :

- تستعبدنى بفقرك وتطردنى حال أقبال الحظ !

- ان لم تذهبنى فى الحال حملك العفريت الى وادى الجن ..

فصرخت المرأة من الفزع وهولت لا تلوى على شيء .. ابتسم

أيضا أول ابتسامة صافية منذ دهر طويل ودخل مأواه المكون من
حجرة ودهليز ..

- ٣ -

ما معنى ذلك يا معروف ؟ .. أهو حلم أم حقيقة ؟ .. هل حل بك سر
حقا ؟ .. ونظر فيما حوله ، فى الحجرة شبه العارية وتمتم بحذر :

- يا خاتم سليمان ارفعنى ذراعا واحدة فوق الأرض !!

انتظر فى لهفة واشفاق ، ولكن لم يحدث شيء .. انقبض قلبه

وغاص فى صدره غريقا فى خيبته مرة .. ألم أحلق فى الجو ؟ ..

ألا يشهد على ذلك أهل الحى ؟ .. ألم تنهزم العرة لأول مرة ؟ .. وقال

من قلب جريح :

- يا خاتم سليمان ايتنى بصينية فريك بالحمام !

لم ير الا خنفساء تزحف فوق طرف الحصيرة المتهرئة .. نظر

الى الخنفساء طويلا ثم أجهش فى البكاء ..

- ٤ -

ضم خبيثته المرء في أعماقه .. جعلها سره الدفين وأقام سدا
بينه وبين لسانه .. قال ليكن من الأمر ما تجرى به مشيئة الله ..
ولكن اليس عليه أن يذهب الى دكانه ليصلح الأحذية والمراكيب
والصنادل ؟ وهل يهضم الناس سلوكه هو المالك لخاتم سليمان ؟
وإن لم يفعل فهل يهب ذاته التعيسة للموت جوعا ؟ غير أنه صادف
خليل فارس كبير الشرطة عند باب عطفته وكأنما كان في انتظاره ..
تلقاه بابتسامة متبودة غير معهودة فأدرك بذكائه أن القوم ينظرون
اليه باعتباره مالك خاتم سليمان .. خفق قلبه بأمل جديد وصمم
على تمثيل دوره بمهارة تناسبه حتى يقضى الله أمره .. قال له الرجل
برقة :

— صبحك الله بالسعادة يا معروف ..

فقال بتحفظ دهش له هو نفسه :

— وصبحك بمثلها يا كبير الشرطة ..

تكلم بثقة من يملك القوة التي لا يطمح اليها بشر ..

قال الرجل :

— حاكم الحي يود مقابلتك ..

فقال دون مبالاة :

— على الرحب والسعة ، أين ؟

— في المكان الذي يروقك !

يا أولاد الخنفساء يا جبناء .. قال :

— في داره كما يقضى بذلك الادب ..

فقال بيقين :

— ستلقى العناية والأمان ..

فقال ضاحكا في استهانة :

— لا خوف على من أي قوة في الأرض !

فقال خليل فارس وهو يداري امتعاضا ، وربما خوفا :

— سنكون في انتظارك في الضحى ..

رأى من اهتمام الناس ما ينذر بتجمهر جديد فرجع الى مسكنه
الحقير .. ورأى عجر الحلاق فأخبره بأنه أصبح أحداثا المدينة لا
الحي وحده .. وأن معجزته هزت أركان القصر السلطاني .. ولما علم
بالمقابلة الوشيكة بينه وبين الحاكم قال عجر :

— لا تبال بأحد فأنك أقوى رجل في الدنيا ، والناس الآن بين
اثنيين ، من يخشى قوتك حرصا على جبروته ومن يرجوها رحمة
بضعفه ..

فقال مداريا حزنه الخفى بابتسامة :

— تذكر يا عجر أنني من عباد الله المطيعين ..

فدعا له بالفوز والنجاح ..

وجد في انتظاره في بهو الاستقبال عباس الخليجي الحاكم وسامى شكرى كاتم السر و خليل فارس كبير الشرطة والمفتى ونفرا من الأعيان .. تأملوا رثاثة ملابسه بدهشة ولكن الحاكم دعاه الى الجلوس الى جانبه على سريريه مرحبا به غاية الترحيب فجلس بثقة ، هدفا للنظرات المستطلعة المحترقة المذعورة .. قال الحاكم :

- علمت أنك ملكت خاتم سليمان ؟

فقال بثقة ونبرة لم تخل من نذير :

- انى على استعداد لاقتناع من فى قلبه شك ..

فقال الحاكم :

- بل أردت أن أعرف - فى نطاق مسئوليتى - كيف ملكته ؟

- لم يسمح لى بإفشاء السر ..

- كما ترى ، ان تشريفك دارى يقطع بثقتك فى وهو ما أحمد الله

عليه ..

فقال بدهاء :

- الحق انه لا شأن لذلك بثقتى فيك فلا أنت ولا غيرك بمستطيع

أن يمسنى بسوء ..

فأحنى الحاكم رأسه موافقا ومداريا تأثره فى آن وقال :

- رأيت واخوانى أن من واجبنا أن نتبادل الرأى معك ، الله

يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ولكننا مطالبون بعبادته فى جميع

الأحوال ..

فقال بجراءة :

- ما أجدر أن توجه خطابك لنفسك ولاخوانك ..

فامتقع وجه الحاكم وهو يقول :

- حقا لقد تولينا السلطة فى اعقاب تجارب مرة ولكننا ملتزمون

بالشريعة منذ ولينا ..

فقال بنفس الجراءة :

- العبرة بالخواتيم ..

- لن يرى منا أحد الا ما يسر ولتكن لنا قدوة فى مولانا السلطان

شهريار ..

- غير منكور أنه فتح صفحة جديدة وان لم يبلغ الكمال المنشود

يعد ..

- الكمال لله وحده ..

ونظر الحاكم نحو المفتى فقال المفتى :

- لى كلمة يا معروف ، تقبلها من رجل لا يخشى الا الله وحده ،

الله يمتحن عبادته فى السراء والضراء وهو الأقوى دائما وأبدا ، وهو

سبحانه يحاكم القوى من خلال قوته كما يحاكم الضعيف من خلال

ضعفه ، وقد ملك قبلك آحاد خاتم سليمان فكان وبالا عليهم فلتكن فى

امتلاكك له آية للمؤمنين وموعظة للمشركين ..

ابتسم معروف منتفخا بقوة من ساد الموقف وقال :

- اسمعوا أيها الرجال الكبار ، انه لمن يمن الطالع أن خاتم

سليمان قدر أن يكون من نصيب رجل مؤمن يذكر الله بكرة وعشيا ،

انه قوة لا قبل لقوتكم بها ولكنى أذكرها للضرورة ، كان بوسعنى أن

أمر الخاتم بتشديد القصور وتجيش الجيوش والاستيلاء على السلطنة

ولكننى قررت أن أتبع طريقا آخر ..

تنفس الحاضرون بارتياح لأول مرة فانهال عليه الثناء من كل

جانب .. عند ذاك قال وقلبه يخفق :

فقال معروف وهو يغالب خفقان قلبه :
 - نعمة هذا اللقاء عندى أغلى من خاتم سليمان نفسه يا مولاي .
 - شعور كريم لرجل كريم .
 فحنى معروف رأسه وهو طويلة الوقت يتساءل عما يفعل لو طالبه
 السلطان بمعجزة . . أتصرف يا معروف من القصر الى النطع ؟ .
 قال السلطان متسائلا :
 - كيف عثرت على الخاتم يا معروف ؟
 فأجاب وقلبه ينقبض :
 - تعهدت بحفظ السر يا مولاي .
 - لك العذر يا معروف ولكن ألا أستطيع أن أراه من بعيد دون أن
 أمسه ؟

- ولا هذا أيضا يا مولاي ، ما أتعسنى لعجزى عن تحقيق
 رغبتك !
 - لا عليك من ذلك .
 - شكرا لرحمتك يا مولاي .
 فقال بعد تفكير :
 - انى أعجب لشانك ، فلو شئت الجلوس على عرشي ما منعتك قوة
 فى الأرض !
 فهتف معروف مستنكرا :
 - معاذ الله يا مولاي ، ما أنا الا عبد مؤمن ، لا تغريه قوة
 بالتعرض لمشية الله . .

- أنك مؤمن حقا ، والخاتم فى يد المؤمن عبادة !
 - الحمد لله رب العالمين .
 فسأل السلطان باهتمام :
 - هل حظيت بالسعادة يا معروف ؟
 - سعادة بلا حدود يا مولاي .

- ولكن لا يجوز أن أهمل نعمة أتاحها الله لى .
 فتطلعوا اليه باهتمام فقال :
 - يلزمنى فى الحال ألف دينار لأصلح به شانى .
 فقال الحاكم بارتياح :
 - سأراجع حساب ما تحت يدي من مال ، فان لم يكف طلبت معونة
 من مولاي السلطان . .

—٧—

ونال معروف ما تمنى من مال وأغدق عليه الاعيان الهدايا بغير
 حساب . . ابتاع قصرا وكلف المعلم سحلول بتأثيره فخلق له منه
 متحفا . . وتزوج من حسنية صنعان أخت فاضل . . وقرب اليه صحبه
 عجر الحلاق وابراهيم السقاء ورجب الحمال ، وأمطر الفقراء بجوده
 وحمل الحاكم على توفير أرزاقهم ورعايتهم واحترامهم فحلت بشاشة
 الانس فى وجوههم محل تجاعيد الشقاء ، وأحبوا الحياة كما يحبون
 الجنة . .

—٨—

وذات يوم دعى الى مقابلة السلطان شهريار فمضى اليه وهو
 ببسمل ويحوقل ويتمنى السلامة . . استقبله السلطان فى مثواه
 الشتوى المعروف ببهو المرجان ، تفرس فيه بهدوء وقال :
 - أهلا بك يا معروف ، لقد سمعت بأذنى فى جولاتى الليلية ثناء
 العباد عليك فشاقتنى ذلك الى رؤيتك . .

- ألا يفسد الماضي عليك سعادتك أحيانا ؟
 - ما مضى سلسلة من نعاسات تلقيتها من الآخرين ولكنى لم
 ارتكب ما أندم عليه !
 - هل تنعم بالحب يا معروف ؟
 - الحمد لله ، لى زوجة تهب السعادة مع أنفاسها ..
 - جميع ذلك بفضل الخاتم ؟
 - بفضل الله يا مولاي !
 فصمت السلطان مليا ثم سأل :
 - أتستطيع أن تهب السعادة للآخرين ؟
 - لا حدود لقوة الخاتم ولكنه لا يستطيع اقتحام القلوب ..
 تجلى فى أعماق عينى شهريار فتور يوحى بخيبة الرجاء ،
 ولكنه ابتسم قائلا :
 - دعنى أراك وأنت ترتفع فى الفراغ حتى تمس عمامتك نقوش
 قبة البهو !

انقض الطلب عليه كقمة جبل قذف بها زلزال ، تطايرت آماله
 هباء وأيقن بالهلاك .. قال بجرارة :
 - لا يليق فى حضرة السلطان الا الأدب ..
 - انما تطير بناء على طلبى ..
 - مولاي ، انى عبدك معروف الاسكافى ..
 - أتدين لى بالطاعة يا معروف ؟
 أجاب من حلق جاف :
 - الله شهيد على ذلك ..
 - انى أمرك يا معروف !

نهض من مجلسه فتربع فى وسط البهو .. ناجى ربه فى سره
 « ربى لتكن مشيئتك .. لا تدع كل شيء يتلاشى كحلم » .. ومن قلب
 مكلوم يائس همس :

- ارتفع يا جسدى حتى تمس عمامتى السقف ..
 وأغمض عينيه مستسلما لمصيره الأسود ، ولما لم يحدث شيء هتف
 من قلب معذب « الرحمة يا مولاي ! » .. وقبل أن ينبس بكلمة أخرى
 دبث فى قلبه حيوية ملهمة فخف وزنه وتلاشى خوفه .. وإذا بالقوة
 المجهولة ترتفع به فى هدوء ووقار وهو متربع على لا شيء ، والسلطان
 يتابعه مذهولا متخليا عن رصانته ، مغلوبا على أمره .. حتى مست
 عمامته القبة المرجانية ، ثم مضى يهبط رويدا حتى استقر فى مجلسه
 .. هتف السلطان :
 - ما أتفه السلطنة ! .. ما أتفه الغرور !
 ولم يستطيع أن يعقب بكلمة فقد فاق ذهوله ذهول السلطان
 نفسه !

- ٩ -

عجز عجزا تاما عن ادراك ما يقع له .. وقد حاول أن يستغل
 قوته الخفية فى داره فلم تستجيب له ولكنه حمد الله على النجاة ..
 ليكن من أمر قوته ما يكون .. ولتختف ما شاءت ما دامت تبادره
 بالنجاة فى المواقف الحاسمة .. وطرده وساوسه وتوكل على الله ..
 وكان جالسا فى حديقة داره يتشمس عندما طلب مقابلته رجل غريب
 .. حسبه ذا حاجة فأمر باحضاره .. قدم عليه يرقل فى عباءة
 فارسية فاخرة .. طويل العمامة مهذب اللحية مترفع النظر فلم يداخله
 شك فى علو منزلته .. أجلسه بترحاب متسائلا :

- من الضيف الكريم ؟

فأجاب باقتضاب وبنبهة مثل طريقة المطرقة فوق معدن صلب :

- أنا صاحب هذا القصر !

فأخذ معروف وقال بحدة :

- أئى هذيان !

فأعاد الرجل قوله بقوة أشد :

- انى صاحب هذا القصر ..

فصاح به :

- انى صاحبه دون شريك ..

تحداه بنظرة وقحة وقال :

- ما أنت الا دجال محتال !

فصاح معروف غاضبا :

- مجنون وقح !

- لقد خدعت الجميع ، حتى السلطان الأحمق ، ولكننى أعرفك

أكثر مما تعرف نفسك ..

فقال منذرا :

- فى وسعى أن أحولك الى هشيم تذروه الرياح !

فقال ساخرا :

- انك لا تحسن الا رفق النعال او اصلاحها ، أتحداك أن تصنع

بى ما يضر !

غاص قلبه متراجعا ساحبا معه ثقته بنفسه ولكنه تساءل بصوت

خائنه نبرته رغم تماسكه :

- لعلك لم تسمع عن المعجزة فى مقهى الأمراء ؟

- لم أسمع عنها لأننى أنا الذى صلبتها فلا تحاول خداعى .

وأنا الذى أنقذتك من العجز فى حضرة السلطان

توسل فى سره الى خاتم سليمان أن يمحى الرجل محقا .. ولما

لم يحدث شيء أنثنى جذعه تحت ثقل اليأس فتساءل فى خوف :

- من أنت ؟

- انى سيدك وولى نعمتك ..

تأوه ولاذ بالصمت فقال الآخر :

- بيدك أن تحفظ النعمة اذا شئت !

فسأله بصوت لا يكاد يسمع :

- ماذا تريد ؟

فقال بهدوء :

- اقتل عبد الله البلخى والمجنون !

فاجتاحه الرعب وقال بانكسار :

- انى أعجز من أن أقتل نملة !

- أدبر لك الوسيلة !

- لم تستعين بى وأنت القوى ؟

- لا شأن لك بذلك ..

تذكر الشوك الذى سقط فيه فاضل صنعان .. تذكر مأسى صنعان

الجمالى وجمصة البلطى .. قال بضراعة :

- أستحلفك بالله أن تعفينى من مطالبك ..

فقال الآخر ساخرا :

- ليس أسهل على من أن أقنع الحاكم باحتيالك : انهم لا يأمنون

جانبك ، ويتمنون هلاكك ليتصرفوا من استعبادك المهذب لهم ،

ستدعى سريعا لصنع معجزة أمامهم ، واذا أخفقت ولا بد أن تخفق

انقضوا عليك كالنمور ..

تجلت فى عينيه نظرة يائسة حزينة عمياء واكن الآخر لم يرحمه

فقال :

- انى منتظر رأيك ..

فهتف بحدة :

— اغرب عن وجهى ، لا أستطيع تركيز فكرى فى حضورك ..
فقام قائلاً :
— سأغيب عنك ساعة ، وإذا لم تدعنى جاء كبير الشرطة بديلاً
عنى !
قال ذلك وذهب ..

— ١٠ —

تركه فى جحيم مستعر .. هو يقتل عبد الله البلخى والمجنون !؟
أجل انه حريص على النعمة ولكنه طيب وضعيف ومؤمن .. وتجاذبت
التخيلات ولكنه كان يتشبث دائماً بالأرض عند حافة الهاوية .. وفى
ظلمات العذاب أشرق عليه خاطر سعيد .. لم لا يهرب بحسنية والمال؟
واندفع نحو الدار فأمر زوجته بارتداء عباءتها ، وعباً نقوده فى بقعة
.. سألته زوجته عما يعنيه ذلك فأخبرها بأنها ستعرف السر عندما
يصلان الى بر الأمان .. وامتلأ بغلتين وانطلقا وفى نيته أن يذهب
الى مرفأ النهر .. لكنه رأى وهو يقترب من نهاية الشارع خليل فارس
كبير الشرطة قادماً على رأس قوة من الجند ..

— ● —

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

— ١١ —

انفجرت الفضيحة فدوت طبولها فى أركان المدينة .. ومشى الرواة
باعترافات معروف الاسكافى فى كل مكان .. اطمأنت قلوب وتدرجت
قلوب الى الهاوية .. عرف أن النطع سينتقبل معروف عما قليل وأنه
سيلحق بفاضل صنعان وعلاء الدين .. خرج الفقراء والمساكين من
أكواخهم الى الميادين بلا تديبير .. اندفعوا وراء مشاعرهم القلقة
الدفينة .. وفى تجمع لا مثيل له وجدوا أنفسهم جسماً عملاقاً لا حدود
له يجأر بالاحتجاج والخوف من المستقبل .. سيتلاشى معروف فيتلاشى
الرزق وتكفهر لهم الوجوه من جديد ، تبدلت أنات الشكرى فى هيئة
همسات مبجوحة ، ثم غلظت واحتدمت بالمرارة ، ثم تلاطمت كالصخور
وبسبب من القوة المتجسدة المخلوقة من عدم تأجج الغضب .. شعروا
بأنهم سد منيع بتكتلهم ، وأنهم طوفان اذا اندفع :

— معروف برىء ..

— معروف رحيم ..

— معروف لن يموت ..

— الوليل لمن يمسه بسوء ..

وما أن نادى صوت بالذهاب الى دار الحاكم حتى اندفعت الجموع
كأنها سيل ينصب من فوق قمة جبل تبعث فى الجو هديراً .. وعند
أول شارع دار الامارة اعترض الجنود المدججون بالسلاح .. سرعان
ما نشبت معركة بين السهام والزلط ، تواصلت فى عنف تحت غيم ينذر
بالمطر .. وقبيل الغروب دوت طبول وصاح مناد :

— كفوا عن الشغب ٠٠ مولانا السلطان قادم بنفسه ٠٠
تحتاجز الفريقان وساد الصمت ٠٠ جاء الموكب السلطاني في قوة
كبيرة من الفرسان ، ودخل شهريار دار الامارة محوطا برجال دولته
٠٠ استغرق التحقيق طيلة الليل ٠٠ وخرج المندى قبيل الفجر ورذاذ
يتساقط في نعومة يغسل الوجود المشتعلة بالقلق ٠٠ توقع العباد
توقعات كثيرة ولكن لم يبلغ بهم الخيال ما حصل ٠٠ صاح المندى :
— جرت مشيئة السلطان بنقل الحاكم الى رئاسة حتى آخر على
ان يقلد ولاية الحى معروف الاسكافي ٠٠ !
تعالت الهتافات مدوية ، وشمم العباد بالفوز المبين ٠٠

السندباد

— ١. —

رفع معروف حاكم الحى — بكل خشوع — اقتراحا للسلطان بنقل
سامى شكرى كاتم السر وخلييل فارس كبير الشرطة الى حى آخر على
ان يتفضل السلطان بتعيين نور الدين كاتما للمسرد والمجنون كبير
للشرطة باسم جديد هو « عبد الله العاقل » ٠٠ ومن عجب ان السلطان
استجاب له ، ولو أنه سأل :
— أطمئن حقا الى المجنون كبيرا لشرطتك ؟
فقال معروف بثقة :
كل الاطمئنان يا مولاي ٠٠
فدعا له بالتوفيق ، ثم سأل :
— ماذا عن سياستك يا معروف ؟
فقال الرجل بتواضع :
— عشت عمرى يا مولاي أدمج النعال حتى استقر الاصلاح فى
دمى ٠٠

وقد قلق الوزير دندان فقال للسلطان عقب انصراف معروف :
— الا ترى يا مولاي ان حكم الحى أصبح بيد نفر لا خبرة لهم ؟
فقال السلطان بهدوء :
— دعنا نقدم على تجربة جديدة ٠٠

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

وكان رواد مقهى الامراء يتسامرون فى مرح يوافق ما طرأ على
حيهم عندما ظهر فى مدخل المقهى رجل غريب - نحيل القامة مع ميل
للطول أسود اللحية رشيقها ، يستقر فى عباءة بغدادية وعمامة
دمشقية ومركوب مغربى ، وبيده مسبحة فارسية حباتها من اللؤلؤ
النفيس ٠٠ انعقدت اللسنة وانجذبت نحوه الأبصار ٠٠ وبالرغم من
أنه غريب الا أنه أجال بينهم عينين باسميتين مشبعتين باللفة أهل الدار
٠٠ وعلى حين فجأة وثب رجب الحمال قائما وهو يصيح :

- سبحاتك ربى ، ما أنت الا السندباد !
قهقهه القادم بحبور ، تلقى بين ذراعيه رفيقه القديم فتعانقا بحرارة
٠٠ وسرعان ما تلاقت الأيدي فى مصافحة صادقة ، ثم مضى الى موضع
خال جنب المعلم سحلول ساحبا معه صديقه وهذا يقاوم فى حياء
هامسا :

- هذا مكان السادة !

فقال السندباد :

- أنت وكيل أعمالى منذ الساعة !

وسأله سحلول الأحذب :

- كم عاما مضت فى غيابك يا سندباد ؟

فقال بحيرة :

- الحق أننى نسيت الزمن !

فقال عجر الحلاق :

- كأنها عشرة قرون !

فقال الطبيب عبد القادر المهينى :

- رأيت عوالم وعوالم ، ماذا رأيت يا سندباد ؟

فنعم الرجل بالاهتمام كثيرا ، ثم قال :

- لدى ما يسر ويفيد وكل شيء بأوانه ٠٠ صبركم حتى أستقر ٠٠
فقال عجر :

- نحدثك نحن عما وقع لنا !

- ماذا فعل الله بكم ؟

فأجابه حسن العطار :

- مات كثيرون فشبعوا موتا ، وولد كثيرون لا يشبعون من الحياة .

هبط من الأعلى قوم وارتفع من القعر قوم ، أثرى أناس بعد جوع

وتسول آخرون بعد عز ، وفقد على مدينتنا عدد من أخيسار الجن

وأشرارهم ، وآخر أخبرنا أن ولى حكم حينا معروف الاسكافى ٠٠

فهتف السندباد :

- حسبت الاعاجيب قاصرة على رحلاتى ، الآن يحق لى العجب ٠٠

وقال ابراهيم السقاء :

- لا شك أنك أصبحت من الأغنياء يا سندباد !

فقال بامتنان :

- الله يهب الرزق لمن يشاء بغير حساب ٠٠

فسأله جليل البزاز :

- هلا حدثتنا عن أعجب ما صادفك ؟

فلوح بالمسبحة الفارسية قائلا :

- ليس العلم بكثرة الرواية ، انما العلم من اتبع العلم واستعمله ..

- ستجد فيها يا مولاي ما يسرك ..

فقال بفتور :

- طوبى لمن كان همه هما واحدا ، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه ، ومن عرف الله فانه يزهد في كل شيء يشغله عنه ..
وتم له الاستقرار ، ودعا أصحابه الى الوليمة ، وهناك روى لهم ما حدث له في رحلاته السبع ، ومنهم انتشر في الحى ثم في المدينة فهزت الأفئدة وأشعلت الأخيلة ..

- ٤ -

وذات يوم استدعاه حاكم الحى معروف وقال له :

- أبشر يا سندباد مولانا السلطان شهريار يرغب في رؤيتك ..
فسر بذلك أيما سرور ومضى من فوره الى القصر بصحبة كبير الشرطة عبد الله العاقل .. غير أنه لم يتشرف بالمثل بين يدي السلطان الا أول الليل فذهبوا به الى الحديقة .. جلس حيث اجلس في ظلمة شاملة ، وأنفاس الربيع تنفذ في أعماقه أخلاطا من روائح الزهور تحت سقف يومض بالنجوم .. كان السلطان يتحدث بهدوء ولطف فاطمأن قلبه وزايلته الرهبة وحل الانس والحب .. سأل عن عمله الأول وعن حظه من العلوم وعما جعله يعزم على الرحلة .. فأجاب بايجاز يناسب المقام ، وبصراحة وصدق .. قال شهريار :

- حدثني قوم عن رحلاتك فرغيت ان اسمع منك ما تعلمته منها ان كنت حظيت منها بعلم نافع فلا تكرر الا ما تقتضيه الضرورة ..

- كل شيء مرهون بوقته ، على ان ابتاع قصرا ، وافتح وكالة لعرض النواذر من نفائس الجبال وأعماق البحار ومجهر الجذر ، وسأدعوك قريبا لعشاء أقدم فيه غرائب الأطعمة والأشربة ثم أروى لكم رحلاتي العجيبة ..

- ٣ -

في الحال وقع اختياره على قصر بميدان الفرسان فعهد الى سحلول مهمة تأثيثه وتزيينه ، وفتح وكالة جديدة في السرق أشرف عليها من اليوم الأول رجب الحمال ، وفي أثناء ذلك زار الحاكم وما أن خلا اليه حتى تعانقا عناق الرفاق القدامى .. وحكى له معروف حكايته بنفسه فحكى له ما شاهد وما وقع له في رحلاته السبع ، وقال له السندباد بعذوبة :

- انك أهل لمنصبك ..

فقال بايمان :

- انى خادم الفقراء برعاية الله ..

وزار معلم صباه الشيخ عبد الله البلخي فقبل يديه وقال له :

- لم أمكث في رحابك الا ما اقتضته التربية الاولى ولكنى رجحت منه كلمات أضاعت لى الظلام فى الملمات ..

فقال الشيخ ملاطفا :

- لا جدوى من بزة صالحة الا فى ارض طيبة ..

فقال بحماس :

- لعلك راغب فى سماع مغامراتي يا مولاي ؟

فقال الشيخ باسم :

فتفكر سندباد مليا ثم قال :

— الله المستعان يا مولاي ..

— انى مصغ اليك يا سندباد ..

ملا الرجل صدره بالاريج الطيب ثم قال :

— تعلمت يا مولاي اول ما تعلمت أن الانسان قد ينخدع بالوهم فيظنه حقيقة وأنه لا نجاة لنا الا اذا أقمنا فوق أرض صلبة ، فانه لما غرقت سفينتنا فى رحلتنا الأولى سبحت متعلقا بلوح من ألواحها حتى اهتديت الى جزيرة سوداء ، شكرنا الله أنا ومن معى وجلنا فى أنحائها نفتش عن ثمرة ولما لم نجد تجمعنا على الشاطئ متعلقة آمالنا بأى سفينة تعبر .. وما ندرى الا وأحدنا يصيح :-
— الأرض تتحرك !

نظرنا فوجدناها تميد بنا فركبنا الفرع ، واذا بأخر يصيح :
— الأرض تغرق ..

أجل كانت تغوص فى الماء ! ورميت بنفسى فى الماء .. وضع لنا أن ما ظنناه أرضا لم يكن الا ظهر حوت كبير أزعجته حركتنا فوقه فمضى الى عالمه يحف به الجلال .. وسبحت مسلما أمرى للمقادير حتى ارتطمت يداى بصخور ، ومنها زحفت الى جزيرة حقيقية يجرى فيها الماء وتكثر الفاكهة ، عشت بها زمنا حتى مرت بى سفينة فنجوت بها ..
فتساءل السلطان :

— وكيف تفرق بين الوهم والحقيقة ؟

فقال بعد تردد :

— علينا أن نستعمل ما وهبنا الله من حواس وعقل ..

فهز السلطان رأسه وقال :

— استمر يا سندباد ..

فقال السندباد :

— تعلمت أيضا يا مولاي أن النوم لا يجوز اذا وجبت اليقظة وأنه لا يأس مع الحياة ، فقد ارتطمت السفينة بصخور ناتئة فتحطمت وانتقل من عليها الى جزيرة ، جزيرة جرداء لا ماء فيها ولا شجر ولكننا حملنا معنا أغذية وقرب مياه ، ورأيت صخرة كبيرة على مبعده يسيرة فقلت أنام فى ظلها ساعة .. ونمت ، وصحوت فلم أجد لأخوانى أثرا ، ناديت فلم أسمع مجيبا ، عدوت نحو الشاطئ فرأيت سفينة تنحدر وراء الأفق ، ورأيت الأمواج تهدر منشدة نشيد اليأس والموت ، أدركت أنها انتشلت أصحابى وأنهم فى نشوة النجاة نسوا صاحبهم النائم وراء الصخرة ، لا نائمة تصدر عن حى ، ولا شئ يعلو عن سطح الأرض الجرداء الا الصخرة ، ولكن أى صخرة ؟! نظرت بعينى اللتين أحدهما الفرع فتبين لى أنها بيضة لا صخرة كما بدت لعينى المرهقتين ، بيضة فى حجم بيت كبير ، بيضة أى طائر ؟! ، ودهمنى الفرع من ذاك العدو المجهول وأنا أغوص فى خلاء الموت البطيء .. واذا بنسور الشمس ينطفئ وينتشر جو أسمر كالمغيب فرفعت بصرى فرأيت كأننا كالنسر ولكنه يفوقه فى الحجم مئات المرات ، رأيته يهبط ويبدأ حتى يرقد فوقها ، أدركت أنه يحتويها لميطير بها فخطرت لى فكرة جنونية فربطت نفسى فى طرف ساقه الشبيهة بالصارى ، وحلق بى طائرا فوق الأرض فبدا لعينى كل شئ صغيرا تافها كأنما لا ينبض به أمل أو ألم ، حتى حط فوق قمة جبل ، ففككت رباطى وزحفت الى ما وراء شجرة فارعة لم أر مثله من قبل ، واستراح الطائر ساعة ثم واصل رحلته نحو المجهول فقهرنى النوم ، ولما استيقظت كانت الشمس تشتعل فى الضحى ، التهمت من حشائش الأرض ما أسكت جوعى ورويت عطشى من نقرة مترعة بماء صاف ، عند ذاك انتبهت الى أن الأرض تعكس اشعاعا يبهر البصر فتفحصته فتكشفت لى سطح الأرض عن ماس حر ، وتحرك طموحى رغم تعاستى فقلعت منه ما استطعت وصررته فى

سروالى ، وانصدرت فوق السطح حتى انتهيت الى شاطئء حيث
انقذتنى سفينة عابرة ..

قال شهريار بهدوء :

- انه الرخ الذى نسمع عنه ولا نراه ، انك أول انسان يسخره
لاغراضه يا سندباد فاعلم ذلك أيضا ..

فقال سندباد بحياء :

- انها مشيئة الله المتعال ..

ثم واصل حديثه قائلا :

- تعلمت أيضا يا مولاي أن الطعام غذاء عند الاعتدال ومهلكة
عند النهم ، ويصدق على الشهوات ما يصدق عليه ، فقد تحطمت
السفينة كسابقتها فوجدنا أنفسنا فى جزيرة يحكمها ملك عملاق لكنه
كريم مضئىاف ، رحب بنا ترحيب فاق جميع آمالنا ، ولم يكن لنا فى
كنفه الا الاسترخاء والسمر ، وقد قدم لنا من صنوف الطعام وألوانه
ما لا يخطر ببال فأقبلنا على الطعام كالمجانين ، غير أن كلمات قديمة
تلقيتها فى صباى عن مولاي الشيخ عبد الله البلخى صدقتنى عن
الافراط ويسرت لى وقتا طويلا للعبادة على حين أنفق أصحابى وقتهم
فى التهام الطعام والنوم الثقيل فى أعقاب الامتلاء ، فازداد وزنهم
زيادة فظيعة واكتظوا باللحم والدهن فانقلبوا كالبراميل .. وجاء
الملك ذات يوم فتأملنا رجلا رجلا ، ثم دعا أصحابى الى قصره والتفت
الى قائلا فى ازدراء :

- انك كالارض الصخرية لا تثمر ..

فحزنت لذلك .. وخطر لى أن أتسلل ليل لارى ما يفعل أصحابى
فرايت رجال الملك وهم يذبصون الربان ويقدمونه للملك فالتهمه
بوحشية وتلذذ ، فطنت فى الحال الى سر كرمه ، وهربت الى الشاطئء
حتى انقذتنى سفينة ..
تمت السلطان :

- أبقاك تورعك يا سندباد ..

ثم قال وكأنما يحدث نفسه :

- ولكن الملك أيضا فى حاجة الى الورع !

استبقى السندباد صدى تعليق السلطان دقيقة ثم واصل حديثه
قائلا :

- تعلمت أيضا يا مولاي أن الابقاء على التقاليد البالية سخف
ومهلكة ، فقد غرقت السفينة وهى فى طريقها الى الصين فلذت ومعى
نفر من المسافرين الى جزيرة غنية معتدلة الجو يسودها السلام
ويحكمها ملك طيب ، وقال لنا :

- سأعتبركم ضمن رعاياى ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ..

فسررنا بذلك ودعونا له .. ومبالغة فى اكرامنا وهبنا من جواربه
زوجات جميلات .. فطابت لنا الحياة وتيسرت المعيشة .. وحدث أن
توفيت الزوجات فجهزها الملك للدفن وقال لصاحبنا الأرملة :

- يؤسفنى فراقك فان نقاليدنا تقضى بدفن الزوج حيا مع زوجته

الميتة ، وهو ما يجرى على الزوجة اذا سبقها الزوج الى النهاية ..

فارتعب صاحبنا وقال للملك :

- ولكن ديننا لا يكلفنا بذلك ..

ولكن الملك قال له :

- لاشأن لنا بدينكم ، وتقالييدنا مقدسة ..

ودفن الرجل حيا مع جثمان زوجته فتكدر صفونا وتجهم لنا

المستقبل .. وجعلت أراقب زوجتى مشفقا ، وكلما اشتكت توعكا

خفيفا زلزل كيانى كله .. وعندما جاءها المخاض ساءت حالتها فما

كان منى الا أن هربت الى الغابة حتى عبرت سفينة ذات يوم قريبا من

الشاطئء فالقيت بنفسى فى الماء وسبحت نحوها وأنا أستغيث حتى

انتشلتنى وأنا على وشك الغرق ..

فغمغم السلطان وكأنما يخاطب نفسه :
- التقاليد هي الماضي ومن الماضي ما يجب أن يصبح في خبء كان !
خيل اليه أن لحديث السلطان بقية فأوى الى الصمت غير أن
شهريار قال :

- استمر يا سندباد ..

قال السندباد :

- تعلمت أيضا يا مولاي أن الحرية حياة الروح وأن الجنة
نفسها لا تغنى عن الانسان شيئا اذا خسر حريته ، فقد لقيت سفينتنا
عاصفة أودت بها فلم ينج من رجالها أحد سوى .. قذف بى الموج
الى جزيرة فيحاء ، معتدلة الجر ، غنية بالثمار والجداول ، فشبت
وارتويت واغتسلت ومضيت فى جنباتها مستطلعا فصادفنى عجوز
ملقى تحت شجرة لا حول له ولا قوة فتوسل الى قائلاً :

- انى عاجز كما ترى فهلا حملتنى الى كوخى ؟

وأشار بذقنه ناحية فما ترددت عن حمله .. ورفعته فوق منكبى
وسرت به الى حيث أشار .. لم أعثر لكوخه على أثر فسألته :

- أين مأواك يا عم ؟

فقال بصوت قوى غير الذى خاطبنى به أول مرة :

- الجزيرة مأوى ، وهى جزيرتى ، ولكنى فى حاجة الى من

يحملنى !

فأردت انزاله عن كاهلى ولكنى عجزت عن زحزحة رجله عن
عنقى وضلوعى كأنما هو بناء مثبت بالحديد فتوسلت اليه بدورى :

- اتركنى وستجدنى عند الحاجة فى خدمتك ..

ولكنه ضحك ساخرا منى متجاهلا لتوسلاتى .. هكذا قضى على
أن أعيش عبدا له فلم يطب لى صحو ولا نوم ، ولم أهنا بلنيز المأكـل
والمشرب ، حتى خطرت لى فكرة فجعلت أعصر عنباً فى نقرة ،

وتركنه حتى تخمر . ثم أسقيته منه حتى سكر وتراخت عضلاته
الفولانية فرميته عن كاهلى ، وتناولت حجرا فحطمت به رأسه
وأنقذت العالم من شره .. وسكنت فى الجزيرة زمنا سعيدا لم أدره
حتى أنقذتنى سفينة ..

فتنهذ شهريار قائلاً :

- ما أكثر ما يستعبدنا فى هذه الدنيا ! ، ماذا تعلمت أيضا
يا سندباد ؟

فقال السندباد :

- أيضا تعلمت يا مولاي أن الانسان قد تتاح له معجزة من
المعجزات ولكن لا يكتفى أن يمارسها ويستعلى بها ، وانما عليه أن
يقبل عليها مستهديا بنور من الله يضىء قلبه ، فقد غرقت السفينة
كسابقاتها ولذت أنا بجزيرة تستحق أن أدعوها بجزيرة الأحلام ..
جزيرة غنية بالحسان من كل لون وشكل .. مال قلبى الى احداهن
فتزوجت منها وسعدت بها .. ولما اطمأن القوم الى ركبوا تحت
ابطى ريشا وأخبرونى بأننى أستطيع أن أطير وقتما أشاء .. سررت
بذلك جدا وتوثبت لاقتحام التجربة التى لم يجريها انسان قبلى ..
غير أن زوجتى قالت لى سرا :

- احذر أن تذكر اسم الله وأنت فى الجو والا احترقت !

وفى الحال أدركت أن دم الشيطان يجرى فى دمائهم فنفرت
منهم وطررت مصمما على الهرب ، وسبحت فى الجو طويلا ولا هدف
لى الا مدينتى حتى بلغتها بعد أن آيست من ذلك ، فالحمد لله
رب العالمين ..

صمت الملك مليا ثم قال :

- لقد رأيت من عجائب الدنيا ما لم تره عين بشر ، وتعلمت دروسا
عن معاناة وخبرة فاهنا بما رزقك الله من مال وحكمة ..

قام شهريار وصدرة يجيش بانفعالات طاغية ٠٠ غاص في
الحديقة فوق المشى الملكى شبحاً ضئيلاً وسط أشباح عمالقة تحت نجوم
لا حصر لها ولا حد ٠٠ أطبقت على أذنيه أصوات الماضى فمحت الحان
الحسدية ، هتاف النصر ، زمجرة الغضب ، أنات العذارى ، هيرد
المؤمنين ، غناء المنافقين ٠٠ نداءات اسمه من فوق المنابر ٠٠ تجلى له
زيف المجد الكاذب كقناع من ورق متهرىء لا يخفى ما وراءه من
ثعابين القسوة والظلم والذهب والدماء ٠٠ لعن أباه وأمه وأصحاب
الفتاوى المهلكة والشعر والشعراء وفرسان الباطل ولصوص بيت
المال وعاهرات الأسر الكريمة والذهب المنهوب المهدر فى الأقداح
والعمائم والجردان والمقاعد والقلوب الخاوية والنفس المنحصرة
وضحكات الكون الساخرة ٠٠

ورجع من رحلته عند منتصف الليل فاستدعى شهرزاد فأجلسها
الى جانبه وهو يقول :

— ما أشبه حكايات سندباد بحكاياتك يا شهرزاد !

فكانت شهرزاد :

— جميعها تصدر عن منبع واحد يا مولاي ٠٠

صمت كأنما لينصت الى همس الغصون وزقزقة العصافير

فتساءلت شهرزاد :

— هل ينوى مولاي الخروج الى احدى جولاته الليلية ؟

فقال بفتور :

— كلا ٠٠

ثم بصوت منخفض :

— أوشكت أن أضجر من كل شيء ٠٠

فكانت باشفاق :

— الحكيم لا يضجر يا مولاي ٠٠

فتساءل بامتعاض :

— أنا ؟ الحكمة مطلب عسير ، انها لا تورث كما يورث

العرش ٠٠

— المدينة اليوم تنعم بحكمك الصالح ٠٠

— والماضى يا شهرزاد ؟

— التوبة الصادقة تمحق الماضى ٠٠

— وان حفل بقتل الفتيات البريئات والأفذاذ من أهل الرأى ؟

فكانت بصوت متهدج :

— التوبة الصادقة ٠٠

ولكنه قاطعها :

— لا تحاولى خداعى يا شهرزاد ٠٠

— ولكنى يا مولاي أقول الحق ٠٠

فقال بخشونة وحزم :

— الحق أن جسمك مقبل وقلبك نافر ٠٠

فزعت ٠٠ كأنما تعرت فى الظلام ، هتفت محتجة :

— مولاي ٠٠

— لست حكيماً ولكننى لست أحمق أيضاً ، طالما لمست امتقارك

ونفورك ٠٠

تمزقت نبراتهما وهى تقول :

— علم الله ٠٠

لكنه قاطعها :

— لا تكذبى ، ولا تخافى ، لقد عاشرت رجلاً غارقاً فى دماء

الشهداء ٠٠

— كلنا نلهج بحسناتك ..

فقال دون مبالاة بقولها :

— أتدريين لم أبقيت عليك قريبا منى ؟ ، لأنى وجدت فى نفورك عذابا متواصلا أستحقه ، أما ما يحزننى فهو أنسى أو من بأتنى أستحق جزاء أشد ..

فلم تتمالك أن بكت فقال بركة :

— أبكى يا شهرزاد فالبكاء أفضل من الكذب ..
هتف :

— لا أستطيع أن أتقلب فى نعمتك بعد الليلة ..

فقال محتجا :

— القصر قصرك ، وقصر ابنك الذى سيحكم المدينة غدا ، أنا الذى

يجب أن أذهب حاملا ماضى الدامى ..

— مولاي !

— على مدى عشر سنوات عشت ممزقا بين الأغراء والواجب ،
أتذكر وأتناسى ، أدأب وأفجر ، أمضى وأندم ، أتقدم وأتأخر ، أتعذب
فى جميع الأحوال ، آن لى أن أصغى الى نداء الخلاص ، نداء
الحكمة ..

قالت بنبرة اعترافية :

— انك تنبذنى وقلبى يتفتح لك ..

فقال بصرامة :

— لم أعد أبحث عن قلوب البشر ..

— انه قضاء معاكس يعبث بنا ..

— علينا أن نرضى بما قدر لنا ..

فقالت بمرارة :

— مكانى الطبيعى هو ظلك ..

فقال بهدوء لا يتأثر بالانفعالات :

— السلطان يجب أن يذهب بما فقد من أهلية ، أما الانسان فعليه
أن يجد خلاصه ..

— انك تعرض المدينة لأهوال ..

— بل انى أفتح لها باب النقاء وأهيم على وجهى باحثا عن
خلاصى ..

مدت راحتها الى راحته فى الظلام لكنه سحب يده قائلا :

— انهضى لمهمتك ، لقد أدبت الأب ، وعليك أن تعدى الابن لمصير
أفضل ..

— ٦ —

ظن السندباد أنه سينعم بمسرات العمل والسمر حتى نهاية العمر
ولكنه رأى حلما .. ولما استيقظ لم ينس الحلم ولم يتلاش أثره .. ما
هذا الحنين ؟ .. هل قدر له أن يمضى العمر تتقاذفه أمواج البحار ؟
منذا الذى يناديه من وراء الأفق ؟ أيريد من الدنيا أكثر مما أعطته ؟
أغلق وكالته مساء ومضى الى دار عبد الله البلخى وهو يقول عنده
الرأى .. ولح فى طريقه الى حجرة الشيخ زبيدة ابنته فمادت يه
الأرض واجتاحه هدف جديد للزيارة لم يخطر بباليه من قبل .. وجد
الشيخ ووجد معه الطبيب عبد القادر المهينى .. جلس حائرا منرددا ،
ثم قال :

— جئت يا مولاي طالبا يد كرمتمكم ..

فثقبة الشيخ بنظرة باسمية وقال :

— كلا ، دفعك للمجىء دافع آخر !

فبهت السندباد ولم يندس .. فقال الشيخ :

— ابنتى مذ قتل زوجها علاء الدين قد كرسَتْ نفسها للطريق ..

الجهـد ، والرابعة أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر ، والخامسة أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر ، والسادسة أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت ٠٠
فقال بأدب :

— لست من هؤلاء الصفوة ولكن باب الصلاح يتسع لآخرين ٠٠
فقال الطبيب عبد القادر المهيـنى :
— نطقـت بالصدق ٠٠
فقال الشيخ للسندباد :
— اذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت والبس ما وجدت وارض بما قضى الله عليك ٠٠
فقال السندباد :
— حسـبى أنى أعبد الله يا مولـى ٠٠
فقال الشيخ :
— اطلع الله على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة حرقا فشغلهم بالعبادة ٠٠
فقال الطبيب مخاطبا الشيخ :
— لقد رأى وسمع ، انى أغبطه ٠٠
فقال الشيخ :
— طوبى لمن كان همه هما واحدا ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه ٠٠
— انهـمرت النداءات من ألف عجيبة وعجيبة ٠٠
فردد الشيخ :

أنا فى الغربة أبكى ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب
عجبا لى ولتركى وطننا فيه حبيبى

فتمتم السندباد :
— الزواج لا يصد عن الطريق ٠٠
— قالت كلمتها النهائية فى ذلك !
تنهد السندباد أسفا فسأله الشيخ :
— ماذا دفعك الى يا سندباد ؟
فأطال الصمت كفاصل بين الادعاء والحقيقة ثم همس :
— القلق يا مولـى ٠٠
ففسـاءل عبد القادر المهيـنى :
— هل أصاب تجارتك الكساد ؟
فقال السندباد :
— انه قلق من لا يجد سببا ملموسا للقلق ٠٠
فقال الشيخ :
— أفصح يا سندباد ٠٠
— كأنما تلقيت دعوة من وراء البحار !
فقال عبد القادر المهيـنى ببساطة :
— سافر ففى الأسفار سبع فوائد ٠٠
فقال السندباد :
— رأيت فى الحلم الرخ يرفرف بجناحيه ٠٠
فقال الشيخ :
— لعلها دعوة الى السماء ٠٠
فقال فى تسليم :
— انى من رجال البحر والجزر ٠٠
فقال الشيخ :

— اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ،
أولاهـا أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، والثانية أن تغلق
باب العز وتفتح باب الذل ، والثالثة أن تغلق باب الراحة وتفتح باب

فنظر المهيني الى الشيخ مليا ثم قال :

- انه راحل يا مولاي فودعه بكلمة طيبة !

فابتسم الشيخ برقة وقال للسندباد :

- اذا سلمت منك نفسك فقد أدبت حقها ، واذا سلم منك الخلق

فقد أدبت حقوقهم ..

فهوى السندباد على يده فقبلها ثم نظر الى الطبيب ممثنا وهم

بالقيام غير أن الطبيب وضع يده على منكبيه وقال :

- اذهب مصحوبا بالسلامة ثم عد محملا بالماس والحكم ولكن

لا تكرر الخطأ ..

فتجلت في عيني السندباد نظرة حيرى فقال المهيني :

- لم يطر الرخ بانسان قبلك فماذا فعلت ؟ ، تركته عند أول

فرصة منجذبا ببريق الماس ..

- بل لم أكد أصدق بالنجاة ..

فقال المهيني بحماس :

- الرخ يطير من عالم مجهول الى عالم مجهول ، ويثب من قمة

الوراق الى قمة قاف فلا تقنع بشيء فهي مشيئة ذى الجلال !

وكان السندباد قد شرب عشرة أرطال من الخمر ..

— ● —

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

البكاءون

— ١ —

هجر العرش والجاه والمرأة والولد .. عزل نفسه مقهورا أمام

ثورة قلبه في وقت تناسى فيه شغبه آثامه القديمة الماضية ..

اقتضت تربيته زمنا غير قصير .. لم يقدم على الخطوة الحاسمة

حتى استفحل في باطنه الخوف وهيمت رغبته في الخلاص .. غادر

قصره بليل ، عليه عباءة خفيفة وبيده عصا مستسلما للمقادير ..

أمامه سبيل للسياحة كما فعل السندباد ، وسبيل الى دار اليلخي ،

وثمة مهلة للتدبر .. قادته قدماء الى الخلاء قريبا من اللسان الأخضر

فترامى الى أذنيه صوت غريب .. أنصت تحت هلال في السماء

الصافية فأيقن من أنه يسمع نحيبا جماعيا ! .. قوم يبكون في هذا

الخلاء ؟ مضى نحو مصدر الصوت في حذر حتى استقر وراء نخلة ..

رأى صخرة كالقبة ورجالا يتربعون حيالها في خط مستقيم .. لا

يكفون عن البكاء .. ثار فضوله وتناوبته الأفكار .. واذا برجل منهم

ينفض فيمضي الى الصخرة وينهال عليها ضربا بقبضته ، ثم يرجع الى

مجلسه ويواصل البكاء مع الباكين .. أحد شهریار بصره فعرف في

الرجال جملة من رعاياه السابقين ، سليمان الزيني والفضل بن خاقان

وسامي شكرى وخليل فارس وحسن العطار وجيليل البزاز .. فكر أن

يقتمح مجلسهم ليكشف سرهم ولكن الحذر شده الى موقفه .. وقبيل

الفجر قام أحدهم وقال :

- آن لنا أن نرجع الى دار العذاب !
فكفوا عن البكاء وقاموا وهم يتواعدون على اللقاء غدا ثم
مضوا نحو المدينة كالأشباح ..

- ٢ -

ما معنى هذا ؟ ..

اقترب من الصخرة .. دار حولها دورة كاملة .. ما هي الا
صخرة في صورة قبة غير مستوية يمر بها العابر فلا تثير اهتمامه
.. دنا منها فتحسس سطحها فوجده خشنا .. هوى عليه بقبضته
مرات ثم هم بالتحول عنها عندما صدر منها اليه صوت قوى متحرك
.. تكشف أسفلها عن مدخل مفوس الهامة فتراجع مرتعدا من الخوف
لكنه رأى نورا هادئا عذبا ونيسمت رائحة زكية مخدرة .. زايه الخوف
بتلقائية وقال له صوت خفى ان هذا الباب هو ما تاق الرجال الى
فتحه وما أحرقوا الدموع من أجله .. اقترب منه أدخل رأسه متطلعا
فجذبتة فتنة طاغية .. ما كاد يدخل حتى أغلق الباب وراءه ولكن
فتنة المكان استحوذت عليه كله .. منير بلا ضوء .. عذب المناخ بلا
نافذة ، متضوع بشذا طيب بلا حديقة .. أرضه بيضاء ناصعة قدت
من معدن مجهول ، جدرانه زمردية ، سقفه مزركش بمهرجان من
الالوان المتناغمة ، فى نهايته بوابة متألئة كأنما طعمت بالماس ، مضى
بلا تردد متناسيا ما وراءه ، ظن أنه سيبلغ البوابة فى دقيقة أو دقيقتين
ولكنه مشى طويلا والممر باق على حاله لا يقصر والفتنة من الجوانب
تندفق .. أشفق من أن يكون طريقا بلا نهاية ، لكنه لم يفكر فى الرجوع
ولا فى التوقف وطاب له المشى العقيم الى الأبد .. ولما أوشك أن يفسى

أن لمشييه غاية وجد نفسه يقترب من بركة صافية تقوم فيما وراءها
مرآة مصقولة ، وسمع صوتا يقول :

- افعل ما بدا لك ..

سرعان ما لبى رغائبه الطارئة فخلع ملابسه وغاص فى الماء ..
دلكته نبضات الماء بأنامل ملائكية وتسلفت الى باطنه أيضا .. خرج
من الماء فوقف أمام المرآة فرأى نفسه جديدا فى اهاب فتى أمره ، قوى
الجسم متناسقه ، بوجه مليح ينضج فتوة وشبابا ، وشعر أسود مفروق
وقد طر بالكاد شاربنة .. همس :

- سبحان القادر على كل شيء ..

والفتت الى ملابسه فوجد بديلها سروالا من الحرير الدمشقى
وعباة بغدادية وعمامة خراسانية ونعلا مصرية ، فارتداها فصار
آية تسر الناظرين ..

وواصل السير فوجد نفسه أمام البوابة ، ووجد أمامها صبيبة
ملائكية لم يرها من قبل ، سألتها باسمه :

- من أنت ؟

فأجاب بحيرة :

- شهريار ..

- ما صناعتك ؟

- هارب من ماضية ..

- متى تركت بلدتك ؟

- منذ ساعة على الأكثر ..

- فما تمالكك أن ضحكت قائلة :

- ما أضعفك فى الحساب !

وتبادلا نظرة طويلة ثم قالت الصبيبة :

— انتظرناك طويلا ، المدينة كلها تنتظرك ..
فتساءل فى دهشة :

— أنا ؟ !

— تنتظر العريس الموعد الملكتها المعظمة ..
وأشارت بيدها ففتحت الجوابة مرسلة صوتا كأنين الرياب ..

— ٣ —

وجد شهريار نفسه فى مدينة ليست من صنع بشر ، كأنها الفردوس
جمالا وبهاء وأناقة ونظافة ورائحة ومناخا ، تترامى بها فى جميع
الجهات العماثر والحدائق ، والشوارع والميادين المكللة بشتى الأزهار
وتنتشر فوق أديمها الزعفرانى البرك والجداول ، سكانها نساء ، لا رجل
يبينهن ، ونسائوها شباب ، وشبابها جمال ملائكى .. وانتيهن الى
القادم فهرعن الى الطريق الملكى المؤدى الى القصر ، وسجدن بين
يديه وهن ينشدن نشيد الشكر .. ومضى هو مع الصبية الى القصر ..

— ٤ —

انبهر للقصر كأنه أحد صعاليك شعبه .. آمن بأن قصره القديم
لم يكن سوى كوخ قذر .. قادته الصبية الى قاعة العرش .. الملكة
تضىء على عرشها بين جناحين من صبايا كالأللىء ..

سجدت الصبية بين يدي الملكة الآية وقالت :

— عريسك الموعد يا صاحبة الجلالة ..

ابتسمت الملكة ابتسامة أفقدته لبه .. سجد يدوره وهو يقول :

— ما أنا الا عبد مولاتى ..

فقالت الملكة بصوت عذب كأجمل الألحان :

— بل أنت شريكى فى الحب والعرش ..

فقال بصدق وأمانة :

— يقتضىنى الواجب أن أصارك بأنفسى عشت فى الماضى حياة

طويلة حتى شارفت الشيخوخة ..

فقالت الملكة بعذوبة :

— لا أدرى عم تتحدث ..

— انى أتحدث عن قبضة الزمن يا مولاتى ..

فقالت بسرور :

— ما عهدنا الزمن الا صديقا وفيا لا يطغى ولا يغدر ..

فغمغم شهريار :

— سبحان الله القادر على كل شئ ..

واحتفلت المدينة بالزواج أربعين يوما ..

— ٥ —

ومضى الوقت فى حب وتأمل ، وللعبادة أيضا وقتها وهى تمارس

فى الشراب والغناء والرقص ..

وتبين لشهريار أنه بحاجة الى ألف عام لاكتشاف خبايا الحقيقة،

والى ألف عام أو أكثر لمعرفة أبهاء القصر وأجنحته .. ويوما

— وكان بصحبته الملكة — مر بباب صغير من الذهب الخالص فى

قفلة مفتاح من الذهب المحلى بالماس ، التصقت به بطاقة كتب عليها

بخط أسود « لا تقرب هذا الباب ، فسأل الملكة :

— لم هذا التحذير يا حبيبتي ؟

قالت بعدوبتها المألوفة :

— نحن نعيش هنا في حرية مطلقة فمجرد النصيحة يعتبر في

عرفنا اهانة لا تغتفر ..

— أم يصدر منك كأمر ملكي ؟

فقالت بهدوء :

— صيغة الأمر غير مستعملة عندنا إلا في الحب وقد وجد كما

تراه منذ ملايين السنين !

— V —

وكلما مر بالباب المحرم نظر نحوه باهتمام وكلما غاب عن
الجناح القائم به رجع إليه .. ألح على فكره ووجدانه وجعل يقول
لنفسه :

— كل شيء واضح الا هذا الباب !

— A —

وضعت مقاومة ذات يوم هاستسلم لنداء خفي .. انتهز غفلة
من الخاديمات فأدار المفتاح .. انفتح الباب بيسر عن نغم ساحر
وشذا طيب ودخل مضطرب القلب كبير الأمل .. انغلق الباب فتجلى
له ما رآه لم ير أقبح منه .. انقض عليه فرفعه بين يديه كعصفور ..
هتف شهريار نادما :

— دعني بريك !

وكانما قد استجاب له فأرجعه الى الأرض ..

— ● —

— ٦ —

وسأل زوجته مرة وهو يداعيها :

— متى يكون لنا وليد ؟

فتساءلت في ذهول :

— أفكر في ذلك ولما يمض على زواجنا الا مائة عام ؟!

— مائة عام فقط ؟

— بلا زيادة يا حبيبتي ..

فتتمت :

— جسبتها أياما معدودة ..

قالت بأسف :

— لم يمح الماضي من رأسك بعد ..

قال كالمعتذر :

— انى سعيد على أى حال سعادة لم يعرفها آدمى من قبل ..

فقبلته قائلة :

— ستعرف السعادة الحقيقية عندما تنسى الماضي تماما ..

فقال شهريار :

- لن تعكر دموعى صفو الأمن !

فقال عبد الله العاقل وهو يتمادى فى تفرس وجهه :

- دع هذا لتقديرى وأجبنى ..

صمت شهريار مليا ثم قال وكأنما غفل عن الموقف كله :

- جميع الكائنات تبكى من ألم الفراق !

فسأله وهو يبتسم ابتسامة غامضة :

- أليس لك مأوى ؟

- كلا ..

- هل يطيب لك أن تقيم تحت النخلة قريبا من اللسان الأخضر ؟

فقال دون مبالة :

- ربما ..

قال الرجل برقعة :

- اليك قول رجل مجرب قال « من غيرة الحق أن لم يجعل لأحد

اليه طريقا ، ولم يؤيس أحدا من الوصول اليه ، وترك الخلق فى مفاوز

التحير يركضون ، وفى بحار الظن يفرقون ، فمن ظن أنه واصل

فاصله ، ومن ظن أنه فاصل سناه ، فلا وصول ولا مهرب عنه ، ولا بد

منه .. »

قال عبد الله العاقل ذلك ثم ذهب صوب المدينة ..

« تمت »

١٩٧٩/١١/٢٧

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

- ٩ -

نظر فيما حوله بجنون وتساءل :

- أين أنا ؟ !

الصحراء والليل والهلال والصخرة والرجال والنحيب المتواصل

شهریار وعصاه وهواء المدينة الفاسد .. صرخ من قلب مكلوم :

هوى بقبضته على الصخرة مرات حتى بض الدم منها ثم هتف :

- الرحمة .. الرحمة ..

ولكن دهمته الحقيقة واجتاحه اليأس .. تقوس ظهره وطعن فى

السن .. ودون اختيار مضى نحو الرجال بخطى متعثرة وارتمى فى

آخر الصف .. وسرعان ما انخرط فى البكاء مثلهم تحت الهلال ..

- ١٠ -

قبيل الفجر ذهب الرجال كالعادة ولكنه لم يذهب ولم يكف أيضا

عن البكاء .. وإذا برجل يمضى فى الليل وحيدا فاقترب منه وسأله :

- ماذا يبكيك يا رجل ؟

فقال شهريار بضيق :

- لا شأن لك بذلك ..

فقال الآخر وهو يتفرس فى وجهه بامعان :

- انى كبير الشرطة وما جاوزت حدودى ..

٢٩٢